رجال بعد الرسول

إبراهيم عيسى



رجال

بعد الرسول

"النص الكامل لبرنامج بنفس العنوان كتبه وقدمه إبراهيم عيسى على شاشة قناة دريم الفضائية"

إبراهيم عيسى

إهداء

إلى

أبي

وأمي

عيسى

فهرس

عبد ا   بن سعد بن أبي سرح

يوم فتح مكة كان يوما عظيما مشرقًا في تاريخ الإسلام، كتائب المسلمين تدخل وتفتح هذا البلد الحرام، وأخليت الكعبة من الأصنام.. مشهد جلل. لا يوجد أقوى من هذا أو أعز منه أو أكثر نصرة لرسول ا   والإسلام من هذا، ورغم أنه يـوم السماحة المطلقة في تاريخ الإسلام.. اليوم الذي قـرر فيـه النبي عليه الصلاة والسلام أن يعفو عن كفار ومشركي مكة الذين آذوه وحاربوه. رغم هذا الجو الجلل من السماحة إلا أن رسول ا   ﷺ أصدر أمرا يخالف القاعدة المليئـة بالرحمـة والشفقة والسماحة التـي أعطـت درس السـماحة الكبـرى وهي "اذهبوا فأنتم الطلقاء" حيث قال الرسول ﷺ للمشـركين وقد انتصر الإسلام ورفعت رايته عالية "اذهبوا فأنتم الطلقاء" إلا ثلاثة، وأمر جماعة من المسلمين بقتل ثلاثة من الكفـار بالاسم ولو وجدوا تحت أستار الكعبـة. هـل هنـاك أكثـر من ذلك حرمة وحراما، هذا القرار الاستثنائي النبوي مـؤداه أن هؤلاء الثلاثة على درجة من العنف والعمق فـي الكفـر والشرك إلى حد أن النبي عليه الصلاة والسلام يأمر بقـتلهم في للحظة المثالية العظمى، لحظة الانتصار الكبير.. ولحظة

الرحمة الكبرى التي شملت الجميع إلا هؤلاء الثلاثة وهم ابن خطل، ابن صبابة، عبد ا بن سعد بن أبي سرح.

فمن هو عبد ا بن سعد الذي اعتبره النبي ثالث ثلاثـة لا بد أن يقتلوا يوم فتح مكة؟، كان عبد ا بن سـعد كاتبـا للوحي وارتد عن الإسلام وادعى أنه كان يكتب الوحي بمـا يوحي إليه به عقله، أي أنه كان يكتب مـن دماغـه وعلـى مزاجه، وأن هذا ليس كلاما إلهيـا ربانيـا أنزلـه ا مـن السماوات العلا على نبيه ﷺ. طبعا كانت هذه الردة والخروج عن الإسلام أمرا جللاً وضرب بقوة شديدة في قدسية ووحي القرآن الكريم؛ ومن ثم يتضح الخطر الجلل الذي يمثله هـذا الرجل المرتد ولا بد من قتله. أخذت جماعة من المسـلمين المكلفين بهذه المهمة في البحث عن عبد ا بن سعد في كل مكان، وفي هذه اللحظة شعر عبد ا بن سعد أنه لن يفلـت من قبضة هؤلاء الرجال مهما كان، وأن النبي قد انتصـر، والإسلام قد ارتفع، والمسلمين وقد فتحوا مكـة فـلا مفـر أو مهرب أمامه وأنه حتما مقتول. فماذا يفعل؟ لجأ عبـد ا بن سعد إلـى عثمـان رضي الله عنه. لمـاذا عثمـان؟ لأنـه أخـوه في الرضاعة وبينهما هذه المودة والرحمة والقربى والصـلة

التي كان عثمان بن عفان يحترمها ويقدها، أما عثمـان بـن عفان فمنطلقًا من هذه المحبة لعبد ا   بن سعد ومـن فكـرة أنه شيخ عربي كبير جليل يلجأ إليه شخص ويستجير به مما حدث أغثني يا عثمان"، طبعا عثمان بن عفان فعـل الفعلـة التي لم يكن لأحد أن يفعلها سواه فهو يعرف جيـدا مكانتـه عند النبي عليه الصلاة والسلام، ويعرف جيدا قدرتـه فـي طلب العفو عنده، فأخفى عثمان بن عفان عبد ا   بـن سـعد عنده أو كما نقول الآن تستر علـى مجـرم وأخفـاه تمامـا عن الجماعة التي كانت تطلبه ثم أخذه من يده فـي مشـهد تاريخي ـ عندما تقرأه في كتب السيرة والتراجم والتاريخ ـ ومشى به في الممرات والطرق حتى وصـل إلـى الـزعيم المنتصر، والإمام العظيم، والنبي الكريم الجالس في لحظـة انتصاره وسط صحابته من الأنصار والمهاجرين، دخل على الرسول عليه الصلاة والسلام شخص مطلوب قتله وسفك دمه ولو عند أستار الكعبة، دخل عليه سيدنا عثمان بن عفان وقال أنه يطلب العفو عن هذا الشخص الذي تاب وأناب ولن يفعلها مرة أخرى فصمت النبي عليه الصلاة والسلام طويلاً وهـو التعبير الذي اعتمدته كافة كتب التاريخ والتراث والمراجـع

الدينية التي عدنا إليها في هذا المشهد. صمت الرسول عليـه الصلاة والسلام دقائق طويلة والكل في حالة تـوتر ودهشـة وترقب لما سيفعله النبي، وما سيقوله، وهل سيقبل وسـاطة عثمان؟ ثم قال الرسول: نعم، فلما انصرف عثمان بن عفـان وبصحبته عبد ا بن سعد قال النبي عليه الصلاة والسـلام لمن حوله: ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيقتله، كان الأمر النبوي بقتل عبد ا بن سعد ولو عند أستار الكعبة ومن ثـم وإن كان جالسا أمام النبي عليه الصلاة والسـلام. انـدهش الصحابة وتوتروا وقلقوا حتى أن رجل من الأنصار قال له: هلا أومأت لي يا رسول ا ؟، فرد النبي العظيم: "إن النبـي لا ينبغي أن يكون هل خائنة الأعـين". أي لا يوجـد غمـز ولمز. الكلمة كلمة، والموقف موقف بـدون لـف أو دوران، ونجا عبد ا بن سعد. هذا الرجل الذي نجا من القتل وارتـد قبل ذلك عن الإسلام وادعى أنه يكتـب الـوحي بنفسـه ـ وهناك بعض المؤرخين يشككون في أنه كان من كتبة الوحي وإنما كان من كتبة رسائل النبي وهذا الخلاف التاريخي دقيق ومهم ويفتح لنا أفقًا للجدل التاريخي ـ هذا الشخص الذي عفا عنه النبي ﷺ يوم فتح مكة هو نفسه يصبح حاكمـا لمصـر

وفاتحا لإفريقيا، وأحد الذين ردوا لعثمان بن عفـان جميلـه وشارك في وضعه على مقعد الخلافة. هذا الدور الكبير الذي لعبه عبد ا بن سعد من مرحلة الإسلام الأولى إلى مرحلـة الردة إلى استباحة قتله إلى النجاة من القتل، هو هذا الشخص الذي يصبح حاكما لمصر وأحد شركاء عمرو بـن العـاص في فتح مصر ثم فتح أفريقيا. في هذه اللحظة ربما تتعجـب وتقول هل معقول أن هذا الشخص هو الذي كانت إرادة النبي في أن يموت ويقتل؟ فتكتشف أن الإرادة الإلهية هي الأعلى وهي التي أرادت أن هذا الشخص الذي كان مـن الممكـن أن يقتل في يوم.. في ساعة.. في لحظة فتح مكة أن يلعـب دورا تاريخيا، ولكن وهو يلعب هذا الدور التاريخي وأثنـاء حضوره الحياة النبوية ووجوده مع النبي في حياتـه كانـت دموعه تتساقط منه ندما وتوبةً لأنه يعرف ماذا فعل، وكـان يتساءل دوما: "أيغفر لي ربي ما اقترفته في حـق الإسـلام وحق الرسول الكريم؟" وكان النبي عليه الصـلاة والسـلام يجيبه بأن الإسلام يجب ما قبله، وبالرغم من هذا عاش عبـد ا بن سعد فترة حياة النبي لا يستطيع مقابلتـه، وكلمـا رآه

فر منه خجلاً وخزيا لدرجة أن عثمان بن عفان ﷛ كان يقف وراءه ويصافحه ويسلم عليه.

شارك عبد ا بن سعد في جيش عمرو بن العاص الذي فتح مكة ومن الممكن أن تعتبره ـ ببساطة شديدة ـ أحد قواد حركة فتح مصر، بالطبع يعود الفضل السياسي والعسكري والديني لفتح مصر إلى عصر عمر بن الخطاب وقيادة عمرو بن العاص، وعندما علم عمر بن الخطاب بالدور البطولي والتاريخي الذي قام به عبد ا بن سعد قرر توليته حكم الصعيد. لاحظ أن عبد ا بن سعد كشخص يطارده هذا الماضي ونجا يوم فتح مكة بأعجوبة لا بد أن يكون في حالة اندفاع شديد لإثبات تدينه وثباته على الحق، فعبد ا بن سعد مثل طلقاء مكة الذي أسلموا يوم الفتح بعد أن أطلق النبي عليه الصلاة والسلام سراحهم وعفا عنهم كان لهم دور كبير في الفتوحات، والاستشهاد، وبذل النفس لتأكيد وتوكيد علاقتهم المتينة واللصيقة والقوية بالإسلام لأنه في النهاية أيضا الماضي يطاردك فضلاً عن أن لديك رغبة في غسل هذا الماضي وتقديم نفسك باعتبارك جنديا من جنود ا ورسوله.

أن يتولى عبد ا بن سعد حكم صعيد مصر فهذا لـيس شأنًا هينًا، وأن يختار عمر بن الخطاب ـ وهو من هـو ـ هذا الشخص فهذا ليس سهلاً على الإطلاق، ليس لأن القرار صادر عن عمر بن الخطاب فحسب، والذي كان حادا جادا، واضحا، قويا، صارما في اختيار الحكام والولاة.

عندما توفي عمر بن الخطاب رضوان ا عليـه كـان عبد ا بن سعد حاكما للصعيد في الوقت الـذي كـان فيـه عمرو بن العاص واليا على مصر وحاكما لها، وعندما تولى عثمان بن عفان الخلافة قرر أن يولي عبد ا بن سعد بـن أبي سرح خراج مصر. لاحظ أن هذا القرار يعني أن يصبح عبد ا بن سعد وزيرا للمالية أو أنه المسئول عن تحصـيل الأموال وخراج مصر، وهذا يحتاج لصرامة وقـدرة علـى التحصيل والأمانة، ولم يكن ذلك منصبا هينًا، وبالطبع لم يكن عمرو بن العاص ليرتاح أبدا إلى مثل هذا الوضع أو يوافـق عليه فأعلن خلافه واختلافه ورفع أمر الخلاف إلى عثمان بن عفان وقال له إنه يجب عزل عبد ا بن سعد لأنه لا يمكـن أن أكون أنا واليا لمصر وليس لي شأن بأموالها وخراجهـا، لكن عثمان بن عفان امتنع عن ذلك وقال له: "يا عمرو لقـد

ولاه عمر بن الخطاب"، وطوال الوقت كان مبـرر عثمـان هو اختيار عمر بن الخطاب له، والمعروف أنه عندما تـولى عثمان بن عفان الخلافة أقر لمدة عام حكام وولاة عمر بـن الخطاب على اعتبار إقرار اختيار عمر بن الخطـاب الـذي كان محل رضا من الجميع، لكن بعد ذلك بدأ الأمر يختلـف، وكان عثمان بن عفان يحتج دائما عندما يشكو له أحد الأفراد أن والي قد افسد أو أضل بأن عمر بن الخطاب كان قد ولاه، وهذه كانت المصداقية التي يحملها هذا الرجل ـ عبد ا بن سعد ـ أن عمر بن الخطاب كان قد ولاه حكم الصعيد فمـن الطبيعي أن أولية خراج مصر فضلاً عن أنـه عنـدما ولاه عمر بن الخطاب الصعيد لم يكن بينهما قربى، فما بالك أنـه أخي في الرضاع فكيف أعزله؟

لعبد ا بن سعد دور كبير في ولاية عثمان بن عفـان خلافة المسلمين، وكان هذا يبدو دائما كما لو أن عبد ا بن سعد يرد دينًا لعثمان بن عفان، والعكس بـالعكس، وانتهـى الأمر إلى أن أرسل عثمان بن عفان لعبد ا بن سعد يوليـه على مصر كلها وعزل عمرو بن العاص، وبعدما تولى عبد ا بن سعد ولاية مصر انتقد عثمان بن عفان عمـرو بـن

العاص في لقاء له بالمدينة المنورة فقال لـه: "مصـر درت بعدك ألبانها"، فرد عمرو بـن العـاص ـ داهيـة العـرب والسياسي المحنك ـ: "ذلك لأنكم أعجفتكم أولادها"، ويؤكـد بعض المؤرخين أن عثمان بن عفان ولى حكم مصر لعبد ا بن سعد لأنه أسهل كثيرا جدا في السيطرة عليه من عمـرو بن العاص الذي كان قامة كبيرة، ومـن الصـعب قيادتـه، فهو موهبة كبيرة في السياسة، ويحتل منصبا كبيرا وهو حكم مصر، فعثمان بن عفان ارتضى ذلك لإخلاص عبد ا بـن سعد له فهو لا يمكن أن ينسى يده التي استأمنته عند رسـول ا ﷺ.

أيضا كان عبد ا بن سعد من الذين شاركوا في دعـم وترشيح عثمان بن عفان لمقعد الخلافة عندما أشار على عبد الرحمن بن عوف أن يختاره خليفة لعمر بن الخطاب فقـال له: "بايع عثمان وهذا ما سيجعلك تحصل على تجارة قريش كلها"، ولم يكتف عبد ا بن سعد بأن يكون حاكمـا لمصـر فقط، لكنه استطاع أيضا أن يكون فاتحا لأفريقيا.

عندما استقر المقام بعبد ا بن سعد بن أبي سرح فـي مصر واستتبت له الأمور كتب لعثمان بن عفان يخبـره أن

أفريقيا بلاد قريبة، واستأذنه فـي فتحهـا، فشـاور عثمـان مجموعة من الصحابة فأشار معظمهم بالإقدام علـى غـزو أفريقيا، ودعوة أهلها إلى الإسلام، فجهز عثمان بـن عفـان العساكر من المدينة، وأمد عبد ا بن سعد بجيش قوي جـدا وقوته أنه سمي بجيش العبادلة لتضـمنه مجموعـة كبيـرة من أبناء الصحابة منهم عبد ا بن عباس، عبد ا بن عمر بن الخطاب، عبد ا بن عمرو بن العـاص، عبـد ا بـن الزبير بن العوام، عبد ا بن جعفر، والحسـن والحسـين، وكان قوام الجيش عشرين ألف وفتحوا أفريقيا وانضـم لهـم في هذا الفتح عقبة بن نافع.

حدث تمرد ضد عبد ا بن سعد بعد فتح أفريقيا بفتـرة قصيرة نظرا لأنه قرر أن يأخذ ثلث الغنائم، وهو مـا أقـره عليه عثمان بن عفان على مدى السنة والثلاثة أشـهر التـي استغرقها في فتح أفريقيا، إلا أن القادة المشاركين له رفضوا، وغضبوا، وعتبوا، ولاحقوا عثمان بن عفان وعبـد ا بـن سعد، وانتهى الأمر إلى أن سحب عثمان بن عفان موافقتـه على أن يأخذ عبد ا بن سعد ثلث الغنائم، وعاد عبد ا بن سعد إلى مصر ليحتفظ ـ كمـا تقـول كتـب التـراث ـ

دارا كبيرة أسماها قصر الجن، والحقيقة أن هذه الدار أثارت كثيرا من اللغط لدرجة أنه عندما سأل عبد الله بن سعد المقدام رأيه في تلك الدار قال له: "إن كنت بنيتها من مالك فقد أسرفت، وإن كنت بنيتها من مال المسلمين فقد أفسدت"، والحقيقة أنه كان قد أفسد بالفعل وبناها من مال المسلمين، لكنه اكتشف أنه لكي يهدمها فسوف يكون الأمر له مضار كثيرة، فانتهى الحال به إلى أن أبقى على القصر وكان هذا أحد العلامات المؤشرة على ما حدث في ولاية عثمان بن عفان بن عفان، وما طرأ على ولاته من بناء القصور الفخيمة لدرجة أن المدينة المنورة في عصر عثمان بن عفان عرفت بالقصور الفخيمة.

كان عبد الله بن سعد أحد أبطال معركة ذات الصواري أيضا، وهي معركة شهيرة ومهمة بين المسلمين والروم، واستخدم فيها الروم ٦٠٠ مركبا، بينما استخدم المسلمون ٢٠٠ مركبا فقط بقيادة عبد الله بن سعد، وكانت فكرة أن يخوض المسلمون حربا عبر البحار مسألة صعبة جدا، وغريبة على العقل العربي، وانتصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح في معركة ذات الصواري، وهي معركة فائقة

الخطورة وذلك لاشتباك مركبه مع مراكب الروم، واستطاع جنوده أن يخلصوه من الفخ الذي وقع فيه، لكن فخًا آخر كان ينظر الجميع، ففي تلك الفترة قامت على عثمان بن عفان ثورة هائلة بداية من مصر التي كان يحكمها عبد ا بن سعد، حيث كانت هناك معارضة ضخمة، وثورة على عبد ا بن سعد، فاستدعاه عثمان بن عفان.

في هذه اللحظة التاريخية ظهر اسم محمد بن أبي حذيفة وهو ابن عم عثمان بن عفان ومن عائلته وأقاربه فضلاً عن أنه كان من الذين أحسن إليهم عثمان بن عفان وولاه ما لا يستحق بشهادة الجميع، ومع ذلك شارك محمد بن أبي حذيفة في دفع المسلمين إلى السفر إلى المدينة وحصار عثمان بن عفان وقتله.

عندما علم عبد ا بن سعد بمشاركة محمد بن أبي حذيفة في ذلك، وإرساله مجموعة المصريين للثورة في المدينة، كان عبد ا بن سعد محتارا هل يرجع إلى مصر فيقع في فخ مع محمد بن أبي حذيفة، أم يذهب إلى المدينة المنورة ويلجأ لعثمان بن عفان المحاصر، فكان قراره بالسفر إلى المدينة، لكن عثمان كان قد قُتل، فحاول أن يرجع إلى

مصر لكن محمد بن أبي حذيفة منعه من دخـول الفسـطاط ومصر كلها فهرب عبد ا بن سعد إلى عسقلان وأقام بهـا حتى وصله مقتل عثمان بن عفان وما تلي ذلك. كان السبب في طرد محمد بن أبي حذيفة لعبد ا بن سعد من مصر أنه كان يطمح في حكم مصر بدلاً منه. وقيل إن عبد ا بعد أن توضأ ذات يوم في عسقلان، ثم صلى الصبح فارقت روحـه جسده إلى بارئها.

خالد بن الوليد.. سيف ا المسلول

عندما عزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه خالد بن الوليد، عاد خالد مرة أخرى إلى المدينة المنورة عاصمة الخلافة ومقر الحكم، ومن المدهش أن نعرف من كتب التاريخ أن عمر بن الخطاب لم يتخذ قصرا ولا حتى بيتًا للخلافة والحكم، وهذا يرجعنا إلى قصة اغتيال عثمان بن عفان واقتحام بيته أو داره لتكتشف أنه لم يكن هناك حراس ولا بوابات عالية، ومن ثم يجب الاعتبار جيدا لفكرة أن قصر عمر بن الخطاب ومقر إدارة الحكم كانت المسجد أو بالأحرى جزء من المسجد النبوي حيث كان يجلس عمر بن الخطاب فيدير العالم ويحكم الأمة شرقًا وغربا في واحد من البرلمانات العظيمة في تاريخ البشرية ما بين صحابة يختلفون معه، وصحابة يحاورونه، وصحابة يواجهونه، ويناظرونه إلى حد أن خالد بن الوليد القائد العسكري صاحب الفتوحات والمجد، وحامل نيشان ورتبة كبيرة جدا من الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه سيف ا المسلول.

عندما أطلق الرسول عليه الصلاة والسلام على خالد بن الوليد لقب "سيف ا المسلول" لم يكن ذلك لأنه انتصر، ولكن لأنه أنقذ الجيش بالانسحاب.. قدرته على الانسحاب هي التي جعلته سيف ا المسلول، إذن ليس بالضـرورة أن النصـر والانتصار العسكري والمجد الضخم هو الذي يجعلك عظيما مهابا، وإنما مجرد القدرة على إنقاذ الدم المسلم يجعلك بطلاً، وقمة من قمم التاريخ العسكري والديني، عندما رفعت هـذه المهابة عن خالد بن الوليد.. مهابة القائد، هذه الهيبة.. هيبـة المنتصر، هذا الفارس ترجل وذهب إلى الفاروق عمر بـن الخطاب في المسجد مقر الخلافة وجلس إلى السجادة الجالس عليها عمر بن الخطاب فلم نعرف لـه كرسـيا أو عرشًـا أو حتى مرتبة أو فرشتين فوق بعض - وقال خالد بن الوليد لعمر بن الخطاب: "لقـد شـكوتك وا إنـك لغيـر محـق في أمري".

بالرغم من أن خالد بن الوليد كان يحدث أمير المؤمنين، إلا أنه كان يملك هذه الحرية، وهذه القدرة على المواجهـة، والمناظرة، والشكوى، بل ورفض القرار. فرد عليه سـيدنا عمر بن الخطاب الرد العمري الذي هـو مفتـاح شخصـية

عدله، وعدل شخصيته، ومفتاح عظمة الأمم، وتساءل عمـر ابن الخطاب السؤال الذي سأله الحاكم فتأكد أن الأمة ستسير على نحو رائع ومدهش ومتقدم. سأل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد: "من أين لك هذا الثراء؟"، كان عمر بن الخطـاب يسأله عن ماله وثرائه. ينتصر خالد بن الوليد ويفتح فتوحات عظيمة، وينتصر في معارك كبيرة - على عيني ورأسي - لكن هذا في النهايـة لا يكـون محصـلته ثـراء وتربحـا واستغلالاً. سأله عمر بن الخطاب: "من أين لك هذا الثراء؟"، فرد عليه خالد بن الوليد: "من الأنفال" أي من الغنـائم التـي يحصل عليها باعتباره قائدا من القواد كمـا يوجـب قـانون أو عرف توزيع الغنائم، وأضاف خالد بن الوليد "ما زاد عن الستين ألفًا فلك"، وزاد مال خالد بن الوليد عن السـتين ألفًـا بعشرين ألف، فضمهما عمر بن الخطاب إلى بيـت المـال، الأمر واضح عند عمر بن الخطاب لا لبس فيـه، ولا لـف، ولا دوران. خالد بن الوليد قائد عسكري، وبطل من الأبطال، وفارس من الفرسان، وقل ما شئت من الألقـاب والمزايـا، والصفات، لكن عند هذه النقطة، وعند هذا الخـط الأحمـر فلا.. لا يوجد استغلال أو تربح، ولاحظ أننا نتحـدث عـن

عمر بن الخطاب الصحابي الجليل والمبشر بالجنة، وخالد بن الوليد صحابي آخر، وهو ما يعني أن لا أحد فـوق النقـد، أو أنه ما دام صحابي فإنه لا يخطئ ولا يقترب من المـال، ولكن ما حدث أن خالد بن الوليد اعتقد أن ذلك حقه، وانتهى به الأمر إلى أن ذلك لم يكن من حقه، ومن هنـا اختصـمه عمر بن الخطاب وعزله.

شخصيا لست مقتنعا كثيرا بما جاء في كتـب التـاريخ أن عمر بن الخطاب عزل خالد بن الوليد حتى لا يفـتن بـه الناس، وأعتقد أن هذا التعبير قيل بشكل دبلوماسي على لسان عمر بن الخطاب، أو على لسان المؤرخين الـذين اعتبـروا أن هذا التعبير سوف يخفف من عنف مثـل هـذا القـرار، وهو أن يخرج قائد منتصر مثل خالد بن الوليد خارج ساحة وميدان المعركة تماما بقرار مهم، وعاجل، وقوي من عمـر بن الخطاب، والحقيقة أن خالد بن الوليد كشخصـية كانـت صفاته تتداخل فيها أمور تجعل شخصا عظيما مثل عمر بن الخطاب يقرر عزله، بمعنى أن خالد بن الوليد كان غضـوبا أي كثير الغضب، وتذكر لنا كتب التاريخ أنه عنـدما كـان يغضب كان يمتقع لونه، وكان خالد بـن الوليـد يغضـب،

ويتشاجر مع الصحابة أنفسهم، حيث يحكـي لنـا التـاريخ أحاديث المغاضبة، فعلى سبيل المثال كانت هناك مغاضـبة بينه وبين أبي عبيدة الجراح أحد القواد العظام فـي التـاريخ الإسلامي، وأمين الأمة كما أطلق عليه الرسول عليه الصلاة والسلام؛ إذ حدث بينهم المعركة فكرية سياسية مهمة جدا بعد فتح دمشق، فعندما سلمت الإمارة إلى المسلمين، وعملوا هدنة ومعاهدة؛ كان رأي أبو عبيدة الجـراح أن هـذه مصـالحة ومعاهدة، أما خالد بن الوليد فكان يعتبر هذا انتصار عسكري من المسلمين على دمشق، ومن ثم كـان جـادا فـي هـذا الموضوع تماما، وكما تذكر كتب التاريخ، كان له حدة يملكها أو تملكه، أي أن الغضب إما يتمكن منه، أو أن غضبه يفوق أي مقام له وللأستاذ عباس العقاد رأي فـي هـذا السـياق وهو أن الحوادث التي بلغتنا إشارة إلى الكثير الذي لم يبلغنا؛ بمعنى أن كون خالد بن الوليد غضب من أبي عبيدة الجراح في هذا الأمر بينما استنكر أبو عبيـدة الجـراح واسـتنكف أن يقتص من أهل حمص أو يأخذ نسائهم سـبايا، وأمـوالهم غنيمة ما داموا قد سلموا لهم؛ وكان رأيه أن هذا الفعل لـيس فتحا، وإنما جباية، وأن هذا ليس رفعا لراية الإسلام، وإنمـا

للانتصار العسكري، وهناك فرق في الرأي بين قائد عسكري لا يرى إلا المعارك والحرب، وبين رأي أبو عبيدة الجـراح ومن ورائه عمر بن الخطاب أن ما يفعلونه هو هداية وليس معركة أو خناقة، وأن ما حول الإسلام ومعاركه مـن كلمـة الغزو إلى كلمة الفتح هو أبو عبيـدة الجـراح وعمـر بـن الخطاب وليس خالد بن الوليد، ولذلك فإن الانتصار العظـيم حققه عمر بن الخطاب، والقيمة التي أرسـاها أبـو عبيـدة الجراح هو أننا نفتح ولسنا نغزو، ولسنا نطمع فـي الأرض، أو المال، أو السبايا، أو الغنائم، وإن ما نبغيه هو فتح من ا ونصر. هذا النصر هو الذي جعل عمر بن الخطاب يقـرر عزل خالد بن الوليد، ولم يكتف خالد بن الوليد بهذه المغاضبة مع أبي عبيدة الجراح، ولكن تذكر لنا كتـب التـاريخ أنـه غاضب عبد الرحمن بن عوف، وعمار بن ياسر على مسمع ومشهد من الرسول عليه الصلاة والسلام؛ إذ قال خالد بـن الوليد لعمار بن ياسر: "لقد هممت ألا أكلمك أبـدا"، فأصـلح بينهما النبي عليه الصلاة والسلام وهو يقول لخالـد: "مالـك ولعمار رجل من أهل الجنة قد شهد بدرا"، ثم يقـول عليـه الصلاة والسلام لعمار: "إن خالد يا عمار سيف من سـيوف

ا   على الكفار"، وتحكي لنا كتب التاريخ عن اعتزاز خالـد بن الوليد بنفسه، وبقدراته.

كما يجب أن نلاحظ التكوين الاجتماعي لخالد بن الوليد باعتباره من أبناء الثراء، ومحبي الرفاهية، وبهجـة الحيـاة لدرجة أنه لم يفرغ من الحرب إطلاقًا إلا وتزوج، وتذكر لنا كتب التاريخ أن حياة خالد بن الوليد كانت عام غزو، وعـام نساء، فمثلاً ينتهي من معركة اليمامة فينتقـل إلـى زوجـة من الزوجات الجدد، وينتهي من موقعـة الجنـدل فيتـزوج بأخرى حسناء، وهذا دليل على الرفاهية التي يعيشها فـارس من الفرسان العظام وهو خالد بن الوليد.

عندما عزل خالد بن الوليد عن قيادة الجـيش تراجـع دوره، واختفى تقريبا من صفحات الكتب والتاريخ، وانتهـى إلى بضعة صفحات بعد عزله بدلاً مـن تصـدره المشـهد التاريخي من غزوات وفتوحات. إذن يجب أن نعترف ونحن نقرأ هذا التاريخ أن دور خالد بن الوليد كقائد عسكري هـو الدور الذي كان يمتلك حياته؛ بمعنى أنه بمجرد فراغه مـن القتال، وبمجرد رحيله من ساحة المعركة والحرب ينسـحب دوره السياسي، والفقهي، والديني.

فماذا حدث بعد أن عاد السيف إلى غمده؟ قرر عمر بن الخطاب ألا يمكث خالد بن الوليد بالحجاز أو المدينة المنورة فرحل إلى حمص في الشام، وكان ذلك هو المكان الأثير لدى خالد بن الوليد، واختاره لأنه لا يريد أن يظـل فـي مكـان صناعة القرارات السياسية وهو بعيد عنها، وكـان يعـرف ويدرك أن دوره هو القائد، والفارس، والفاتح، ومن ثم هناك أدوار أخرى يمكن أن يتجاوز أحدهم قـدره فيـه، أو يعلـو في مقام عليه؛ لكن عمر بن الخطاب لم يكن ليتـرك الأمـر مفتوحا إلى هذا الحد؛ فمثلاً كان عمر بن الخطاب يلوم خالد بن الوليد لأنه يتدلك بقطعة نسيج معجونـة بـالخمر عنـد استحمامه معتبرا ذلك دليل رفاهية لا مبرر لها وغير لائقة، وأشير هنا إلى أنه بالرغم من أن هـذه التفصـيلة صـغيرة ومحدودة؛ إلا أن عمر بن الخطاب تدخل فيها، كما أنها تؤشر لمدى الرفاهية والإحساس بنعمة الحياة، وجمال الدنيا التـي كان يعيشها هذا الفارس. تخيل أنه كان يقابل كل يوم موتى، وقتلى، ودماء، وحروبا، وقرارات حاسمة، وآلاف الجثـث، ومئات الشهداء، فكان نتيجة هذه المشـاهد إمـا أن ينتهـي إحساسه بفزع الموت، وإما أن يتمسك بنعمة الحياة، وبدعـة

العيش والرفاهية، والحقيقة أن خالد بن الوليـد جمـع بـين الاثنين: رفاهية ودعة العيش خاصة أنه كان من بيئة ثريـة جدا تجنح به إلى المتعة فـي الحيـاة والعـيش بالإضـافة إلى انتهاء أساسه بفزع الموت.

لم تكن طبيعة خالد بن الوليد طبيعة فارس يبحث عـن مجد عسكري فقط، ولكنه كان - كما تؤكد كتب التـاريخ - محبا لمتع الدنيا وبهجتها، فلم يكن أحب إليه في ليلة شـديدة الجليد في سرية من المجاهدين أصبح بهـم العـدو فعلـيهم بالجهاد، لم يكن أفضل وأجمل من ذلـك عنـده إلا اشـتهاء العروس، وكانت غاية المتاع عنده إما الحـرب أو الـزواج والدعة والرفاهية؛ هذه هي الحالة التي نكتشـفها فـي قائـد عسكري عظيم مثل خالد بن الوليد.

ظل خالد بن الوليد في حمص أربع سنوات لم يفارقهـا إلى قليلاً وطوال الوقت كان يعيش في عزلة عن واقع العالم السياسي عربيا وإسلاميا، كان يعيش بين أهله وأولاده الذين قارب عددهم الأربعين ولدا ويرجع ذلك لكثرة زيجاته، لكـن الغريب أن أولاده الأربعين توفوا في حياته وأمـام عينيـه.. أمام عيني هذا الأب البطل الذي كان يحب الحياة ويصـارع

الموت في ميدان القتال، ويصرع الأعداء، ولم يحفـظ لنـا التاريخ قولاً مأثورا في موت هؤلاء الأبناء الكثيرين، ولم يقل خالد بن الوليد جملة توقف عندها التاريخ، وكتبها، ولم يلـق حتى بيتًا من الشعر، ولم نشهد له مشهدا في كتـب التـاريخ تدل على أنه قال شيئًا، أو تأثر أثرا بليغًا في مـوت جملـة من الأبناء راحوا ضحية طـاعون مـر بـالوطن العربـي والإسلامي. هذا الرجل لم يصدر منه ذلك لسبب واضح جدا، وهو أنه التقى بالموت كثيرا ورآه عاديا ويوميا، ولذلك عندما يتعقب الموت أبنائه فهذا أمر يحدث أمامه وهو القائد الأشهر الذي يعرف ماذا يعني الموت، ولم يكن يهتز للدرجـة التـي يقول فيها قولاً، أو يحكي فيها على الأقل شعرا.

لكنني أريد أن أتوقف عند ابنين من أبناء خالد بن الوليد ظلا على قيد الحياة بعد وفاته أشهرهم هو المهاجر بن خالـد بن الوليد الذي انضم إلى صـف علـي بـن أبـي طالـب في المعارك التي خاضها ضد معاوية بن أبي سفيان، فكمـا نعلم أنه بعد موت عثمان بن عفان انقسمت الأمة الإسـلامية إلى فسطاطين: فسطاط علي بن أبي طالب، وفسطاط معاوية بن أبي سفيان، أما ابن خالد بن الوليد الثـاني فكـان عبـد

الرحمن واستمر حيا حتى شهد خلافة معاوية بن أبي سفيان، وكان أحد الذين حصلوا على شـعبية هائلـة، وجماهيريـة واسعة، ومحبة صافية من جماهير المسلمين، وكان أحد أهم الرجالات والشخصيات التي سـعت إلـيهم الأمـة وقتهـا، ثم فوجئ التاريخ على حين غرة بأنه مات مسموما في فتـرة معاوية بن أبي سفيان عندما قيل إنه رشح للخلافة وكان ذلك قبل أن يرشح معاوية بن أبي سفيان ابنه لولاية العهد بوقـت ليس قصيرا وسابقًا بعدة أسابيع أو أيام سقا معاوية بن أبـي سفيان سما - كما تقول كتب التاريخ والمؤرخـون - لعبـد الرحمن بن خالد بن الوليد على يد طبيب معاوية، وهذه هي اللحظة التاريخية التي انتهى فيها نسل وذرية هذا القائد الذي صاحب الموت والقدر، والذي لعـب دورا تاريخيـا رائعـا ومجيدا في الفتوحات الإسلامية.

كانت نهاية خالد بن الوليد على فراشه بعـد أن شـهد ما يقرب من ٥٠ زحفًا من العراق، ونجد، والشام، ولم يبـق في جسمه موضعا سليما من كثرة الجراح، مات خالـد بـن الوليد ولم يتجاوز الخامسة والخمسين من عمره على فراشه.

هذا الرجل الذي غير مـن خريطـة الإسـلام والمسـلمين في العالم بأسره.

ديموقراطية عمر بن الخطاب

عندما طُعن سيدنا عمر بن الخطاب وكـان ذلـك فـي المسجد النبوي عندما كان يؤم الناس في صلاة الفجر حتـى أن طعنة أبي لؤلؤة المجوسي تسببت في فض جمع الصلاة، وقيل إن سيدنا عمر بن الخطاب قرر أن يكمل الصـلاة، أو أنه أمسك بأحدهم ليؤم الصلاة مكانه، لكن المؤكد أن سـيدنا عمر بن الخطاب سقط جريحا نازفًا، وحـاول أبـو لؤلـؤة الهروب فأحاط به المصلون في المسجد، وحاولوا مطاردتـه لدرجة أنا أبا لؤلؤة أصاب مع سيدنا عمر بن الخطاب تسـع آخرين ما بين إصابة نازفة قاتلة، وبين قتل سـريع عاجـل، وقيل إنه قتل أثناء المطاردة، وقيل إنه انتحر.

عندما طعن سيدنا عمر بن الخطاب لم يتوقـف فـورا، هناك روايات تقول إنه طعن الأربعاء لكن توفي ودفن الأحد، وروايات أخرى تقول إنه طعن الأربعاء ودفـن الخمـيس، وخلال هذه الفترة - سواء كانت ٢٤ أو ٧٢ ساعة - كـان عمر بن الخطاب على فراش الموت ينتظر لقاء ربه في حالة نازفة وهبوط في القلب. كلنا نعلم أن آخر مـا يمـوت فـي

الإنسان هو مخه وقدرته العقلية والتي تظـل تعمـل حتـى اللحظة الأخيرة، ومع عقلية فذة ونادرة في تـاريخ الأمـم، بل في تاريخ العالم مثل عمر بن الخطاب من الـوارد جـدا أنه يظل حتى اللحظة الأخيرة مشغولاً بقضية مـال وحـال المسلمين ومستقبلهم بعد وفاته، تقول الروايات إنـه عنـدما طعن عمر بن الخطـاب قيـل لـه: "يـا أميـر المـؤمنين لو استخلفت؟" أي لو عينت لنا واليا بعدك كما فعل أبو بكـر الصديق عندما عينك أميرا للمؤمنين من بعده، فقال عمر بن الخطاب: "من استخلف؟".

هل كان هذا السؤال يدور في ذهن سـيدنا عمـر بـن الخطاب طيلة فترة ولايته وحكمه للمسلمين؟ هل كان يفكـر في من يمكن أن يخلفه؟ أم أن هـذا السـؤال تـراءى لـه واستدعاه مع لحظة تاريخية هي ما بين لقـاء ربـه، ووداع أهله، بعد الفتوحات والانتصارات التي اتسعت معها الأمـة الإسلامية من حدود الهند إلى أسبانيا، وأفريقيـا. فـي هـذه اللحظة تساءل سيدنا عمر بن الخطاب" من استخلف؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته، فإن سألني ربـي قلـت سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة، ولو كان سالم مـولى

أبو حذيفة حيا لاستخلفته، فإن سألني ربي قلت سمعت نبيـك يقول إن سالم شديد الحب ". هذه هي المبررات التي يقدمها سيدنا عمر بن الخطاب لاستخلاف من بعده.

وهناك روايات كثيرة تضيف خالد بن الوليد إلا أن هذا الكلام في ظني، وفي ظن كثيـر مـن يؤرخـون للتـاريخ الإسلامي غير دقيق، إذ كيف يعزل سيدنا عمر بن الخطـاب خالد بن الوليد عن قيادة الجيش، وقيادة الأمـة العسـكرية، عن أي منصب سياسي قيادي في عصره فإذا به يعينه واليـا للأمة. كان عزل سيدنا عمر بن الخطاب لخالد بـن الوليـد عزلاً واضح الدلالة، ومهم جدا حيث كان سيدنا عمـر بـن الخطاب يتصور - وهذا عن حق - أن خالد بن الوليد بطل عسكري حقيقي، لكنه ليس بطلاً سياسـيا يسـتطيع إبـرام معاهدات صلح وسلام مع دول مفتوحة فمثلاً فـي معركـة سميت (ذات العيون) ويرجع ذلك إلى أن خالد بـن الوليـد القائد الأعلى للقوات المسلحة وقتها أعطى أمرا بأن يضرب الجنود الأسهم في أعين مقاتلي هذه البلدة، ويقال إن نصـف سكان هذه المدينة عانوا من العور، تخيـل نصـف شـعب يصاب بالعور نتيجة هذا القرار، ومن ثم هذا القائـد الفـاتح

هل يمكن أن يدخل هذه المدينة ويحكمها... يمكن أن يغفـر الناس الدم، لكن هل سيغفرون فقدان أعينهم وهم يرون خالد بن الوليد أمامهم طوال الوقت يذكرهم بها.

كانت وجهة النظر العمرية العظيمة ترى أن هذه القيادة العسكرية العظيمة ربما نحتاجها في الحرب، وربما أحيانًـا لا نحتاجها، بينما في لحظة السياسة لا يمكن استخلافه أميرا للمؤمنين بعده، وأعتقد أن الروايات التي وضعت اسم خالـد بن الوليد كانت تريد أن ترفع من قدر خالد بـن الوليـد ـ وقدره مرفوع وعظيم وهامة كبيرة في تاريخنا الإسلامي ـ أو تريد أن تقول إن عمر بن الخطاب لم يمت وهـو علـى انتقاداته لسلبيات خالد بن الوليد وتصرفاته التي لم تكن على هوى وعدل سيدنا عمر بن الخطاب.

عندما تساءل سيدنا عمر بن الخطاب: "من اسـتخلف؟" قال له رجل من الحضور: "هل أدلك على خليفتك يـا أميـر المؤمنين؟ أنه عبد ا بن عمر". طرح الرجل علـى سـيدنا عمر بن الخطاب أن يعين ابنه مكانه، وهناك إجماع من كتب التاريخ على هذا المشهد، رد عليه سيدنا عمر بن الخطـاب: "قاتلك ا ، وا ما أردت ا بهذا أبدا" أي أنك لا تقول هـذا

لوجه ا ، إنما تقوله لترضيني، وتنـافقني، وتنـافق ابنـي، وأضاف سيدنا عمر بن الخطاب: "ويحك كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته"، يقال إن عبد ا بن عمر كان رجلاً حليما وفيه بعض التردد؛ فاعتبر سيدنا عمر بـن الخطـاب تردد ابنه في طلاق امرأته عجزا لا يستحق معه أن يوليـه إمارة أو خلافة.

المدهش أن سيدنا عمر بن الخطاب يعرض عليه مـن حوله استخلاف ابنه عبد ا بن عمر مـن بعـده فيجيـبهم: "لا أرب لنا في أموركم ـ أي لا حاجة لنا في أمـوركم ـ، وا ما حمدتها، ولا أحببتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيرا فقد أصبنا منه، وإن كان شر؛ فشـر عنـا آل عمر، يكفي آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحـد ويسـأل عن أمة محمد، وإن نجوت كفافًـا لا وزر ولا أجـر فـإني سعيد". هذا الفاروق عمر بن الخطاب يقول إنه لم يكن يحب هذه المسئولية أو يرغب فيها حتى يتمناها لأحد من أهل بيته، ويكفي آل عمر أنهم قاموا بالخلافة مرة، فإن كان تخيرا فقد حزناها مرة، وإن كانت شرا تبعـد عنـا نهائيـا، ويقـول "إن نجوت كفافًا" أي كما يقول الاقتصاديون "كيت" فلا يأخـذ

عليها أجر أنه عمل شيئًا عظيما ورائعا، ولا يأخذ عليها وزر أنه فعل إثما وذنبا "فإني لسعيد" أي إذا طلعت منهـا لا لـي ولا علي فإني لسعيد.

ويدهشني أنه في الوقت الذي كان يعرض فيـه علـى سيدنا عمر بن الخطاب أن يستخلف ابنه وأن يضع ابنه مكانه على ولاية وخلافة المسلمين كان ابن سيدنا عمر بن الخطاب الثاني وهو عبيد ا بن عمر قد قتل ثلاثة، فعندما طعن سيدنا عمر بن الخطاب، واكتشف الجميع أن طعنه هو أبو لؤلـؤة المجوسي، قرر عبيد ا بن عمر فجأة أن ينتقم وحده، وبكل نعرات ما قبل الإسلام من ثأر وانتقام بدون بحث أو درايـة أو تحقق أو قضاء، وفي نفس الوقت بحمية حب عمـر بـن الخطاب والده، في هذه اللحظة الإنسانية الكبيرة ذهب عبيـد ا بن عمر وقتل ثلاثة أعتقد أنهم متورطين في قتل والـده وهم الهرمزان وجفينة وهي الشخصيات التي كانت لها علاقة وثيقة بأبو لؤلؤة المجوسي فاعتبرهم عبيـد ا بـن عمـر شركاءه وحلفاءه في لحظة القتل والتدبير، فضلاً عن قتل بنت أبو لؤلؤة المجوسي، وكان هذا التصرف والمسـلك خارجـا عن أي قانون أو عرف إسلامي، أو أي منطق إنساني أساسا،

ففي اللحظة التي سفك فيها ابن سيدنا عمر بن الخطاب دم ثلاثة محاولاً الانتقام لوالده، كان يعرض على عمر بن الخطاب أن يعين ابنه الآخر حاكما وواليا وأميرا على المسلمين.

قال سيدنا عمر بن الخطاب: "فانظر فإن استخلفت فقد استخلاف من هو خير مني - يقصد سيدنا أبو بكر الصديق الذي استخلفه - وإن أترك فقد ترك من هو خير مني - يقصد النبي عليه الصلاة والسلام على اعتبار أنه ترك الدنيا ولم يقل لنا من يخلفه ويتولى بعده وهذا ما أدى إلى واقعة سقيفة بني ساعدة وما جرى فيها من انتخاب سيدنا أبي بكر الصديق - ولن يضيع ا دينه. "فخرجوا عنه وتركوه في ألمه إلى شئونهم، وكانت هناك محاولة لتطبيبه، لكن لم يكن هناك إحساس بأن هذه الجروح القاتلة هي قاتلة بالضرورة، وكان هناك توقع أن ينجو سيدنا عمر بن الخطاب من هذه الموتة، لكنهم بعد قليل يكتشفون أن الأمر جلل، وأن عمر بن الخطاب يموت في تلك اللحظات وما بعدها، وهي وفقًا لبعض الروايات ٢٤ ساعة، وفي أخرى ٧٢ ساعة، وهي أخطر أيام في حياة الإسلام مثلما كانت الفترة من صلاة

الظهر وحتى صلاة المغرب بعد ثلاثة أيام من وفـاة النبـي عليه الصلاة والسلام في سقيفة بني ساعدة.

كان سيدنا عمر بن الخطاب مطالبا في ذلك الوقت مـن قبل المسلمين أن يعين خليفة له، إذ دخل عليه المسلمون مرة أخرى فلما اكتشفوا أنه يموت قالوا له: "لو عهدت إلينا عهدا يا أمير المؤمنين؟"، فقال ﵁: "كنت قد أجمعت بعض مقالتي لك أن أنظر فأولي رجلاً أمركم، وهو أحـراكم أن يحملكـم على الحق، وأشار إلى علي بن أبي طالب، فرهقتني غشـية، فرأيت رؤيا، فعلمت أن ا غالب أمره ومتوفى عمـر فمـا أريد أن أتحملها حيا أو ميتًا" أي أن سيدنا عمر بن الخطـاب في لحظة ما قبل وفاته بقليل كان قد قرر تولية علي بن أبي طالب إلا أنه رهقته غشية أي أخذته نومة ونعسـة سـريعة، فلما صحا قرر ألا يعين أحدا لأنه لا يريد أن يتحملهـا حيـا أو ميتًا، وقال رضوان ا عليـه: "علـيكم بهـذا الـرهط"، وفي ظني أن هذه النعسة والرؤيا كانت من لحظات العلاقـة الربانية العظيمة التي رأى فيها سيدنا عمر بن الخطاب وحيا إلهيا؛ فمن المعروف أن القرآن كان ينزل لينتصـر لـرأي سيدنا عمر بن الخطاب، لكن هناك أيضا الحالة العقلية النادرة

لسيدنا عمر بن الخطاب الذي كان يعي المأزق الذي يحاصر الأمة، وأنه لا حاجة لتولية شخص ليس عليه إجماع، أو أنه يتحمل مسئولية اختيار هذا الشخص وحـده؛ لـذلك أقـول إن المسألة لم تكن الرؤيا فقط، وأظن أن الأمر له علاقة بعقل سيدنا عمر بن الخطاب، وربما عقله الباطن أيضا، وأنه أراد أن تكون الأمة مجمعة على الشخص الذي سيتولى من بعـده إمارة المسلمين، وخلافة الأمة الإسلامية؛ لذلك قال لهم سيدنا عمر بن الخطاب: "عليكم بهذا الرهط"، واختار سيدنا عمـر مجموعة من الناس الذين قال عنهم النبـي عليـه الصـلاة والسلام أنهم من أهل الجنة وهم:"سعيد بن زيد بـن عمـرو منهم ولست مدخله، ابنا عبد مناف: علي بن أبـي طالـب، وعثمان بن عفان، سعد بن أبي وقاص، عبد الـرحمن بـن عوف خالا رسول ا ، الزبير بن العوام حواري رسـول ا وابن عمته، وطلحة الخير؛ فيختاروا رجلاً منهم، فإذا ولـوا واليا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه". هذه هي وصية عمر بـن الخطاب وإلزامه العمري.

لكن من هو سعيد بن زيد بن عمرو الذي يعلـم سـيدنا عمر بن الخطاب ـ كما يعلم المسلمون كافـة ـ أنـه مـن

المبشرين بالجنة ورغم ذلك لا يضعه ضمن المرشحين للخلافة؟ سعيد بن زيد هو سبب إسلام عمر بن الخطاب، وهو زوج شقيقته التي ذهب إليها ليقتلها؛ فإذا به يسمع عندهم القرآن فيعلن إسلامه، وتقع أجمل علاقة حب في تاريخ البشرية بين مواطن هو سيدنا عمر بن الخطاب، وبين دين عملاق عظيم هو الإسلام، إذن سعيد بن زيد جعله الله سببا لهداية عمر بن الخطاب، فضلاً عن كونه صهره إذ كان متزوجا من أخته، ومع ذلك يستبعده سيدنا عمر بن الخطاب من الترشيح للخلافة.

فخرج الجمع وكان من بينهم علي بن أبي طالب فلما خرج التقى بالعباس بن عبد المطلب عم النبي عليه الصلاة والسلام، فبادره العباس قائلاً: "قلت لك لا تدخل معهم فقلت لي أكره الخلاف"، لم يكن العباس يريد أن يدخل علي بن أبي طالب مع هذا الجمع، ولا أن يوافق على الانضمام إلى الستة المرشحين، وطلب منه ألا يدخل معهم لأنه كان يريد أن يطرح اسم سيدنا علي بن أبي طالب مفردا منفردا، لكن سيدنا علي قال له: "أكره الخلاف"، ولم يكن العباس بن عبد المطلب أيضا يحب الخلاف أو يريده، ولكنه كان يحب سيدنا

علي بن أبي طالب، ويحب أهـل بيـت النبـي ويـراهم ـ باعتباره زعيمهم على الأقل سنًا ـ الأحق بالخلافـة، فمـا حدث ما حدث واكتشف سيدنا علي بن أبي طالب أنه واحـد ضمن ستة فقال له العباس: "ألم أقل لك؟ إذن فهو ما تكره."، فلما أصبح عمر بن الخطاب دعي إليـه عليـا، وعثمـان، وسعدا، وعبد الرحمن بـن عـوف، والزبيـر بـن العـوام المرشحين الذين اختارهم، وكان طلحة الخير وقتها خـارج المدينة، فقال لهم سيدنا عمر بن الخطـاب: "إنـي نظـرت فوجدتكم رؤساء الناس، وقـادتهم، ولا يكـون هـذا الأمـر إلا فيكم، وقد قبض رسول ا ﷺ وهو عـنكم راض، إنـي لا أخاف الناس عليكم، ولكني أخاف عليكم اخـتلافكم فيمـا بينكم، فيختلف الناس".

كان عمر بن الخطاب يقرأ الواقع السياسي من حولـه، وهذا دليل على قدراته العقلية العظيمة حتى في لحظة موته، فأدرك عمر بن الخطاب أن الناس لن تختلف علـى هـؤلاء الستة لأن النبي مات وهو راضٍ عنهم، لكن إذا اختلفوا فيما بينهم سيؤدي ذلك إلى اختلاف الناس عليهم، ومعهم، وبينهم،

وهذا ما كان حذر عمر الأساسي والرئيسـي الـذي منعـه ألا يختار خليفة له ليس عليه إجماع من الناس.

قال عمر بن الخطاب مقولتـه الشـهيرة هـذه وكأنـه يستنهض، ويستحضر في ذهنه كلام العباس بن عبد المطلب لعلي بن أبي طالب، ويحاول الرواة والمؤرخون أن يخفـوا هذه القضية، لكن من المؤكد أن علي بن أبي طالب من أهل بيت النبي، وكان لديهم شعور حقيقي، وطبيعي، ومنطقي بأن عليا أحق بالخلافة في هذه اللحظة التي تولى فيها عمر بـن الخطاب، وكان علي بن أبي طالب له مقولات شهيرة في هذا الموضوع، والفكرة هنا أنه كان يرى أنه أحـق بالخلافـة، لكن هل فعل شيئًا؟ هل تحول هذا الاخـتلاف إلـى خـلاف وصراع؟ أو انتقل من الخلاف إلـى الصـدام والتصـادم؟ بالعكس كان علي بن أبي طالب قاضيا لأبي بكر الصـديق، وعمر بن الخطاب، وكان يفتي ويجتهد، فهو الذي أفتى بحـد شارب الخمر؛ حيث اعتبره علي بن أبي طالب يقذف الناس فتصح له عقوبة قذف المحصنات وهي الجلد، إذن رؤية علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب بأنه أحق بالخلافة لم تكن تعني أي شيء أكثر من مجـرد رؤيـة، إذن التخـوف

العمري من أن يختلفوا فيما بينهم كـان اختلافًـا طبيعيـا، منطقيا، مشروعا، ومهما؛ وقال لهم: "اذهبـوا إلـى حجـرة عائشة بإذن منها، واختاروا رجلاً منكم"، لماذا حدد عمر بن الخطاب غرفة عائشة؟ حتى يكون نفح النبوة، وذكرى النبي، ورسالته موجودة معهم، وبعد قليل قال لهم: "لا تذهبوا غرفة عائشة، ولكن كونوا قريبين" ويرجع ذلك إلى خوفه مـن أن يبتعدوا عن متابعته، ووضع رأسه وقد اشتد نزيـف الـدم، فدخلوا في غرفة بجواره، وبدأوا يتناجون ثم ارتفع صوتهم، وكان ذلك دليلاً على الخلاف؛ فقـال عبـد ا بـن عمـر: "سبحان ا ، إن أمير المؤمنين لم يمت بعد."، فسمع عمر بن الخطاب هذا الكلام فقال لهم: "أعرضوا عن هذا الآن، فـإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام، وليصلي بالناس صهيل، ولا يـأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم" بهـذا حـدد عمـر بـن الخطاب ثلاثة أيام للشورى، واليوم الرابع يتم حسم اختيـار الأمير لأنه يدرك خطورة أن يكون هنـاك فـراغ سـلطة"، ويحضر الشورى عبد ا بن عمر مشيرا ولا شيء له مـن الأمر" أي ليس له حق الترشيح أو التصويت،".. ولا تنسـوا طلحة الخير شريككم في الأمر، فإن قدم في الأيـام الثالثـة

فشاوروه في الأمر، فإن لم يأتي فاستقضوا أمركم، وعنـدما يأتي يوافق على ما اخترتموه" وسأل: "من لي بطلحة؟"، فقال سعد بن أبي وقاص: "أنا لك به وإن شاء ا لا يخالف"، فقال عمر بن الخطاب: "أرجو ألا يخالف إن شاء ا ، وما أظن أن يلي إلا أحد هذين الرجلين؛ عثمان بن عفان، أو علي بن أبي طالب، فإن ولي عثمان فرجل فيه لين، وإن ولي علي ففيـه دعابة".

قال سيدنا عمر بن الخطاب أن ليس لها إلا علي بن أبي طالب أو عثمان بن عفان، ثم قال لأبي طلحـة الأنصـاري: يا أبا طلحة إن ا عز وجل طالما أعز الإسلام بكم، فـاختر خمسين رجلاً من الأنصار، واحرس هـؤلاء القـوم حتـى يختاروا رجلاً منهم."؛ نلاحظ أن سيدنا عمر بـن الخطـاب استبعد من المرشحين سعيد بن زيد - رغم وربما بسبب - قرابته له ولم يستبعد سعد بن أبي وقاص أنه كان قد عزلـه، وأجرى له جرد وحساب مالي، فضلاً عن حرق الباب الـذي كان قد صنعه سعد بن أبي وقاص ليفصل بينه وبين النـاس، وهدم البيت الذي ابتناه سعد بن أبي وقـاص، ومـع ذلـك اختاره، وعلل ذلك بقولـه: "إنمـا عزلتـه عـن اختلاف

في الرأي، وليس عن خيانة"، أيضا نلاحظ خلـو الاختيـار من الأنصار، لذلك أوكل عمـر حراسـة المرشـحين إلـى الأنصار، وأمر أبي طلحة الأنصار بأن يختار خمسين رجلاً لحراسة من رشحهم للخلافة حتى يختاروا من بينهم رجـلاً، وقال لصهيل: "صل بالناس ثلاثة أيام، أدخل عليا، وعثمـان، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن، وطلحة إن قدم، وأحضر عبد ا بن عمر ولا شيء له من الأمر، وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة ورضوا بالرجل فاضـرب رأسـه بالسـيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم أبـى اثنـان فاضـرب رأسهما، فإن رضي ثلاثة رجال رجلاً منهم، ورضي الثلاثة الآخرون رجلاً آخر، فحكموا عبد ا بن عمر، فأي الفريقين حكم فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا برأي عبد ا بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلـوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس".

عندما أتأمل أوامر سيدنا عمر بن الخطاب أنـدهش ـ ولي أن أندهش، لكنني أيضا أعجب ـ ولـي أن أعجـب ـ بهذا الرجل، فهو لا يريـد مـن اللحظـة الأولـى الفرقـة، والانقسام، والحرب الأهلية، بل يريد أن تقبل الناس بالاختيار

والديموقراطية، لا أحد يقول إمـا أنـا، وإمـا فـلا؛ ولأن الاختلاف سيقوض دعائم هذه الأمة، وتقع، ومن ثم كان عمر بن الخطاب يريدهم أن يجمعوا أمرهم، وهذا لا يعنـي أنـه لا يقبل باختلافهم؛ بل على العكس فمن حقهـم أن يختلفـوا، ولكنه يقرر قتل الرافض ليس لأنه اختلف، وإنما الذي يرفض الاختيار نهائيا، ويرفض قرار الأغلبية، والتحكيم، فـلا بـد من قتله، فهو يقتل الذي يقبـل بـالخلاف والديموقراطيـة، وحرية الاختيار، وبهذا صنع عمر بن الخطاب قانونًا مهمـا هو القبول بالاختلاف، والذي لا يقبل بالخلاف، وحرية الناس في أن يقولوا نعم، ولا يقتل، لم يكن ذلك دموية من عمر بن الخطاب؛ وإنما حسما، وحزما لصـالح حريـة الاختيـار، والإجماع الشعبي.

عندما خرج علي بن أبي طالب من هذا الاجتماع مـع سيدنا عمر بن الخطاب قابله العباس بن عبد المطلـب مـرة أخرى، فقال له: "عدلت عنا"، فقال العباس: "وما علمـك؟"، قال علي: "قارنني بعثمـان، وقـال كونـوا مـع الأكثـر، وإن رضي رجلان رجلاً، ورجلان رجلاً، فكونوا مع الـذين معهم عبد الرحمن بن عوف، فسعد بن أبي وقاص لن يخالف

بن عمه عبد الرحمن بن عوف، وعبد الرحمن بـن عـوف صهر عثمان لا يختلفان، سيوليها عبـد الـرحمن عثمـان، أو يوليها عثمان بعد الرحمن"، فقال له العباس: "لـم أدفعـك في شيء إلا ورجعت إلي متأخرا، عند وفاة رسـول ا ﷺ قلت لك إن تسأله في من هذا الأمر؟؛ فأبيت، وأشرت عليـك بعد وفاته أن تعالج الأمر فأبيت ـ أي أن تعلن بعـد وفـاة النبي عليه الصلاة والسلام أنك الخليفة فرفضـت، أشـرت عليك حين سماك عمر بن الخطاب في الشـورى ألا تـدخل معهم؛ فأبيت، فاحفظ عني واحدة، كلما عرض عليك القوم قل لا إلى أن يولوك، واحذر هؤلاء القـوم فـإنهم لا يبرحـون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم به غيرنا".

فما مات عمر بن الخطاب، وخرجت الجنازة، ووضـع الجثمان الشريف فتقدم عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب أيهما يؤم صلاة الجنازة، فقال عبد الـرحمن بـن عـوف: "كلاكما يحب الإمارة، لستما من هذا في شـيء، هـذا إلـى صهيل استخلفه عمر ليصلي بالناس ثلاثًا حتى يجتمع النـاس على إمام."، فصلى عليه صهيل، فلما دفن عمر بن الخطاب، وكان طلحة الخير المرشح السادس للخلافة غائبا أمـر أبـا

طلحة الأنصاري أن يحجبهم، فجاء في هذه اللحظة عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة وجلسا عند الباب، فرآهما سـعد بن أبي وقاص فشخط فيهما وقال: "تريدان أن تقولا حضرنا، وكنا في أهل الشورى"، أريد أن أشير هنا إلـى أن مسـلك عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة يدل على لهفتهما على معرفة الأمر، ورغبتهما في المشاركة، واهتمامهما بالسياسة، ومصلحتهما المباشرة في اختيار الخليفة، وبعد ذلك سـنرى عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة وهما يتحالفـان مـع معاوية بن أبي سفيان ضد علي بن أبي طالب، فمنـذ تلـك اللحظة كانت فكرة المشاركة في صـناعة الخليفـة مهمـة عندهما.

مبشرون بالجنة.. مرشحون للخلافة

ماذا دار في الغرفة بين الخمسـة المبشـرين بالجنـة والمرشحين للخلافة؟ في البداية سأل عبد الرحمن بن عـوف "من فيكم يخلع نفسه؟"، وانتظر أن يتقدم أحد، فلم يتقدم أحد، فقال: "إذن جميعكم تطلبون الإمارة، أنا أخلع نفسي "قرر عبد الرحمن بن عوف أن يخرج نفسه من الترشيح، لكنه اشترط أن يحكم بينهم وسأل: "فهل ترضـون اختيـاري؟"، وهـذا الموقف كان صعبا جدا على سيدنا علي بن أبي طالب لأنـه يعلم قرابة عبد الرحمن بن عوف، ومصاهرته لعثمـان بـن عفان، ويعلم هذه الصلة أيضا بينه وبين سعد بن أبي وقاص، لذلك كانت موافقته مشروطة؛ فقال سيدنا علي بن أبي طالب: "أوافق، لكن على ألا يكون في الأمر قرابـة أو مصـاهرة"، فوافق عبد الحمن بن عوف، وأقسم على ذلك وأصبح الوضع بين يدي عبد الرحمن بن عوف، فمـاذا فعـل؟ عقـد عبـد الرحمن بن عوف اجتماعات منفردة بكل شخص، وفي نفس تلك الليلة أرسل مندوبا منه إلى بيت كل من علي بـن أبـي طالب، وعثمان بن عفان، كل منهما منفـردا، وتقـول لنـا روايات التاريخ أنه لما ذهب غلام عبد الرحمن بن عوف إلى

علي بن أبي طالب سأله علي: "هل أرسلك إلى أحد آخـر؟"، فأجاب الغلام عثمان بن عفان، ونفس السؤال سأله عثمـان: "هل أرسلك إلى أحد آخر؟"، فأجاب الغلام: "علي بـن أبـي طالب"، ونلاحظ طبعا أن سيدنا عمر بن الخطاب قال إنها لن تخرج بين اثنين علي أو عثمان، وتقول الروايات إن الغـلام استأذن عبد الرحمن بن عوف في أن يذهب إلى علي بن أبي طالب أولاً لأن هواه معه، فابتسم عبد الرحمن بـن عـوف، وسمح له بذلك، ولما التقى عبد الرحمن بن عوف بعلي بـن أبي طالب سأله عبد الرحمن: "إذا اعتبرنا إنـك لسـت مـن هؤلاء، فمن توافق عليه منهم خليفـة للمسـلمين؟، فأجابـه: "عثمان بن عفان"، وسأل عبد الرحمن بن عوف عثمان بـن عفان نفس السؤال فأجاب عثمان: "علـي بـن أي طالـب"، وفي ظني أن الذي حكى هذه الرواية هو عبد الـرحمن بـن عوف ليبرهن، ويؤكد أن الأمر بين الاثنـين، وكـل منهمـا يرضى بالآخر لولا وجوده هو شخصيا في هـذه المنافسـة الانتخابية، أو المنافسة على من يتولى هذا المنصـب، كمـا سأل عبد الرحمن بن عوف سعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وكان هوى أحدهما مع علي بن أبي طالب، والآخـر

مع عثمان بن عفان، لكن الاثنين سأله:" لم لا تأخذها أنت؟".
فأجابهما بعد أن خلعت نفسي، وعاهدت الجميع، لقد خلعـت نفسي ولن أعود عن هذه الخلعة"، أيضا عقد عبد الرحمن بن عوف مشاورات مع كبار رجـال الصـحابة، والأنصـار، والمهاجرين في المدينة المنورة، وتضيف الروايات مؤكـدة إنه تشاور مع أمهات المؤمنين الأحياء فـي تلـك الفتـرة، وانتهت مشاوراته إلى أمر وضعه في صـدره فـي لحظـة إعلان من هو الخليفة، حيث أعلن من هو الخليفة في المسجد النبوي بناء على دعوة من عبد الرحمن بن عوف للمسـلمين بالحضور، وتطاحن المسلمون كثرا في هذا الأمـر تطاحنًـا أعتبره تطاحن الحرية والسياسة، ونادى عبد الـرحمن بـن عوف علي بن أبي طالب، وكـان موقفًـا جلـلاً، وشـعر المسلمون الموجودون في ذلك المكان أن علي بن أبي طالب سيكون خليفة المسلمين وأمير المؤمنين، فقال له عبد الرحمن بن عوف: "تعال يا علي" فاقترب، وقال له: "أبايعـك خليفـة للمسلمين، وأميرا للمؤمنين على أن تعمل بسـنة رسـول ا ﷺ، وسنة أبي بكر وعمر"، فرد علي بن أبي طالب: "أعمـل بكتاب ا ، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وبما يملـي

علي عقلي"، فنادى عبد الرحمن بن عوف عثمان بن عفـان وقال له: "أبايعك خليفة للمسلمين، وأميرا للمؤمنين علـى أن تعمل بسنة رسول ا ﷺ، وسنة أبي بكر وعمـر"، فوافـق عثمان بن عفان، فأمسك عبد الرحمن بن عوف يد عثمان بن عفان، ورفعها قائلاً: "بايعت عثمان بن عفان خليفة للمسلمين، وأميرا للمؤمنين"، فاندفع الناس يبايعون.

المؤكد في كتب التاريخ أن عبد الرحمن بن عوف كان قد اختار عثمان بن عفان، ولكنه قـام بهـذا المشـهد أمـام المسلمين كمبرر، وتفسير لاختياره، فالسـبب فـي اختيـاره عثمان التزام عثمان بأنه سيسير على نهج عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق، إنما علي بن أبي طالب يريد أن يجتهـد في هذا الأمر، فيغير من بعض ما اجتمـع عليـه النـاس، أو أقره أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب.

كان علي بن أبي طالب يتعامل مع الموضوع باعتبـاره قائما في حد ذاته، وأن آراءه، واجتهاداتـه فـي السياسـة، والفقه، والدين في عصر أبي بكر وعمر أخذ بهـا الاثنـان، وكان قاضي الاثنين، أما عثمان بن عفان فقرر من اللحظـة الأولى أنه لن يغير شيئًا، وأن كل شيء سيسير كمـا هـو.

وفي هذه الحالة كان الاتجاه نحو عثمان بن عفان أكبر، خاصة لما عرف عن علي بن أبي طالب من صرامة، وحزم شديدين، وكان المسلمون بعد سنوات من حكم عمر بن الخطاب المليئة بالحسم، والحزم، والفصل، والمساواة الكاملة بين الصغار والكبار، والمهاجرين والأنصار، أدت إلى وجود حالة من الملل من خشونة، وحزم عمر بن الخطاب؛ فكانوا يريدون شخصا مرنًا لينًا، يفتح لهم مساحة من النعيم الدنيوي.

انتخب عثمان بن عفان خليفة للمسلمين، وأميرا للمؤمنين، لكن ما نريد أن نتأمله هو موقف باقي المرشحين الخمسة من عثمان، وسياسته، ومنهجه، ماذا فعلوا؟ وماذا فعل بهم؟ أول ما نلاحظ من ذلك الصلة بين عثمان وبين هؤلاء الخمسة الذين وافقوا على خلافته، وكانوا أول من وافقوا، وبايعوه على الخلافة، وفي هذا السياق لا بد أن نذكر أن علي بن أبي طالب بايع في وقتها ولحظتها في المسجد النبوي، وقبل بما جرى وحدث رغم أنه قال لعبد الرحمن بن عوف إنك تجاوزت، وبناء على رأيك الشخصي، وعاد طلحة المسافر بعد مبايعة عثمان بن عفان، فقال له مستعد إذا كنت

تريد ترشيح نفسك فاسحب موافقتي على مبايعة المسـلمين، ونبدأ من جديد، فسأله طلحة: "هل بايع المسلمون؟" فأجـاب عثمان: "نعم"، فوافق طلحة على البيعة.

عبد الرحمن بن عوف أول هؤلاء الخمسة، وكان الأمر كله في يده تقريبا لتحديد من هو خليفة المسلمين علي بن أبي طالب أم عثمان بن عفان فاختار عثمان، كان بعد الرحمن بن عوف قريب المكانة من النبي، وكان هناك علاقة قربى بينه وبين أم النبي عليه الصلاة والسلام، حيث كان مـن نفـس القبيلة والعشيرة وهي بني زهرة، كـان سـيدنا عمـر بـن الخطاب وضعه في الشورى، وميزه عنهم بقوله "فإذا ارتضى رجلان رجلاً، وارتضى رجلان رجلاً آخر، فاختاروا مـن فيهم عبد الرحمن بن عوف رئيسا لهذا المجلس، لأنه رجـح رأيه عند تساوي الأصوات، وكان من بين أصـحاب النبـي من يرشح عبد الرحمن بن عوف، ويرى في خلافتـه اتقـاء لكثير من الشر، وتجافيا للفرقة التي يمكن أن تنهض، وتظهر إذا حدث صراع بين علي، وعثمان، وكان اثنان من مجلـس الشورى الذي استخلف عثمان بن عفان يؤثروا علي بن أبي طالب على عثمان بن عفان لمكانة عثمان بن عفان من بنـي

أمية، حيث كان عثمان قريبا من بني أمية بمعنى أنه يميـل إليهم، وسيمكنهم من المسلمين؛ فكان رأيهم أن عبد الـرحمن بن عوف سيحقن هذا الخلاف، إلا أن عبد الرحمن بن عوف لم يسمع لمن ألح في هذا الترشيح، وقرر أن يكون حكما بين المتنافسين، وقبل المتنافسون بحكمه بعد أن أخذ عليه علي بن أبي طالب موثقًا من ا " يلزم الحق غيـر منحـاز لصـهر أو قرابة"، في أول خلافة عثمان بن عفان كان عبد الـرحمن بن عوف مؤيدا له ويرقيه حتى إنه لم يتخذ أي موقف سلبي أو أي جملة سلبية من تصرفات سيدنا عثمـان بـن عفـان في تلك الفترة حتى تكلم الناس والصحابة - وهذا هو التعبير الوارد في كتب التـاريخ - ويعنـي أن جمـوع المسـلمين تترقب، وترصد، وترفض، ثم تقول إن عثمان يفعل كذا وكذا مع بني أمية، ويولي بني أمية، في هذه اللحظة انتبـه عبـد الرحمن بن عوف لما يحدث، وتشدد في مراقبة عثمان بـن عفان، وذات يوم أصبح عبـد الـرحمن بـن عـوف أحـد المعارضين لعثمان بن عفان في أمـور الـدين، والسياسـة جميعا، ولا يقف عند حد المعارضة، وإنما يقاطع عثمان فترة طويلة طول فترة خلافته، فلا يزوره، ولا يحدثـه، أي أنـه

حدثت قطيعة بين عبد الرحمن بن عوف وبين عثمان بن عفان لدرجة أن عبد الرحمن بن عوف اعترض اعتراضا، واحتجاجا، ورفضا لبعض القرارات التي اتخذها عثمان بن عفان قاطعه، ولم يعد يزوره، أو يحدثه، وبعض الذين يغالون في كتب التاريخ يقولون إن عبد الرحمن بن عوف أعلن ندمه على توليته عثمان بن عفان، وهناك روايات تقول إنه قال ذات يوم لعلي بن أبي طالب: "إن شئت أخذت سيفك، وأخذ سيفي حتى نجاهده"، والحقيقة أنني لست مقتنعا كثيرا بهذه النقطة التي ذكرت كثيرا في كتب التاريخ ويبدو أن عليها إجماع رغم مغالاة ما فيها، لأن طبيعة عبد الرحمن بن عوف وغناه الواسع فهو مليارديرالإسلام، وأغنى الأغنياء والصحابة، فضلاً عن أنه تاجر وتربطه علاقة تجارة بعثمان بن عفان، ونذكر في هذا السياق أن عمر بن الخطاب أراد أن يقترض من عبد الرحمن بن عوف مالاً، فأجاب عبد الرحمن بن عوف فليقترض من بيت المال، فلم يقترض عمر بن الخطاب مالاً من بيت المال خشية أن يموت وعليه دينًا لأموال المسلمين؛ لكن الذي لا أشك فيه أن عبد الرحمن بن عوف عارض عثمان بن عفان في أمور الدين مثل تقصير

الصلاة التي كان قد أقرها النبي، ومن بعده أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب؛ فضلاً عن أنه أعطى لقرابته مـن مـال المسلمين، كما اعترض عبد الرحمن بن عوف بالقول والفعل على الإنفاق غير المنطقي على بني أمية من أقارب وأصهار وأهل عثمان بن عفان، وعلى تولية عثمان أمراء مـن بنـي أمية من أقاربه، وأصهاره على أمصـار وولايـات الأمـة الإسلامية؛ إذن عبد الرحمن بن عوف أول الخمسة المبايعين لعثمان بن عفان، ويمكننا أن نقول إنه هو الذي عينـه فـإذا به يتحول إلى معارضة عثمان بن عفان لدرجـة المقاطعـة، ولم يعد يزوره، أو يكلمه، أو يصلي خلفه، حتـى أن كتـب التاريخ تقول إنه ندم على تولية عثمان بـن عفـان أميـرا للمؤمنين.

أما سعد بن أبي وقاص فهو من بني زهرة مثـل عبـد الرحمن بن عوف، وكان في أحد الأيام مقبلاً على النبي عليه الصلاة والسلام، فأشار إليه النبي وقال: "هذا خالي"، وكأنـه شقيق والدته، وهذا التعبير الذي قاله سـيدنا محمـد عليـه الصلاة والسلام هام جدا في حياة سعد بن أبي وقـاص لأن لا أحد كان يعرف جذور، وأصل شجرة نسب عائلة سـعد،

وكان هذا من الأمور التي تجرح سعد بـن أبـي وقـاص، وبالتالي فإن عبارة النبي عليه الصلاة والسلام "هذا خـالي" تحسم الموقف، وكأنه وضع له شجرة النسب والأصل التـي يدور حولها تشكك، وتشكيك من قبل الأقارب، والأصـهار، والأهل، وهذا شيئًا مهم جدا في عصر صدر الإسلام، ومهم جدا عند العرب عموما شجرة الأنساب والأصهار، وكان هذا التعبير هو الوسام الأول الذي أخذه سعد بـن أبـي وقـاص من النبي عليه الصلاة والسلام، فضلاً عن أنه أول من رمى بسهم في تاريخ الإسلام في مواجهة الأعداء، ومن المفارقات المحزنة أن يكون ابنه عمر بن سعد بن أبـي وقـاص أول من رمى بسهم على سيدنا الحسين بن علي بن أبـي طالـب في موقعة كربلاء، ويضاف إلى عظمة سعد بن أبي وقـاص أنه كان بطل القادسية، وهازم كسرى؛ لذلك وضـعه سـيدنا عمر بن الخطاب بين الستة الذين جعل إليهم الشورى في أمر الخلافة، وكان مرشحا للخلافة، لكن عبد الرحمن بن عـوف خلع نفسه، وتقريبا خلع معه في نفس الوقت سعد بـن أبـي وقاص من أمر الخلافة، ويمكننا أن نقول إن عبد الرحمن بن عوف هو الذي وضع سياق انتخاب وتعيين عثمان بن عفان،

والحقيقة أن سعد بن أبي وقاص رغم ذلك المشهد الجلل في تاريخه، عندما عزله سيدنا عمر بن الخطاب عن ولاية الكوفة لأسباب خلافية حول المال، والتصرف في شئون وأموال المسلمين بين سعد بن أبي وقاص، وعبد ا بن مسعود. وأقر سيدنا عمر بن الخطاب موقف عبد ا بن مسعود، وعزل سعد بن أبي وقاص، وما زلنا نذكر في كتب التاريخ هذه الواقعة الشهيرة التي أرسل فيها سيدنا عمر بن الخطاب مندوبه محمد بن مسلمة ليحرق الباب الذي صنعه سعد بن أبي وقاص ليفصل بينه وبين المسلمين والرعايا في الكوفة، لأنه لا يصح أن يكون هناك حاجز بين الخليفة والمواطنين المسلمين، وهذا هو المبدأ العمري الذي أرساه سيدنا عمر بن الخطاب، وكان سيدنا عمر بن الخطاب من السرعة في أخذ القرار وتنفيذه بحيث لم يترك الفرصة لسعد بن أبي وقاص ليخلع الباب أو يكسره، وإنما حرقه، ومع ذلك لم يغضب سعد بن أبي وقاص بدليل أن سيدنا عمر بن الخطاب عينه ضمن المرشحين الستة وقال: "لم أعزله عن خيانة"، والمدهش أن الخلاف ذاته حدث في عهد عثمان بن عفان، وكان سعد بن أبي وقاص وقتها واليا على الكوفة

فعزل عثمان بن عفان سعد بن أبي وقاص لخلاف بينه وبين عبد ا بن مسعود حول الأموال، وتصريف شئون وأمـوال المسلمين، ورغم هذا العزل الثاني في عهد الخليفة الثـاني؛ إلا أن سعد بن أبي وقاص كان أحد المرشحين المنافسين لـه على خلافة المسلمين، ورغم أنه شارك في اختيار عثمان بن عفان خليفة للمسلمين، إلا أن سعد بن أبي وقاص لـم يكـن عنيفًا في معارضته لعثمان بن عفان، بل ولم يشارك في هذه المعارضة إلا عندما كانت مبدئية أولية رقيقـة لا تتجـاوز النصح والأمر بالمعروف، لكن عندما اشـتدت المعارضـة وقاربت على أن تكون ثورة ضد عثمان بن عفان لزم سـعد بن أبي وقاص الحياد ولم يشارك في الفتنة أو في أعقابهـا، وعندما سئل بعد مقتل عثمان بن عفـان: "لـم لا تقاتـل؟"، فأجاب: "أقاتل؟! لا أقاتل حتى تأتوني بسيف ينطق ويقول هذا مؤمن وهذا كافر"، وكان سعد بن أبي وقاص يتحرج التعبير والإعلان عن معارضة سياسة عثمان فـي تعيـين ولاتـه وعماله على الأمصار من أقاربه، وأهله، وتعامله مع ثـروة المسلمين بطريقة فيها إنفاق زائد عن الحد في غير مكانهـا، وهذا يرجع إلى رفعة، وسمو نفسن، وعزة كرامة سعد بـن

أبي وقاص حيث كان يخشى أن يفسر أحد موقفه من عثمان بن عفان على أنه رد فعل لعزله من الكوفة، ولم يكن سعد بن أبي وقاص يترك مساحة للشك، والتشكيك في صفاء نيتـه، ونية صفائه.

يظل هناك شخصان آخران من المرشحين للخلافة مـع عثمان بن عفان هما الزبير بن العوام، وطلحة الخير بن عبيد ا ، كان الزبير ابن عمة النبي عليه الصلاة والسلام، هـذه الدائرة من القرابة والعمومية تسمح لنا أن نقول إن الزبيـر كان لصيقًا بالنبي، وكان من حواريه كما كان للسيد المسـيح عليه السلام حواريون وأصحاب يرسلهم بالبشرى إلى سـائر المدن، والبلاد، حيث قال النبي عليه الصلاة والسلام في ذات مرة: "لو كان لي حواريون لكان الزبير بـن العـوام أحـد حواريي"، لزم الزبير بن العوام المدينة المنورة بعـد وفـاة الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يخرج منها أيام أبي بكـر وعمر إلا اللمم، وبإذن من عمر، وعندما وضعه سيدنا عمر بن الخطاب في مجلس الشورى أصبح الزبيـر بـن العـوام مرشحا للخلافة ولا شك، ولم يظهر الزبير بن العوام مـيلاً إلى أحد من المتنافسين سواء علي بن أبي طالب، أو عثمـان

بن عفان، وكان من الذين شاركوا في هذه الثورة الصـامتة، أو المعارضة الواضحة لعثمان بن عفان فـي تلـك الفتـرة، أي أن الزبير بن العوام انتهى موافقـه هـو الآخـر إلـى المعارضة.

ويمكن أن نقول إن موقف عبد الرحمن بن عوف كـان مساندا في البداية لعثمان بن عفان، ثم عارضه، وكانت أبلـغ صور المعارضة وأقواها، وأشدها، وأوضحها عندما قاطعه؛ أما سعد بن أبي وقاص فعارض رفيقًا رقيقًا، وكان لا يريـد المشاركة في فتنة خاصة أن موقفه حساس بعد عزل عثمان له من ولاية الكوفة، أما الزبير بن العوام فكان قائدا للحرس المحيط ببيت سيدنا عثمان بن عفان في مواجهة الثوار ضده، أي أن الزبير لم يشتد في معارضة عثمان فـي أول الأمـر فكان عثمان - بطبيعة الحال - يؤثره ويعطيه رغم ما بينهما من خصومة، ولذلك لم تكـن الأمـور بينهمـا فيهـا حـدة المواجهة، وكان عثمان بن عفان يؤثر الزبير بن العوام وابنه عبد ا ، وكان يقيمه قائدا للحرس في مواجهة الثوار عنـدما أحاطوا ببيته، أي أننا نستطيع أن نقول إن الزبير بن العـوام كان من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام الذين يوجهـون

إلى عثمان بن عفان نقدا، ويسـوقون إليـه نصـحا لكننـا لم نعرف أنه اشتد عليه إلى درجة إعلان الغضـب الحـاد، أو أنه كان يثير القوم عليه، ويرجع هذا لأكثر من سبب منها أن عثمان بن عفان كان يؤثر الزبير بن العوام في العطـاء رغم الخصومة الواضحة بينهما في أمور كثيرة، فضلاً عـن أن ابن الزبير بن العوام كان من أقرب المقربين إلـى قلـب عثمان بن عفان، لكن ماذا عن موقف طلحة بـن عبيـد ا من عثمان بن عفان؟

يرجع نسب طلحة إلى قبيلة وعائلة أبي بكر الصـديق، وكان يعمل بالتجارة قبل الإسلام، وظل كذلك بعد إسـلامه، وكان صديقًا لعثمان وخرجا أكثر من مرة معا إلى التجـارة في الشام، وأسلما في عام واحد عند رجوعهما مـن قافلـة تجارة، وكان طلحة بطبيعة الحال مـن السـابقين الأوليـين كأصحابه الخمسة، ومن المبشرين بالجنة، ورغم هذا الإسلام العبقري العظيم الذي اعتنقه طلحة؛ إلا أن هـذا لـم يشـغله عن التجارة، بل إن طلحة كان يمضي في تجارته لم يصرفه عنها إلا مشاركته في الغزوات، والمعارك لذلك فهو تـاجر في كل دقائق حياته؛ عدا اللحظات المجيدة الرائعة التي كان

يستدعى فيها إلى قتال إلى جانب النبي عليه الصلاة والسلام، أقام طلحة بن عبيد ا في المدينة المنورة أيـام أبـي بكـر الصديق، وعمر بن الخطاب كما حال كل أعيان المهـاجرين في تلك الفترة، خاصة أن سيدنا عمر بن الخطاب كان يمنـع خروج الصحابة من المدينـة المنـورة إلا بـإذن وموافقـة شخصية منه حتى في حالات الحج، ووضع سيدنا عمر بـن الخطاب طلحة ضمن الستة المرشحين للخلافة، ولكنه لم يكن موجودا وقتئذ حيث كان في رحلة تجـارة خـارج المدينـة المنورة بإذن من عمر، فأرسلوا إليه يقولون: "أقبل مسرعا"، وعندما بلغ طلحة المدينة كانت البيعة قد تمت، ورفض طلحة ما حدث لأن الأمر تم من خلاف ظهره، أو من غير وجوده، لكن عثمان بن عفان سعى إليه وقال له: "إن شـئت الأمـر أعدته إليك، ورددته"، فقال طلحة: "أو تفعل؟" فأجاب عثمـان بن عفان: "نعم أفعل"، فقال طلحة: "فإني لا أرد الأمـر فـإن شئت بايعتك في مجلسك هذا، وإن شئت بايعتك في المسجد"، وبايع طلحة عثمان، تذكر الروايات أن طلحة طلب ذات مرة من عثمان خمسين ألفًا، فأرسل له عثمان: "أرسل من يـأتي بمالك"، فأرسل له طلحة الغلام بالمال فرده إليه عثمان قائلاً"

هو لك معونة على مروءتك"، كما حصل طلحة على مـائتي ألف درهم من عثمان هبة وعطاء من عطاءاته التـي كـان يصرفها من بيت المال للصحابة، والأجلاء، وكان بين عثمان وطلحة مبايعات، أي يبيع طلحة ويشتري عثمان، والعكـس، فكانت له نفقات ضخمة وواسعة جدا فـي مجـال الخيـر، والعطاء، ويقال إن طلحة أول من استنبت القمح فـي أرض الحجاز، وعندما مات طلحة كانت تركته ٣٠ مليون درهـم، وكانت العملة وحدها ٢ مليون ومائتي ألف درهم، فضلاً عن العقارات والأراضي. عندما ظهر الخلاف على عثمان كـان طلحة من المسرعين إلى هذا الخلاف، وتقول الروايات إنـه عندما اشتد الخلاف كان طلحة من المؤلبين على عثمان، أي أنه كان يزكي الخلاف، ويشعل أواره؛ لدرجة أن طلحة كان أبرز المعارضين الخمسة الذين ألبوا على عثمان، وأعلنـوا رفضهم له، ولسياساته إلى درجة أنه عندما حوصـر سـيدنا عثمان كان طلحة من المشاركين في حصاره، تخيـل هـذا الصحابي الجليل والمبشر بالجنة، وأحد المرشـحين السـتة لخلافه المسلمين حاصـر عثمـان عنـدما اشـتدت ضـده المعارضة، وعندما قتل سيدنا عثمان بن عفان كـان سـيدنا

طلحة يبدي علانية عجبه ودهشته من حزن سيدنا علي بن أبي طالب على مقتل عثمان؛ في الوقت الذي كان فيه علي بن أبي طالب يبكي، ويتوجع، ويتألم لقتل سيدنا عثمان بن عفان لدرجة أن ابني علي بن أبي طالب الحسن والحسين كانا من حراس سيدنا عثمان بن عفان عند محاصرة الثوار له، وعندما قتل سيدنا عثمان بن عفان صفع علي بن أبي طالب الحسين على وجهه وسأله: "كيف يقتل عثمان وأنت على بابه؟"، هذا الحزن الكبير، والثورة الحزينة من سيدنا علي بن أبي طالب على مقتل سيدنا عثمان بن عفان، كان طلحة بن عبيد ا يتعجب لها، لكن هذا لا يمنع العظمة الكلية للشخص، فهناك مثقال للخير فائض بالأعمال لدرجة أن النبي عليه الصلاة يبشره بالجنة، وقتل طلحة في معركة الجمل التي كانت بين طلحة والزبير المرشحين للخلافة من جهة ضد علي بن أبي طالب المرشح الآخر للخلافة، وكانت المعركة بعد مقتل سيدنا عثمان بن عفان، ويقول الرواة إن مروان بن الحكم هو الذي رماه بسهم فأصابه، فقال مروان: "وا ما طلبت بعده بدم عثمان أبدا"، حيث كان يرى مروان بن الحكم أن طلحة كان أشد المحرضين على قتل عثمان، لما

أصيب طلحة وجعل دمه ينزف قال: "هذا سهم أرسله ا كي يأخذ حق عثمان مني.. هذا لك يا عثمان حتى ترضى".

أما سيدنا علي بن أبي طالب خامس المرشحين للخلافة مع عثمان بن عفان والذي كان منافسه الرئيسي؛ فكان بينهما خلاف أثناء تلك الفترة لا شك، لكن الذي لا شك فيه أيضا أن أقارب عثمان بن عفان هم الذين لعبوا دورا كبيرا في إيغـال صدره وإخافته من علي بن أبي طالب، ورغم أن عثمان بن عفان بايع على أن يسير سيرة أبي بكر الصديق وعمر بـن الخطاب، إلا أنه في الحقيقة لم يسر سيرة أيهما، بـل سـار سيرة عثمان وقرابة عثمان، وأهله هم الذين لعبوا دورا غير مشكوك في إثارة الخلافات حول عثمان، وإثـارة معارضـة شديدة ضد عثمان، ومن بين هؤلاء كان سيدنا علي بن أبـي طالب الذي كان واضح الخلاف من سيدنا عثمان بن عفـان في الكثير من أوامره، وقراراته لدرجة أن البعض يروي أن عثمان بن عفان كان قد قرر في أحد الأيام أن يبطش بعلـي بن أبي طالب، وتوسط العباس بن عبد المطلب ـ عم النبـي عليه الصلاة والسلام ـ بينهما فقال لعثمان: "هذا ابن عمك، وابن خالك، وصهرك، وصاحبك مع رسول ا عليه الصلاة

والسلام، بلغني أنك تريد أن تقوم به وبأصحابه"، فقال عثمان بن عفان: "إن شئت شفعتك، وإن عليا لو شاء لم يكـن أحـد عندي دونه، وإن عليا لو شاء لكان مـن المقـربين إلـي"، المفارقة في حديث عثمان بن عفان والعباس بن عبد المطلب الذي كان يدفع سيدنا علي بن أبي طالب للمطالبة بالخلافـة ما إلى ذلك؛ فيصبح هو الذي يقوم بهذه الوساطة بين علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان لأن الموقف حـدث وانتهـى؛ فلا يصح أن يكون هناك إفساد بين علي وعثمان، لكـم مـا حدث أن عثمان بن عفان كان يشكو عليا إلى العباس وقـال له: "لا أريد أن أقطع رحمي"، وعبد ا بن عبـاس يحكـي عن أبيه رضي ا عنهما أنه "أطرق قليلاً ثم قال يا بن أخت أن حقك في القرابة والإمامة لا يقطـع، ولا يجحـد، مـاذا لو تقاربتما أنت وعلي"، فرد عثمان: "قد صيرت إليك الأمر بيننا"، إلا أن العباس بن عبد المطلب فشل في وساطته بـين علي وعثمان؛ لأن عليا كان واضحا في الحـق، ورافضـا لقرارات عثمان، لكنه لم يغال في معارضته لتصل لدرجـة الثورة، ولم يأخذ موقفًا لا تمليه الصحبة ولا صحبة رسـول ا ﷺ، وكان من المدافعين هو وأبنـاؤه البواسـل العظـام

في مواجهة ثوار عثمان، وكان مدافعا عـن عثمـان دفاعـا حقيقيا، وحزن عند وفاة عثمان بن عفان لدرجة البكاء الـذي كان يستكثره طلحة بن عبيد ا أحـد المرشـحين الخمسـة للخلافة، وهكذا انتهـى الحـال بمجلـس شـورى الخلافـة بأن أصبح عثمان بن عفان خليفة للمسلمين، وأميرا للمؤمنين، أما الخمسة الباقون فانتهت جميع مواقفهم إلـى المعارضـة، ما بين المعارضة المقاطعة التي انتهجها عبد الـرحمن بـن عوف، أو المعارضة الرقيقة التي انتهجها سـعد بـن أبـي وقاص، أو المعارضة الغليظة القطعية التي انتهجها طلحـة، أو المعارضة التي انتهجها الزبير بن العوام،أو المعارضة في الحق التي انتهجها إمام الحق سيدنا علي بن أبي طالب.

أبو بكر الصديق.. خليفة الرسول

خرج أبو بكر الصديق شاهرا سـيفه، راكبـا راحلتـه لينضم إلى الجيش، ويشارك في حرب الردة التي أمر بهـا، والجيش الذي جيشه، والحرب التي أعدها، والجنـود الـذين اصطفوا، فجأة اكتشفوا أن خليفة رسول ا ممسكًا بالسـيف، ويركب فرسه، وينطلق لينضم لهم في القتال، فجاءه علي بن أبي طالب مسرعا متسائلاً: "إلى أين يا خليفة رسـول ا ؟"، فأجاب الصديق: "إلى المعركة.. إلى القتال"، فرد عليه علـي بن أبي طالب: "لم سيفك، ولا تفجعنا في نفسك، فو ا لـئن أصبنا بك لا يكون للإسلام من بعدك نظام أبدا"، جرت هـذه الحادثة بعد أيام من قرار أبي بكر الصديق بإعلان حـروب الردة، ومواجهة المرتدين، وكان الخليفة أبو بكـر الصـديق يريد الانضمام لجيش المسلمين ليحارب يوم أحد فقـال لـه سيدنا محمد صلى ا عليه وسلم: "لا نريد أن نفجـع بـك، لا تنضم للمعركة"، وكانت نفس المقولة التي قالها علي بـن أبي طالب، ومعنى ذلك أن الخليفة يجب ألا ينضم للجـيش، فرجع أبو بكر الصديق، ومضى بالجيش قـواده، لاحظـوا أن الخلفاء أبو بكر الصديق، وعمر بـن الخطـاب، وحتـى

عثمان بن عفان رضـي ا عـنهم جميعـا لـم يشـاركوا في الحروب كقادة عسكريين بعد وفاة النبي ﷺ؛ حيث حـدث فصل بين الخليفة السياسي القائد الذي يشير ويـدير فينيـر، ويخطـط، ويحكـم، ويقضـي، وبـين القائـد العسـكري. هذا الفصل لم يكن موجودا أيام النبي عليه الصلاة والسـلام لأن المسلمون كانوا يبنون الأمة والدين، وكان لا بـد مـن وجود النبي عليه الصلاة والسلام بينهم، فكان موجودا في كل الحروب والغزوات الكبيرة، وتعرض النبي ﷺ نفسه للإصابة في موقعة أحد، وقاد بنفسه كـل المعـارك، وكـان يتقـدم الصفوف، وكان من أسباب عدم تقدم الخلفاء الثلاثة أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان رضـي ا عنهم جميعا في الحروب والغزوات هو كبر سنهم، وبالنسبة لعلي بن أبي طالب كان الأمر مختلفًا فـي حـد ذاتـه لأن الحروب التي خاضها كانت أهلية، وكانت تستلزم وتستوجب وجوده، لكنه أيضا لم يشارك في الحروب بعد قيـام دولـة الإسلام، ونقصد هنا عهد الخليفة أبي بكر الصديق، لكنه تقدم في حربه أمام معاوية لأن تلك الحرب كانت على الشخوص، وكانت حربا على شخص على نفسه، لكن عندما قـرر أبـو

بكر الصديق أن يأخذ سيفه، ويركب الفـرس لينضـم إلـى الجيش، ويشارك في الحرب فكـان يتعامـل كـأبي بكـر المناضل، وليس أبو بكر الحاكم، فلم يكن ساعتها أبـو بكـر الصديق الذي يريد الحكم، وإنما كان أبو بكر الذي يريد بناء دولة الإسلام، كان يريد وقتئذ أن يكون مسلما من المسلمين، أن يكون فقد من آحاد الناس، وهذا ما كان يلح على أبي بكر الصديق طوال الثلاث سنوات التي تولى فيها الخلافة؛ حيـث وقف بعد أيام من بيعته وقال: "يا أيها الناس، إن كنتم ظننـتم أني أخذت خلافتكم رغبة فيها، أو إرادة الاسـتئثار علـيكم وعلى المسلمين فلا، والذي نفسي بيده ما أخذتها رغبة فيها، ولا استئثارا عليكم، ولا على أحد من المسلمين، ولا حرصت عليها ليلة، ولا يوم قط، ولا سألت ا سرا ولا علانيةً، ولقد تقلدت أمرا عظيما لا طاقة لي به إلا أن يعين ا ، ولـوددت أنها في أيد أصحاب رسـول ا عليـه الصـلاة والسـلام، وأن أعدل عنها، هي إليكم ردة، ولا بيعة لكم عندي، فادفعوا لمن أحببتم، فإنما أنا رجل منكم"، هذا المشهد، ومشاهد أخرى كثيرة ومتكررة منذ اللحظة الأولى لتوليه الخلافة، حتى مات؛ وهو يتحدث عن إنها تكليف لا يريـده، وأمـر لا يتمنـاه،

ولا يسعى إليه، وهو في الحقيقة لا تنقصه ذرة كي يمتلأ بها، أو يكتمل بها نقصانه ليكون خليفة لرسول ا ، فهو أبو بكـر الصديق لا حاجة له بخلافة، فهو في حد ذاته خلافة، روعة، عظمة، إشراق، نور، ولا يريد الخلافـة، ويراهـا صـعبة، مهولة، خطيرة، يقول لهم: "راعوني بأبصاركم، فإن استقمت فأعينوني، وإن زغت فقوموني، وإن أطعت ا فـأطيعوني، وإن عصيت ا فاعصوني"، هذا هـو ميثـاق أبـي بكـر الصديق، وبيانه إلى الأمة، هل هناك أكثر من ذلك احترامـا لإرادة الناس، حريتهم، ورغبتهم؟ هل هناك أكثر مـن ذلـك تداولاً سلميا للسلطة؟ هل هناك أكثـر مـن ذلـك عظمـة وديموقراطية؟ عندما بويع أبو بكر الصديق للخلافة أغلق بابه ثلاثة أيام، وكان يخرج إليهم في كل يوم فيقول: "أيها النـاس لقد رددت بيعتكم، فبايعوا من أحببتم"، ثلاثة أيام يفتح فيها أبو بكر الصديق بابه للمسلمين والمؤمنين، يفتح بابـه للتـاريخ، وكان ذلك يتم يوميا، فيسعى إليه علي بن أبي طالب ـ طبعا العين على علي باعتبار أن هناك من يرى أن أهـل البيـت أحق بالخلافة، وهذا هو الخلاف التاريخي الذي سيظل يمتـد ويتمدد ـ ويقول له: "لا نقيلك، ولا نستقيلك. مـن ذا الـذي

يؤخرك وقد قدمك رسول ا ﷺ ؟"، عندما ثقل بأبي الصديق الحمل أشفق من أن يكـون مسـئولاً عـن أمـة الإسـلام والمسلمين، وأن يكون مسئولاً عن كل صـغيرة، وكبيـرة، وأنه سيأتي يوم القيامة وفي عنقه ماذا فعل لهذه الأمة؟ فجمع الناس، وقال لهم: "أنه قد نزل بي ما قد ترون"، وعندما شعر أبو بكر الصديق بدنو الأجل جمع الناس وقـال لهـم مـرة أخرى: "لقد رأيتم بي ما ترون، ولا أظنني إلا لممات، وقـد أطلق ا تعالى أيمانكم من بيعتـي، وحـل لكـم عقـدي، ورد عليكم أمركم، فأمروا، وائتمروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمرتم في حياة مني كان أكبر ألا تختلفوا بعـدي". كـان القرار الأول لأبي بكر الصديق أن يترك كما تركهـا النبـي للناس أن يختاروا، فقال لهم اجتمعوا، واختاروا في حيـاتي أفضل من أن تختلفوا بعـدي، وانصـرف النـاس، قـاموا، وتشاوروا في هـذا الأمـر، ودارت مناقشـات، حـوارات، مفاوضات، ثم رجعوا فقالوا: "اختره لنا يا خليفة رسول ا "، أوكل الناس لأبي بكر الصديق هذا الأمر، إذن في البداية كان أبو بكر الصديق يريد أن يرد البيعـة، وأن يختـار النـاس، وفي نهاية حكمه قال لهم البيعة ردت إليكم لأننـي سـأموت

فاختاروا، فيقرر الناس أن يعطوا البيعة مرة أخرى لأبي بكر الصديق؛ وقالوا له: "اختره لنا يا خليفة رسول ا "، فقال أبو بكر الصديق رضي ا عنكم: "لعلكم تختلفون"، فقالوا: "لا"، وعندما نقول (قالوا) فنحن نقصد هؤلاء الصـحابة العظـام، الكبار، الأفاضل، الأجلاء الذين كانوا بمثابة مجلس شورى، وبرلمان مع أبي بكر الصديق، فقال الصديق: "عليكم عهد ا على الطاعة، قالوا: "نعم"، فقال: "فأمهلوني"، حينما استخلف أبو بكر الصديق جلس في بيته حزينًا، وفي تلك الفترة دخـل عليه عمر بن الخطاب ﵁، فاقبل عليه يلومه؛ كان أبو بكـر الصديق يلوم عمر بن الخطاب رضي ا عنهما، وقال لـه: "أنت كلفتني هذا الأمر.. أنت كلفتني هذا الأمر"، فكما نعلـم جميعا أن عمر بن الخطاب هو الذي أعلن في سـقيفة بنـي ساعدة أن أبا بكر الصديق هو الأحق بالخلافـة، والولايـة، وأدار معركته الانتخابية العظيمة في مواجهة المرشح الآخر سعد بن عبادة، وكان هناك تنافس بين الاثنين على من يتولى خلافة المسلمين بعد رسـول ا ﷺ، كـان هنـاك حـزب المهاجرين يقوده عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة الجراح لولاية أبي بكر الصديق وخلافته، وكان هناك معسـكر الأنصـار

يقوده جناح الخزرج وكان يريد ترشيح سـعد بـن عبـادة، وبايعوه فعلاً خليفة للمسلمين حتى وصل إلـى سـقيفة بنـي ساعدة ثالث يوم عصرا بعد وفاة الرسـول عليـه الصـلاة والسلام، وقاد عمر بن الخطاب الدعوة إلى ولاية أبي بكـر الصديق، لذلك كان أبو بكر الصديق يلوم عمر بن الخطـاب بقوله: "لقد كلفتني هذا الأمر"، فقال له عمر: "أو ما علمـت أن رسول ا ﷺ قال: إن الوالي إذا اجتهد فأصاب الحق فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ الحق فله أجر واحد"، وكأن عمـر بن الخطاب يريد تيسير الأمر وتهوينه على أبي بكر الصديق فالاجتهاد الذي يؤدي إلى خطأ عليه أجر، وكـان أبـا بكـر الصديق يريد أن ينزع عنه أحد الولاية، كأنه يريد أن يتـرك الخلافة وهذا الإحساس بالمسئولية الهائلة، وكان هـذا هـو السبب في قوله للمسلمين في لحظاته الأخيرة قبيـل الوفـاة: "ردت إليكم بيعتكم، فاختاروا من شـئتم"، لكـن المسـلمون يصرون على أن يختار هو، فيقول لهم: "أمهلوني".

عن عبد الرحمن بن عوف أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال له في مرض وفاته: "وددت أنني يوم سقيفة بني ساعدة كنت

قذفت الأمر إلى أحد الرجلين: أبو عبيدة الجراح، أو عمر بن الخطاب، فكان أميرا، وكنت وزيرا".

تأمل تعبير "قذفت الأمر" وكأنما هو كرة ملتهبة ألقيت له وستحرقه، لم يكن أبو بكر يريد الخلافة، ولكنه كـان يريـد الوزارة فقط، لم يكن يريد أن يكون صاحب المسئولية التـي تنوء بحملها الجبال.

بدا سيدنا أبو بكر الصديق عندما قال لهم أمهلوني أنـه اختار عمر بن الخطاب، هذه اللحظة مهمة لأن بين احتضار الموت والوفاة كانت هناك أيام قليلة قرر فيهـا أن يسـتخلف عمر بن الخطاب، في البداية لم يكن يريد أن يستخلف، لكـن عندما طلب منه الناس الاختيار اختار عمر بن الخطاب، إذن نحن نتحدث عن لحظات ما قبل الموت، وأعتقد أنهـا حالـة أقرب على الرؤيا، والإلهام السماوي لشخص عظيم، رفيـع المكانة والمقام، وأضع إلى جانب الإلهام السماوي تفكير كل سنوات الولاية في (من يستحقها؟)، ومن أوجب الأمر ليـدير هذه الخلافة؟، فعندما قال أبو بكر الصديق لعبد الرحمن بـن عوف: كنت أريد أن أقذف بالأمر لعمر بن الخطاب أو أبـو عبيدة الجراح، وكان يراهما أحق بالولاية التـي لا يريـدها،

إذن هذا الأمر كان يشغل مساحة من تفكير أبي بكر الصديق، وليس فقط في أيام ما قبل الوفاة، ولكنني أظـن أنـه فكـر في هذه الأمر عشرات المرات، وأنه إذا مات فيولي عمر بن الخطاب الخلافة، لكن في نفس الوقت لدى أبو بكر الصـديق قناعة بأن المفروض أن تأخذ الناس الأمر في يـدها، وهـي التي تقرر.

نفس الشيء يحدث مع وفاة عمر فقبيـل وفاتـه وهـي الفترة من طعنه، وحتى وفاته والتي تقدرها بعض الروايـات بثلاثة أيام، وتقدرها أخرى بيوم واحد؛ كان عمر بن الخطاب يريد أن يولي علي بن أبي طالب، ثم غشي غشية، فقرر أن يكون الأمر شورى بين الستة المبشرين بالجنة، وهنا يمكـن أن نعتبر الأمر - هذه الغشية - إلهاما سماويا لعمر العظيم، لكننا أيضا يمكن أن نعتبره - ويصبح ذلك منطقيا - أن في كل سنوات خلافة عمر والتي امتدت لأضعاف الفترة التـي قضاها أبو بكر الصديق كان يفكر لمن هذا الأمـر بعـده؟، وكانت هناك أشياء ترد في ذهنه، ويتحدث فيها مـع نفسـه، وربما مع غيره من الصحابة حولها، فعندما تأتي لحظة اتخاذ القرار تبزغ قائمة الأسماء الستة المبشرين بالجنة، ويسـتبعد

السابع سعيد بن زيد، إذن الاختيار ليس مجرد رؤيا وإلهام ـ وربما كان ذلك بشكل كبير ـ لكن إلى جانبه أيضـا أذهـان منشغلة بمصلحة العباد، ومصلحة هذه الأمة، فعنـدما يقـول الصحابة لأبي بكر الصديق: "ماذا ستقول إذا سألك الله عـن استخلافك عمر علينا، وقد ترى غلاظته وأنت فينا"، فقال أبو بكر الصديق: "أجلسوني، أبالله تخوفونني؟ خاب مـن تـزود في أمركم بظلم، أقول استخلفت عليهم خير أهل الأرض، أبلغ عني ما قلت وللذي ورائك"، ثم اضطجع، ودعا عثمان بـن عفان فقال: "اكتب.."، ثـم كانـت هـذه اللحظـة المدويـة في التاريخ الإسلامي... لحظة مليئة بالهـدوء مـع همـس وأنفاس أبي بكر الصديق اللاهثة وهو يتحدث علـى فـراش موته ومرضه الأخير، يكتب هـذا القـرار الـذي أشـرق في سماء الإنسانية، قال له: "اكتب"، وأملاه قرار خلافة عمر بن الخطاب، ليفتح التاريخ بابا عظيما على عدل وفاروقيـة، ويغلق بابا على رفعة ونبل. صدق الصديق أبو بكر الصديق.

محمد بن مسلمة.. بريد الخطاب

عندما دخل النبي عليه الصلاة والسـلام إلـى المدينـة المنورة التي كانت في ذلك الوقت يثرب، كان هناك شـخص امتلأ بالشوق والمحبة للنبي إلى حد أنه أمسك خطـام ناقـة النبي وتشبث بها تبركًا، فأناخت الناقة أمام منزل الصـحابي الجليل محمد بن مسلمة الأنصاري، ومنذ ذلك التاريخ يظهر اسم محمد بن مسلمة ذلك الأنصاري العظـيم الـذي مسـك بخطام الناقة في ذلك المكان الذي تحول فيما بعد إلى المسجد النبوي.

في تلك اللحظة كان محمد بن مسلمة مسـلما وموحـدا با ، وكان من الذين أسلموا على يد مصعب بن عمير الذي كان مبعوثًا من النبي إلى المدينة، كان الشوق قد بلـغ مـن محمد بن مسلمة الأنصاري مبلغًا عظيما لاسـتقبال النبـي، وكان يود الذهاب للقائه في مكة، فقيل له إن الرسول عليـه الصلاة والسلام سيأتي إلى المدينة مهاجرا، ذلك الشوق هـو الذي دفعه للإمساك بالناقة، وقضاء ا أن يصبح ذلك المكان هو المسجد النبوي، لم يغب محمد بن مسلمة عـن مجلـس

الرسول طول فترة وجوده، وحتى وفاته في المدينة المنورة، ذلك المجلس الذي كان الرسول عليه الصلاة والسلام يفقه فيه الصحابة، ويرشدهم إلى تعاليم دينهم، ويلقي على مسـامعهم آخر ما نزل من الوحي، كما شارك بن مسلمة الرسول عليه الصلاة والسلام في غزوة بدر وكان فارسا مغوارا وقتل فيها من قريش ـ كما تقول كتب التاريخ ـ مقتلة عظيمة، وعندما هزم جيش الكفار والنفاق، جيش قريش كان محمد بن مسلمة مسئولاً مع مجموعة من المهاجرين والأنصار عـن جمـع الأسلاب، والغنائم، والسلاح من أرض المعركة، ويبـدو أن ذلك كان قدر محمد بن مسلمة وهو أن يؤتمن علـى أمـوال الأمة، ومال الناس لأمانته، دقته، التزامـه بـدقائق دينـه، فروض وتعاليم نبيه، ذلك الجمع للأسلاب والغنائم الذي قـام به محمد بن مسلمة هو مفتاح شخصيته، وسنعرف فيما بعـد ماذا تعني قدرته وأمانته في حفاظـه علـى مـال وثـروة المسلمين، اهتمامه الشديد في هذا السياق بمصـلحة الأمـة، مصلحة المسلمين، لكن قبل أن نتجاوز إلى مرحلة مـا بعـد الرسول ﷺ أود أن أتوقف عند مشهد مهم في حياة محمد بن مسلمة؛ بل لعله المشهد الأهم في فترة مصاحبته للنبي عليـه

الصلاة والسلام، وكونه واحـدا مـن زعمـاء وعظمـاء الأنصار، هذا المشهد هو قصة كعب بـن الأشـرف أحـد الشخصيات اليهودية المؤثرة في المدينة في تلك الفترة، يقدم بعض المتطرفين والمغالين هذه الواقعة باعتبارها دليلاً على إباحة النبي عليه الصلاة والسلام للاغتيال السياسـي، لكـن حقيقة الأمر أن النبي عليه الصلاة والسلام تعامل مع كعـب بن الأشرف كقائد حربي، ومحارب للإسـلام، أحـد الـذين ناصبوا الإسلام العداء، كان أحد قيادات اليهود فـي المدينـة المسلطة على الإيقاع بالمسلمين، حربهم، عدائهم، ومن ثـم يمكن فهم أمر النبي عليه الصلاة والسلام عنـدما استشـار أصحابه في شأن كعب بن الأشرف، فأشاروا عليه بقتله فـي هذا السياق.

لاحظ أن فكرة القتل كانت نابعة مـن خـارج الحـدود النبوية، صحيح أن الرسول عليه الصـلاة والسـلام أقرهـا بطبيعة الحال، لكنه في النهاية كان مطلب الصحابة قتل كعب بن الأشرف حتى تستقر الأمور، وتهدأ النفوس، يتم القضـاء على فتنة يمكن أن يصنعها كعب بن الأشرف بمعنى أنه كان طابورا خامسا داخل صفوف المسلمين، قال رسـول ا ﷺ:

من لي بكعب بن الأشرف؟"، فقال محمد بن مسلمة:" أنا يـا رسول ا "، فرد عليه النبي عليه الصلاة والسلام "افعـل إن قدرت على ذلك"، لاحظ تعبير "إن قدرت"، كان محمـد بـن مسلمة هو الذي عرض قيامه بقتـل كعـب بـن الأشـرف واغتياله، لكنه عندما تدبر الأمر شعر أنه تسرع في وعـده، فظل ثلاثة أيام لا يأكل، ويشرب، ركبته الهمـوم، تناولتـه الأفكار السوداء، تناوبته الهواجس من كل جانـب، فهـو لا يستطيع قتل كعب بن الأشرف وحده، فأبلغ الصحابة النبـي عليه الصلاة والسلام بحال محمد بن مسلمة، فـدعاه النبـي وسأله: "لم تركت الطعام والشراب؟"، فأجابـه محمـد بـن مسلمة: "يا رسول ا قلت قولاً لا أدري أفيه ما أسـتطيع أن أقوم به أم لا"، فقال عليه الصلاة والسلام: "إنما عليك الجهد"، أي أن الموضوع كله هو بذل الجهد، وليس النتيجة؛ فضـلاً عن أن الأعمال بالنيات، وأنه عليك بذل الجهد، أما النتيجـة فعلى ا ، شارك محمد بن مسلمة في وضع خطة لقتل كعب بن الأشرف، كما شارك في التنفيذ، عمل محمد بن مسـلمة ما يشبه الخديعة والغدر لقتل كعب بن الأشرف وهـو أنهـم ذهبوا إلى منزل كعب بن الأشرف وكان متزوجـا حـديثًا،

فدعوه للخروج معهم، كان كعب علـى صـلة قويـة بهـم، ويعرفهم كأصدقاء فخرج معهم، دار بينهم حديث - يستغرق في كتب التاريخ ثماني صفحات - عن الشعر، ثم قال أحـد الصحابة لكعب أن عطر شعره جميل، انحنى علـى رأسـه ليشم ذلك العطر، فقتله.

يعتبر بعض المؤرخين أن ما فعله الصـحابة اغتيـال غادر لا يبرره إقرار الرسول عليه الصلاة والسـلام بقتـل كعب بن الأشرف، إذ لم يقر النبي عليه الصـلاة والسـلام بالغدر في قتله، وهنا أود أن أقول إن الرسول عليه الصـلاة والسلام لم يعرف بتفاصيل الخطة، ولم يقرها، وإنمـا كـان إقراره بالنتيجة وهي قتل كعب بن الأشرف باعتباره قائـدا، وزعيما حربيا، وليس يهوديا مدنيا، فضلاً عن كونـه غيـر مسلما أساسا، كان محمد بن مسلمة بطل هذه القصة.

بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام استعمل عمر بـن الخطاب محمد بن مسلمة على صدقات جويرة وهي قبيلة من قبائل الجزيرة، كانت مسئولية محمد بن مسلمة هـي جمـع الصدقات وتوزيعها، وهي مسئولية مالية أنيطت بمحمد بـن مسلمة مثل جمع أسلاب، وغنائم المشركين في موقعة بـدر،

أيضا اصطلح على تسمية محمد بن مسلمة في عصر عمـر بن الخطاب بـ "بريد عمر" أو "مندوب عمر"، وكان هنـاك مسمى آخر يطلق عليه وهو "صاحب العمال"؛ بمعنى أنه كان المبعوث الرئاسي لعمال عمر من الأمـراء والـولاة الـذين استخلفهم عمر بن الخطاب على الأمصار المختلفة.

كان عمر بن الخطاب بفاروقيته، عدالته، حزمه، حسمه، صرامته يحاسب العمال - الأمـراء - محاسـبة عسـيرة، فاصلة، قاصمة، والذي تزيد أمواله بدينار أو درهم بعد تولي الإمارة يصادر عمر هذه الزيادة على ضآلتها، وهو ما حدث مع عمال كثيرين من خلال بريد عمر أو صـاحب العمـال محمد بن مسلمة الأنصاري، فكان إذا شكا أحد الرعية لعمر بن الخطاب عاملاً أو أميرا، فكان عمر يرسل محمـد بـن مسلمة بمثابة رئيس الجهاز المركزي للمحاسبات أو جهـاز الرقابة المالية؛ فمثلاً سمع عمر بن الخطاب أن سعد بن أبي وقاص أقام بابا بينه وبين الرعية فأرسل إليه محمد بن مسلمة وأمره بحرق الباب، فسافر محمد بن مسلمة إلى الكوفة، ونفذ أمر عمر بن الخطاب بحرق الباب، وكان أمـر عمـر بـن الخطاب بحرق الباب يرجع إلى اعتقاده أن مثل هذا البـاب

يحجب الوالي عن الرعية في حين أن الوالي يجب أن يكون قريبا من الرعية، ولن يتم ذلك تماما وبالكامل إلا في وجـود دار حكم مفتوح الأبواب لكي يسهل على المتقاضـين، وذوي الحاجات الدخول إلى الوالي.

عندما ذهب محمد بن مسلمة إلى سعد بن أبي وقـاص أمره بأن يجلس في المسجد عقب كل صلاة ليتعـرف علـى أحوال الرعية، ويستمع إلى شكواهم إن كانت هناك شـكوى، أو يفقههم في الدين إن عميت عليهم أمور الدين، فلا يوجـد شيء اسمه دار حكم، أو حاجب؛ ثم يعـود منـدوب عمـر ويريده محمد بن مسلمة ليضع أمام عمر تقريره من جملـة ما رآه، واستمع إليه من الوالي والرعية، عندما يـأتي ذكـر عمر بن الخطاب، إبداعه فـي العـدل، العدالـة، محاسـبته للأمراء، الولاة، العمال؛ لا بد أن يأتي ذكر محمد بن مسلمة، فنحن دائما ما نسعى إلى النور البازغ المضيء الذي يشع به تاريخ عمر بن الخطاب، ويملك علينا عمر بن الخطاب كـل تفكيرنا وتصورنا، ونحن نتحدث عنه أو نسعى في تاريخـه، لكن حقيقة الأمر أن عمر بن الخطاب كان لديه من الرجـال الذي ساعدوه ونصروه في تحقيق هذه الأمثلة العظيمة التـي

قام بها، القدرات العمرية الكثيرة التي ظهرت في تاريخه كان لها منفذوها، كانت هناك أيدي لعمر بن الخطاب ومنها محمد بن مسلمة الرجل الذي أمنه النبي عليه الصلاة والسلام على جمع الأسلاب وتوزيعها، فأمنه عمر بن الخطاب على مـال المسلمين، ومحاسبة العمال.

عندما يذهب محمد بن مسلمة ليبلغ بعـزل خالـد بـن الوليد، أو يقتسم مال أبي هريـرة، أو يـذهب لعمـرو بـن العاص، أو سعد بن أبي وقاص؛ فالكل يعرف أن هذا القـادم فضلاً عن كونه صحابيا عظيما، شارك في بدر، أحد حضور مجالس النبي عليه الصلاة والسلام، قاتل زعيم خيبر العصية على التسليم، يعرفون أيضا أنه مؤمن بما يفعل، فلا سبيل إلى الإغراء أو الإغواء مع محمد بن مسلمة في تنفيذ أوامر عمر بن الخطاب.

عندما نذكر خالد بن الوليد قائد الجيش العظيم، أحيانًا ما ننسى في طريقنا شخصا مثل شرحبيل بن حسنة، أو عدي بن حاتم الطائي الذين كانوا من قواد الجيش مع خالد بن الوليد، أيضا عندما نذكر عمر بن الخطاب علينا أن نذكر اسم محمد بن مسلمة الأنصاري.

عندما توفي سيدنا عمر بن الخطاب ﵁، وتولى عثمان بن عفان تمضي بنا السنوات دون ذكر لاسم محمد بن مسلمة حتى تأتي لحظة يظهر فيها اسمه بقوة شديدة جـدا؛ وهـي عندما جاء المصرين - هكذا تقول كتـب التـاريخ - إلـى المدينة المنورة ثورة على عثمان بن عفان، وتروي لنا كتب التاريخ أنهم كانوا سبعمائة مصريا كانوا قد قرروا إما قتـل عثمان، أو يتنازل عن الخلافة، ويستجيب لمطـالبهم التـي وضعوها بين يديه - ومن الواضـح أن المطالـب كانـت تتضمن عزل والي مصر - فأرسل عثمان بن عفان ﵁ إلى محمد بن مسلمة، وقال له: "اذهب إلـى هـؤلاء الثـائرين، فارددهم عني، وأخبرهم أني سـأحقق لهـم الأمـور التـي طلبوها، ونازع عن الأمور التي اعترضـوا عليهـا"، أي أن عثمان بن عفان أوكل محمد بن مسـلمة ليكـون وسـيطًا، ومفاوضا بين الثائرين، وبين عثمان بن عفان نفسـه، ولـم تنجح مهمة محمد بن مسلمة في هذا السياق لأن عثمان بـن عفان أرسل معه خمسين راكبا من الأنصار، وكان الأنصار في المدينة من بين الثائرين والرافضين لكثير من سياسـات عثمان في إعلائه لبني أمية على رؤوس وأعناق المسـلمين،

ويرجع اختيار عثمان بن عفان لمحمد بن مسلمة لأنه موضوعي جدا لدرجة أنه كان بريد عمر، وصحابي رسول ومن ثم فهو مؤهل تماما للقيام بهذا الدور، ذهب محمد بن مسلمة إلى الثائرين، وأبلغهم رسالة عثمان بن عفان، ولم يزل بهم حتى قرروا الرجوع إلى بلادهم، أي أن محمد بن مسلمة نجح في الوساطة، وأقنعهم بالفعل بالرجوع إلى مصر مقابل أن عثمان بن عفان ﷺ وأرضاه سيفعل كذا، وكذا، لكنهم بعدما وافقوا على ما توصلوا إليه مع محمد بن مسلمة من مفاوضات قابلوا في طريق عودتهم واحدة من إبل بيت المال وعليها غلام لعثمان بن عفان، فسألوه إلى أين فارتبك الغلام، فأخذوا متاعه، وفتشوه، فوجدوا معه رسالة مختومة بخاتم عثمان بن عفان إلى والي مصر عبد ا بن سعد بن أبي سرح يأمره فيها بقتل من حاصروه وثاروا عليه، فاكتشفوا أن الأمر جلل، فظيع، رهيب، وظنوا أن عثمان بن عفان خدعهم بمفاوضات محمد بن مسلمة، فرجعوا مرة أخرى إلى عثمان بن عفان، وحاصروه، وجرى ما جرى.

عندما علم عثمان بن عفان بعودتهم طلب من محمد بن مسلمة أن يكمل وساطته، لكن محمد بن مسلمة أعتقد أن

عثمان خدعه ليوقع بالثائرين، ويقتلهم؛ إلا أن كتب التـاريخ تؤكد لنا أن عثمان بن عفان كان بريئًا من ذلك تمامـًا، وأن من كتب أوامر القتل وختمها بخاتم عثمان بن عفان هو الحكم بن مروان، وبعض كتب التاريخ تقول إنه مروان بن الحكـم أي قرابة وصلة عثمان بن عفان، ومن المقربين لعرشه مـن أبناء بني أمية، وأنهم كانوا ينتوون قتل الثائرين على عثمان بن عفان دون علمه، وهو ما انتهى بالفتنة الجبارة، الثـورة الشديدة التي انتهت في المدينة المنورة بمقتل عثمان.

في تلك اللحظة عندما تخلى محمد بـن مسـلمة عـن الوساطة لم يكن يعلم تفاصيل، ودقائق ما جرى فيما عـرف بعد ذلك من ألغاز التاريخ، وكان ظنه أن عثمان خدعه ليوقع بالثائرين ويقتلهم، لكن عندما قامت الفتنة والحـرب الأهليـة بين علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان لم ينتصـر محمد بن مسلمة لأيهما؛ بل وقف بعيدا فـي التـاريخ عمـا حدث، وعندما سألوه: "لماذا ابتعـدت؟"، أجـاب: "أعطـاني رسول ا ﷺ سيفًا ثم قال: يا محمد بن مسلمة جاهـد بهـذا السيف في سبيل ا ، حتى إذا رأيت مـن المسـلمين فئتـين تقتتلان، فاضرب بسيفك حتى تكسره، ثم كف لسانك، يـدك

حتى تأتيك منية قاتلة أو يد خاطئة"، وعندما قتل عثمان بـن عفان وكان ما كان من أمر الناس، أمسك محمد بن مسـلمة هذا السيف الذي حارب به في موقعة بدر، فأخذ يضرب بـه صخور أحد الجبال حتى انكسر السيف، وقيل إنه كان يمشي بسيف مكسور، أو بسيف من خشب طـول فتـرة الفتنـة، الصراع، الحرب، وحتى مات محمد بن مسلمة وهو يمسـك سيفًا من خشب لا يمكن أن يرفعه ضد مسلم.

كلنا نعرف مدى حب النبي عليه الصلاة والسلام لزيـد بن حارثة الذي كان النبي قد تبناه إلى أن قرر الإسلام وأنزل ا سبحانه وتعالى أمرا إلهيا بإنهاء فكرة التبني في الإسـلام فعاد زيد بن محمد زيد بن حارثة وكـان يطلـق الصـحابة وصحبة مكة والمدينة يطلقون عليه زيد الحـب كمـا تلقـب بوصف غال وهو حب رسول ا (حب بكسر البـاء تعنـي محبوب فلانًا أي الذي يحبه فلان) وورث ابنه أسامة اللقبـين وصار اسمه حب رسول ا وابن حبه ولاحظ هنـا دلالـة التعامل مع زيد بن حارثة وأسامة باعتبارهما الابن والحفيـد للنبي الكريم ويمكن كذلك وما دام الأمر هكذا أن نعتبر هـذا الكلام موجها لغلاظ القلوب فالنبي الكريم لا يستنكف أن يعلن

حبه لمن كان بمثابة الابن أو اعتبر بعد إلغاء التبني في مقام الأخ، وفي عام ٨ هجرية شاء ا أن يختبر الحبيب بفـراق حبيبه حيث بعث الرسول بالحارث بن عميرة بكتاب لملك من ملوك العراق أحد أمراء الغساسنة لكن هذا الأمير قتل مندوب النبي الكريم، وأفزعت هذه القصة المسلمين بـالطبع فضـلاً عن اشتداد أثرها على الرسول عليه الصلاة والسلام إذ لـم يقتل له رسول إلا هذا الرسول فجهز الرسول عليه الصـلاة والسلام جيشًا من ثلاثة آلاف مقاتل لغزو تلـك البلـد التـي تعرف باسم (مؤتة) ووضع قيادته زيد بن حارثة وقال النبي عليه الصلاة والسلام: "إذا أصيب زيد تكون القيادة لجعفر بن أبي طالب، شقيق علي بن طالب وابن عم النبي عليه الصلاة والسلام، فإن أصيب جعفر كانت إلى عبد ا بن رواح فـإن أصيب عبد ا فليختر المسلمون من أنفسهم رجلاً" لاحظـوا هنا أن اختيار المسلمين وليس اختيار النبي هو الـذي أنقـذ الجيش بعد ذلك حيث مات جميعهم كما توقع النبـي عليـه الصلاة والسلام وتولى قيادة الجيش أحد المحـاربين انتخبـه الجيش يدعى خالد بن الوليد بينما استشهد في سبيل ا كـل من رشحهم النبي عليه الصلاة والسلام وهذه حكمة ربانيـة

ورسالة نبوية في أهمية الشورى في اختيار البشر. مضـى هذا الجيش بقيادة زيد بن حارثة حتى وصـل إلـى شـرقي الأردن فأرسل هرقل ملك الروم مائة ألف مقاتل للدفاع عـن الغساسنة وانضم إليهم ما يقرب من مائة الف من مشـركي العرب وهذا الجيش الجرار وقـف فـي انتظـار اقتـراب المسلمين وفي انتظار ليلة المعركة الطاحنة. في هذه اللحظة اجتمعت قيادات جيش المسلمين وقـرروا أن يكتبـوا إلـى الرسول عليه الصلاة والسلام يستفتوه فهم ثلاثة آلاف فقـط يواجهون مائتي ألف وحتى إذا كانت تقديرات المسلمين فـي ذلك الوقت لإظهار مدى جسامة وخطورة المشـكلة ومـدى ضخامة جيش الغساسنة مبالغ فيها سنقول إن جيش الغساسنة مائة ألفًا أو خمسين ألفًا بينما جيش المسلمين ثلاثة آلاف فقط فقرروا أن يكتبوا على الرسول عليه الصلاة والسلام ليخبروه بعدة وعدد وعتاد العدو، وانتظروا أمره بينما رفض آخرون وقالوا" إننا لا نقاتل بعدد ولا قوة ولا أكثر وإنما نقاتل بهـذا الدين فانطلقوا إلى ما خرجتم له وقد ضمن لكـم ا الفـوز بأحد الحسنيين النصر أو الشهادة". والحقيقة أن هذه النظرية هي نظرية الشهداء وليست نظرية المقاتلين المحاربين فعندما

يجتمع ثلاثة آلاف في مقابل مائتي ألف أو فلنقل تجاوزا مائة ألف - حتى نترك أي تقديرات قد يعتبرها البعض مبالغ فيها - لكنه في النهاية جيش قليل العدد مقابل جيش ضخم العـدد والعدة والعتاد ويحتاج الأمر إلى إعادة نظر، فالشهيد يكـون رأيه أن يقاتل في هذه الحالة ويحصل على النصر أو الشهادة ولكن القائد العسكري لا يندفع إلى دخـول هـذه المعركـة، والحقيقة أنهم لم يرسلوا إلى النبي لنعرف ماذا كان رأيه لأن رأيه في هذه الحالة كان سيصبح بمثابة منهجا نحتـذي بـه نسير ورائه أما موقعة (بدر) فلا يمكننا القياس عليهـا فهـي بداية الإسلام وكان عدد جيش المسلمين ثلاثمائة في مواجهة ألف أي أن الفارق العددي لم يكن مذهلاً كما في تلك الحالـة وفي النهاية كان هناك ملائكة نزلوا من السماء ولـم تكـن (بدر) موقعة ونموذج لنسير خلفه طول الوقت كمثل واقتـداء وإنما الاقتداء بمدى إخلاص المسلمين فيها ولا يصح الاقتداء بالفارق العددي بين الجيشين فيها أيضا. في تلـك المعركـة التقى الجمعان على أرض مؤتة وقتل المسلمون - كما أجمع الرواة - قتالاً أذهل الروم وملأهم هيبة وهو لا شـك فيـه، فقال ثلاثمائة أمام مائة ألف يعني أنه قتل الشهداء البواسـل

العظام لكن حقيقة الأمر أن الذي قاتل بقيادة زيد بن حارثـة ومن بعده جعفر بن أبي طالب ثم عبد ا بن رواح فهـؤلاء الشهداء عندما يقاتلون لم تعرف راية رسول ا عليه الصلاة والسلام مقاومة في تاريخ البطولات العسكرية مثل مقاومـة زيد بن حارثة في المواجهة حيث خرقت جسده كمـا قيـل مئات الرماح حتى خر صريعا يسبح في دمه، وتلقى الرايـة من بعده جعفر بن أبي طالب فقاتل ودافع حتى استشهد ولحق بصاحبه ثم اختار الجيش خالد بن الوليد للقيادة وكان خالد بن الوليد وقتها حديث عهد بالإسلام ولكنه لم يكن حديث عهـد بالفروسية فانسحب بالجيش وأنقذ ما تبقى منه من فناء محتوم رهيب ومن يومها أطلق عليه النبي عليه الصلاة والسلام لقب (سيف ا المسلول) لاحظ أنه أطلق عليه اللقب لأنه انسحب وليس لأنه انتصر. فعندما بلغت الرسـول عليـه الصـلاة والسلام الأنباء بمقتل القادة الثلاثة. زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد ا بن رواح ـ حزن حزنًا لم يحزن مثلـه قط ومعنى أن يطلق الرسول عليه الصلاة والسلام على خالد بن الوليد في تلك اللحظة لقب سيف ا المسلول فهذا يعنـي إن إبقاء الجيش وإنقاذه هو المنهج الذي يقره النبي وأنه كان

سيقر بالانسحاب والدليل على ذلك أنه عندما انسحب خالد بن الوليد وأنقذ جيشه لم يؤنبه النبي عليه الصلاة والسلام علـى انسحابه ولم يقل لهم "قاتلوا حتـى تفنـوا جميعـا بـالموت والشهادة أو تنتصروا" لم يعاقبه النبي ولم يرفض موقفه بـل مدحه وامتدحه بل ووهبه النيشان العظيم الذي لا بعـده مـن الأوسمة ولا قبله وهو لقب (سيف ا المسلول) عندما توفي زيد بن حارثة شهيدا حزن النبي حزنًا شديدا عليه حتى أنـه عندما ذهب والتقى بأهل زيد بن حارثة بكـى النبـي عليـه الصلاة والسلام حتى انتخب فسأله سعد بن عبادة ـ زعـيم الأنصار ـ والذي سيرشح نفسه فيما بعد خليفة لرسـول ا شخصيا: "ما هذا يا رسول ا ؟" وكان يعتب بسـؤاله علـى النبي وبكائه فقال عليه الصلاة والسلام: "هذا بكـاء الحبيـب على حبيبه" في نفس الغزوة ـ غزوة مؤتة ـ شارك أسـامة بن زيد بن حارثة وكان عمره وقتئذ أقل من ١٨ عاما ورأى بعينيه مصرع أبيه وشهد الجميع أن أسامة بن زيد لم يضعف ولم يتراجع وإنما ظل يقاتل تحت لواء جعفر بن أبي طالـب حتى استشهد جعفر على مرأى من عينه ومشهد منـه ولمـا استشهد جعفر ظل أسامة بنفس القوة والنضـال والتواصـل

تحت لواء عبد ا بن رواح حتى لحق عبد ا بصاحبيه ثـم كان أسامة بن زيد أحد أفراد وجنود الجيش الذين قاتلوا تحت قيادة خالد بن الوليد في عودته من براثن وجحافل الروم التي كانت تودي وتفني جيش المسلمين. ورجع أسامة بـن زيـد راكبا جواد أبيه الذي استشهد عليه الصلاة والسلام إليه قيادة الجيش عندما أعاد تشكيله لغزو الروم في عام ١١ هجريـا أي بعد ٣ سنوات من مؤتة وقبيل مرض النبي عليه الصلاة والسلام بأيام ثم وفاته.

فتعطل الجيش لمرض النبي عليـه الصـلاة والسـلام ووفاته. كان أسامة بن زيد قائدا على جيش مليء بالصـحابة منهم سعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة الجـراح وعمـر بـن الخطاب وغيرهم من عظماء الصحابة ولم يمكن أسامة بـن زيد وقتها قد تجاوز العشـرين عامـا. وتحكـي الروايـات التاريخية أنه عندما ثقل على النبي المرض أقبل عليه أسامة بن زيد ودخل عليه فوجده صامتًا لا يتكلم من وطـأة الـداء فجعل عليه الصلاة والسلام يرفع يده إلى السماء ثم يضـعها على أسامة فعرف أنه كان يدعو له وهذا دليل علـى عمـل المحبة بين النبي وبين أسامة بن زيد ولكن هل عمق المحبة

هو السبب في أن يسند الرسول عليه الصلاة والسـلام إلـى أسامة بن زيد قيام جيش يضم فطاحل الصـحابة وهـو لـم يتجاوز العشرين؟ والحقيقة أن الدرس الأبلغ الذي أراد النبي عليه الصلاة والسلام قوله بهذا القرار هو أنه لا شيء اسـمه فارق السن أو الولاية بكبر السن وإنما الولاية بالكفاءة. لمـا توفي الرسول عليه الصلاة والسلام وتمت البيعة لأبي بكـر الصديق أمر بإنفاذ قيادة الجيش لأسامة بن زيد لكن مجموعة من الأنصار ارتأت إنه لا يمكن تسيير الجيش لأن الأمور في حاجة إلى أن تنضبط وتستقر فانتدبوا عمـر بـن الخطـاب ليحدث أبي بكر الصديق في هذا الأمر لكن أبا بكر الصديق أصر على إرسال الجيش فطلب الصحابة مـن عمـر بـن الخطاب "أبلغه عنا يا عمر أن نولي أمرنا رجلاً أقدم سنًا من أسامة" أي إذا كان أبو بكر مصرا على إرسال الجيش فليعين رجلاً آخر أقدم سنًا من أسامة على قيادة الجيش وما إن سمع الصديق من عمر بن الخطاب رسالة الأنصار حتـى وثـب وأخذ بلحية الفاروق وقال له "ثكلتك أمك وعدمتك يـا ابـن الخطاب استعمله رسول ا ﷺ وتأمرني أن أنزعـه وا لا يكون" وهو ما يكشف نموذج أبي بكر الصديق في القيادة من

أتباع النبي عليه الصلاة والسلام في كل شيء وعندما رجـع عمر بن الخطاب إلى الأنصار قال لهم "ثكلتكم أمهاتكم لقـد لقيت ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول ا " أي أن عمـر بن الخطاب نفسه قد ندم على ما طلبه، وانطلق الجيش بقيادة قائده الشاب أسامة بن زيد. كان أسامة أسمر البشرة، دقيـق الملامح والجسم، وغض السن. انطلق أسامة بن زيد لقيـادة الجيش على فرسه وخليفة رسول ا أبو بكر الصديق يمشي إلى جواره فقال أسامة "يا خليفـة رسـول ا وا لتـركبن أو لأنزلن" فقال الصديق "وا لا تنزل وا لا أركـب ومـا علي ألا أن أغبر قدمي في سبيل ا ساعة" ثم قال لأسـامة "أستودع ا دينك وأمانتك وخواتيم عملك وأوصيك بإنفاذ ما أمرك به رسول ا ﷺ" ثـم طلـب الصـديق مـن أسـامة "إن رأيت أن تعينني بعمر فأذن له بالبقاء معي" كان أبو بكر الصديق يستأذن أسامة بن زيد. خليفة رسول ا يستأذن في أن يبقى أسامة بن زيد القائد الشاب عمر بن الخطاب معـه فهو يشير عليه ويتعامل معه ويأخذ برأيه فهو قرينـه فـإذن أسامة لعمر بن الخطاب بالبقاء. كما تقول كتب التاريخ نفـذ أسامة بن زيد كل ما أمره به رسول ا . كـان المفتـرض

والمطلوب من ذلك الجيش أن يكون استعراضـا للعضـلات وإلقاء الرعب والفزع في قلوب جيش الروم فلا يفكروا فـي الإغارة على المسلمين وحربهم وقيل إن أسامة بن زيد فعـل ذلك على خير وجه وكان يقود الجيش على صهوة الجـواد الذي استشهد عليه أبيه.

وتقول الروايات إن هذا الجيش بقيادة أسامة بن زيد ظل من ٤٠ ـ ٧٠ يوما في هذه الغارات على جيش الروم ولـم يحمل هذا الجيش اسم معركة أو غزوة ولكنه أدى ما عليه إلا أن اسم أسامة بن زيد اختفى من جميع المعارك التالية ولـم تذكر الروايات اسمه في أي موقعة تالية في تاريخ الإسـلام لا في الفتوحات ولا في الغزوات كما أن أبا بكـر الصـديق وعمر بن الخطاب بل وعثمان بن عفان لم يكلفوا أسامة بـن زيد بأي قيادة لأي جيش فالمفترض أن أسامة بن زيد كقائـد عينه النبي عليه الصلاة والسلام وأقره أبـو بكـر الصـديق وكان قائدا للجيش وعمره عشرين عاما أن يكون بعد ذلك في مثل قامة خالد بن الوليد لكن ما حدث هو النقيض تماما حيث لم يشهد له التاريخ أي دور عسكري على الإطلاق فيما بعـد لا كقائد أو مشارك. وظل أسامة بن زيد ما امتدت به الحياة

موقع إجلال المسلمين وحبهم وفاء لرسول ا عليه الصـلاة والسلام وإجلالاً لشخصه لدرجة أن عمر بن الخطاب كـان يمنحه عطاء من بيت المال أكبر من الذي يعطيه لابنه عبـد ا بن عمر بن الخطاب.

فقال عبد ا بن عمر لأبيه "فرضت لأسامة بـن زيـد أربعة آلاف وفرضت لي ثلاثة وما كان لأبيه مـن الفضـل أكثر مما كان لك وليس له من الفضل أكثر مما كان لي "فرد عليه الخطاب" هيهات. إن أباه كان أحب إلى رسول ا مـن أبيك وكان هو أحب إلى رسول ا منك ورضي عبد ا بن عمر بهذه القسمة وعندما كان عمر بن الخطاب يقابل أسامة بن زيد في الطريق كان يقول له: "أهلاً بأميري" على اعتبار أن النبي عليه الصلاة والسلام ولى أسامة بـن زيـد إمـارة الجيش على عمر بن الخطاب ورغم ذلك فالمدهش هو غياب أسامة بن زيد عن الساحة العسكرية بعد عودته بجيش أمـره عليه ﷺ فلم يكن قائدا لجيش بعده ولا فارسا في موقعه ولـم يتم ذكره في أي حرب أو فتح وهو شيء محير خاصة مـع غيابه عن ولاية أي بلد من البلدان المفتوحة ولم نعثر عليـه في أي حدث كبير في تاريخ الإسـلام أو الفـتح الإسـلامي

والشيء الوحيد الذي يذكر فيه اسم أسامة بن زيد بعد عودته من قيادة الجيش أنه اعتزل الفتنة وهو التعبير الذي تعتمـده كتب التاريخ للحديث عن الحرب الأهلية التي دارت بين علي بن أبي طالب من جهة والسيدة عائشة وطلحة الخير والزبير بن العوام من جهة ثم الحرب بين علـي بـن أبـي طالـب ومعاوية بن أبي سفيان. وتعبير (اعتزل الفتنة) يعني أنه لـم ينتمي لأي من المعسكرين لا إلى علي بن أبي طالب ولا إلى خصومه وعاش أسامة بن زيد حتى فترة معاوية بـن أبـي سفيان ورغم أن التاريخ لم يذكر لأسامة أي دور عسـكري بعد عودته من قيادة الجيش إلا أن التاريخ سيظل يذكر أنـه كان حب رسول ا .

عدالة عمر بن الخطاب

التوقف عند التاريخ الخاص بالفترة العمرية.. فترة عمر ابن الخطاب وما قدمه من أمثلة ونمـاذج وقـوانين عمريـة رائعة في العدل والعدالة، هذا التوقف يستدعي دائما ولا شك عن تواضعه وعدله وحرية من حوله فـي القـول والفعـل والمناقشة والمحاورة والمناظرة والاختلاف معه. الاخـتلاف البين العميق والجذري أحيانًا، لكن العدل يساوي عند عمـر ابن الخطاب الحرية ولنتوقف قليلاً عند رواية عن عروة قال "أتيت عبد ا بن عمر بن الخطاب رضي ا عنهما وقلت له يا أبا عبد الرحمن ـ وهو لقب عبد ا بن عمر ـ أنا نجلس إلى أئمتنا هؤلاء فيتكلمون بالكلام ونحن نعلم أن الحق غيره فنصدقهم ويقضون بالزور فنحسنه لهم فكيف ترى ذلك؟ فقال عبد ا بن عمر: يا أخي كنا مع رسول ا ﷺ نعد هذا نفاقًا فما أدري ما هو عندكم؟" وعن جاهل أن رجلاً قدم على ابن عمر بن الخطاب رضي ا عنهما "كيف أنتم وواليكم أبـي فقال: نحن وهو إذا لقيناه قلنا له ما نحب وإذا ولينا عنه قلنـا غير ذلك فقال عبد ا بن عمر بن الخطاب: ذلك ما كنا نعده ونحن مع رسول ا صلى ا عليه وسلم نفاقًا" وعن حذيفـة

ﷺ أن عمر بن الخطاب قال: "إياكم ومواطن الفتن فقيل لـه وما مواطن الفتن يا أبا عبد ا فقال: أبواب الأمراء يـدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه" كـل هذه الروايات تكشف الوضوح البين القوي الحاضر الصارخ. هذا الكلام الذي يقوله ويؤكده عبد ا بن عمر بن الخطـاب هو واحد من المدرسة العمرية فـي فهـم العـدل والعدالـة والعلاقة بالسلطة والسلطات والولاة والخلفاء وهـذه الفتـرة كانت درس واضح في عصر ما بعد الرسول عليه الصـلاة والسلام عن الحسن أن عمر بن الخطاب (علي بن أبي كعب رضي ا عنهما) في قراءة آية فقال بن أبـي كعـب: لقـد سمعتهما من الرسول عليه الصلاة والسلام هكذا وأنت يلهك يا عمر بيع بالبقيع فقال عمر ﷺ: صـدقت إنمـا أردت أن أجبركم هل منكم من يقول الحق؟ فلا خير في أمير لا يقـال عنده الحق ولا يقوله "هذا هو الدرس الفتح أن يقـول شـيء غير صادق فإذا وافقه من حوله وإذا أيده من معه وإذا مشى وراءه في غير حق بل وفي أمر يخالف الحـق والحقيقـة. لأدرك ساعتها عمر بن الخطاب أن هناك خطرا؛ لأن مـن حوله لا يقولون الحق فقال: "لا خير في أمير لا يقال عنـده

الحق ولا يقوله". عن النعمان بن البشير أن عمر بن الخطاب ﵁ قال في مجلس وحوله المهاجرون والأنصار: "أرأيتم لـو ترخصت في بعض الأمور ما كنتم فاعلين؟" أي إذا تهاونـت في بعض الأمور أو لو أنا خالفت أو هو يحاكمني ماذا كنـتم تفعلون؟ كان عمر بن الخطاب ﵁ يود بهذا السؤال أن يقـدم اختبارا حقيقيا لمن حوله من المهاجرين والأنصار. كان يريد أن يعرف مدى غواية الحاكم لهم ومدى قدرتهم على مقاومة الرغبة في محالفة السلطان، وفي تمجيد ونفاق الخليفة وفـي موائمة الموقف مع الأمير فقال لهم هـذا السـؤال فصـمتوا فكرره عمر مرتين وثلاثة فقال بشير بن سعد: "لو فعلت ذلك قومناك تقويم السهم" فقال عمر بن الخطاب "أنتم إذًا". وعـن موسى بن أبي قال: "أتى عمر بن الخطاب ﵁ لشخص مـن بني حارث فوجد محمد بن مسلمة فقال عمر بن الخطـاب: كيف تراني يا محمد؟ فرد عليه محمد بن مسلمة: أراك وا كما أحب وكما أحب لك الخير. أراك قويا على جمع الأموال عفيفًا عنها عدلاً في قسمة الأموال ولو مات لعـدلناك كمـا يعدل السهم في الثقاب، فقال عمر بن الخطاب ﵁: الحمد الذي جعلني في قوم إذا أملت عدلوني وقوموني" لاحـظ أن

عمر بن الخطاب أمير المؤمنين والخليفة يسأل مواطنًا عاديا وصحابيا جليلاً عن رأيه فيه، فكان عمر بن الخطاب يبحث عن الرد الرادع.. يبحث عن الحق الكامل.. يبحث عن الصراحة والمواجهة والوضوح.. يبحث عن النقد.. يبحث عن الحق. عندما كان عمر بن الخطاب يرسل عماله إلى الأمصار كان يملي عليهم شروطه وهي "لا تركبوا دابة أو حصانًا حتى لا تعلوا على الناس. ولا تأكلوا نقيا ولا تلبسوا رقيقًا ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس فإن فعلتم شيئًا من ذلك فقد حلت بكم العقوبة ثم يشيعهم فإذا أراد أن يراجعهم فكان يستدعي أحدهم ويقول لهم: "إني لم أسلطكم على دماء المسلمين ولا على أبشراهم ولا على أموالهم ولا على أعراضهم ولكني بعثتكم لتقيموا فيهم الصلاة وتقسموا فيهم فيئهم فاحكموا بينهم بالعدل فإذا أشكل عليكم شيء فعودوا إلي وإلا فلا تضربوا العرب فتذلوها ولا تفتنوا ولا تعتلوا عليهم" والمقصود بأمر عمر بن الخطاب "لا تأكلوا نقيا" أي الغالي المرفه من الطعام" ولا تلبسوا رقيقًا" أي الغالي الفخيم. كان عمر حريصا على ألا يعتلي ولاته فوق الناس أي يعتبر الوالي نفسه سيد أعلى الرعية ولا يعتبر

نفسه فوقهم راكبا حتى دابة والأمر الثاني ألا يغلق بابه دونهم والأمر الثالث "ألا يذل" بمعنى ألا يجبر أحدا عنفًـا.. قـوة.. قهرا.. قسرا بالمال، هذه هي القوانين العمرية فـي العـدل السياسي.. أرسل عمل بن الخطاب ﵁ إلى سعيد بن عـامر فقال: أنا مستعملوك على هؤلاء ـ جماعة مـن النـاس ـ فتسير بهم إلى أرض العدو فتجاهد بهم وكان سعيد بن عامر يخشى الإمارة والولاية. يخشى هذا الامتحـان والاختبـار، ولا يريد أن يكون أميرا على أحد فيحاسب عنـد ا وعنـد عمر بن الخطاب وعند المسلمين على أنه أمير فقال سـعيد: "يا عمر لا تفتني" فقال عمر بن الخطاب ﵁: "وا لا أدعكم تجعلوها في عنقي ثم تخلوا عني إنما أرسلك على قوم لسـت بأفضلهم ولست أبعثك لتضرب أبشارهم إنما أرسـلك كـي تجاهد بهم عن الوغى ـ الأعداء ـ وتقسم بينهم فيئهم".

هذا هو الوضوح العمري في التعامـل مـع الإمـارة، فالأمير ليس أفضل من الرعية والهدف من إرساله لـيس أن ينتهك أعراضهم أو يأكل أموالهم. أرسل عمرو بن العاص ـ وكان والي مصر وقتها ـ إلى عمر بن الخطاب يقول لـه: "أنا قد خططنا لك عند السجد الجامع بيتًا" فكتب إليه عمر بن

الخطاب: "أنى لرجل من الحجاز تكون له دار بمصر". كـان عمرو بن العاص كوالي وأمير من تمكـن يريـد بطموحـه السياسي أن يبني مقرا لخليفة المسلمين عمر بـن الخطـاب حتى يرضي عنه الخطاب عند زيارته إلى مصـر لكـن رد عمر الواضح القوي يدل على أنه لا يبحـث عـن الفخامـة والرفاهية والنفوذ. كان لسان حال عمر بن الخطـاب يقـول للدنيا "غري غيري" كما يقول الصـالحون للـدنيا ونفاقهـا وغوايتها وإغرائها، وطلب عمر بن الخطاب من عمرو بـن العاص أن يجعل هذه الدار سوقًا للمسلمين. وكان عمر بـن الخطاب قد كتب رسالة واضحة من خليفة المسـلمين إلـى عمرو بن العاص عند علمه باتخاذ عمرو بن العاص منبـرا فكتب إليه بن الخطاب يقول: "أما بعد فإنه بلغني أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب الناس ألا يكفيك ويرضك أن تكون قائما والمسلمين عند عقبيك. " كان عمرو بن العاص واليـا على مصر - أي خليفة فرعون - ويعرف كيـف يتعامـل المصريون مع ولاتهم وحكامهم وفراعينهم فصنع المنبر لكي يكون له الهيبة والمهابة أمام المصـريين لكـن عمـر بـن الخطاب لم يوافقه وقال له "آمرك بكسره فورا" وعندما علـم

عمر بن الخطاب ﷺ أن الوليد بن عتبة عامله في أذربيجـان يختط قصرا من أموال المسلمين أرسـل إليـه يقـول لـه: "يا عتبة ليس من كدك ولا من كد أبيك ولا من كد أمك فأشبع المسلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحالك وإياكم والتنعم وزي أهل الشرك ولبوس الحرير". كان عمر بن الخطاب ﷺ يريد إقرار مبدأ السواسية والعدالة المطلقة فلا ينبغي لحـاكم أن يميز نفسه بشيء دون سائر المسلمين. لـم يكـن يريـد المظاهر التي تجعل من الحكم المسلم حاكما على الناس وإنما كان يريده حاكما مع الناس. وكان عمر بن الخطاب ﷺ يلتقي بالناس مرة فمر به أهل حمص فقال لهم: "كيـف أميـركم؟" فقالوا: "خير أمير إلا أنه بنى بناية - المقصود بهـا غرفـة عالية - يكون فيها" فكتب عمر بن الخطاب كتابـا وأرسـل مندوبه أن يحرق الغرفة فلما جاءها مندوب عمر بن الخطاب جمع حطبا وحرق بابها وأحضر الأمير إلى المدينـة فأخـذ عمر الوالي لمنطقة إبل الصدقة وقال له انزع ثيابك ثم ألقـى إليه ثوبا من أوبار الإبل وأمره أن يسقي الإبل فأخذ الأميـر بسقيها حتى تعب. وكان عمر يقصد من ذلـك كسـر حالـة الغرور والإحساس بالتعالي وأنه يبتني مكانًا مرتفعا فلا رفعة

وارتفاع على المسكين والأرملة وبعد هذا الـدرس القاسـي في العدل والسواسية قال عمر بن الخطاب: "ارجع إلى عملك فلا تظلم" بلغ عمر بن الخطاب ﵁ أن سعد بن أبي وقـاص واليا على الكوفة وهي كما يحكي التاريخ عن أهلهـا (أهـل النفاق والشقاق) لذلك كان هناك صخب وضجة فقرر سعد بن أبي وقاص أن يجعل بابا يمنع عنه صخب الناس وضجيجهم فأرسل عمر بن الخطاب محمد بن مسلمة رضي ا عنهمـا وقال له "أتي سعد وأحرق عليه بابه" فذهب محمد بن مسلمة إلى الكوفة فأحرق الباب بأوامر من عمر بن الخطاب لأنـه لا ينبغي أن يكون لحاكم قصر أو باب بينه وبين الرعية وهذا هو عمر بن الخطاب.

عمرو بن العاص

ظل عمرو بن العاص واليا لمصر لمدة خمس سـنوات أثناء ولاية عمر بن الخطاب يتولى خراج مصر والضرائب والأحوال التي تخرج من مصر وتصل لبيت مال المسـلمين وبيت المال أو وزارة المالية اختراع سيدنا عمر بن الخطاب فهو الذي أوجد هذه القيمة الإسلامية الرفيعة بأن يصبح هناك مال الأمة وخزانة لهذا المال ورعاية له - ووارد وصـادر "قيمة المال" لاحظوا أننا نتكلم عن مجتمع انتقل مـن حالـة الجزيرة العربية وصراع مع قبائل وعشائر وطوائـف إلـى مجتمع إسلامي أوسع يمتد وتمدد.. انتشر وتطـور وتغيـر الواقع الإسلامي في حجاز وجزيرة إلى عراق، شام، فارس، مصر فالموضوع احتد وأصبح هناك ثروة إسـلامية هائلـة قادمة إلى بيت مال المسلمين، وهذه الثروة في حاجـة إلـى عقلية عادلة منصفة قادرة على توزيعها بالطريقة الصـحيحة السليمة، وهذه هي اللحظة التاريخية الجبارة التي لـو كـان حدث أي خلل في المال العام أو توزيع الثروة، كان يمكـن لهذا البناء الإسلامي الكبير الذي انتقل في الدين إلى الحضارة فهو دين بعقيدته وعباداته، ومعاملاته كتابه العظيم المنـزل

"القرآن الكريم" بهداية نبيه وأحاديثه النبوية الشريفة فهذا هو العامود الفقري والعصب والمخ. أما الوعـاء أو المحتـوى اختلاف وكبر عندما اتصل بالبلاد والحضارات الأخرى فـي فارس والشام ومصر.

أصبح هناك في تاريخنا الحضارة الإسلامية التي لم تكن لتقف صامدة شامخة إلا إذا كان هناك حالة عدل واضح قوي صارم حازم حاسم وهو عدل عمر بن الخطاب.

وهو ما حدث خلال فترة عشر سنوات أو أكثر ـ فترة تولي عمر الخلافة ـ والتي كانت مع الفتـوح ودر المـال والجباية كان لا بد أن يكون هناك أحد على رأس هذه الأمـة بهذا الوعي وبهذه القدرة على العدل والمحاسـبة الصـارمة للصحابة والولاة وعمر بن الخطاب هو الذي وضع عمـرو بن العاص خمس سنوات كاملة على ولايـة مصـر وكـان عمرو بن العاص يعتبر ذلك وسام شرف وتقديرا بالغًا عظيما من أعدل الصحابة وأهـم نمـوذج للعدالـة فـي تاريخنـا الإسلامي.

عندما تولى عثمان بن عفان الخلافة ذهب عمـرو بـن العاص إليه في المدينة ليبايعه ويعرض عليه شئون ولايتـه ويتلقى أوامره فيها.

لكن كان أكبرهم لعمرو بن العاص أن يسـأل الخليفـة الجديد قرارا واحدا وحيدا وهو عزل عبد ا بن سـعد مـن ولاية الصعيد. لماذا عبد ا بن سعد؟ لأنـه منـافس قـوي جسور لا يطيقه زعيم مثل عمرو بن العاص لأنه في الغالب من الشخصيات التي تتولى مثل هذا المنصب. وهذه المكانـة في حاجة إلى شخص يتوافق ويتبع. عندما يكـون صـحابي عظيم جليل وداهية من داهيات العرب فـي السياسـة مثـل عمرو بن العاص لا يحتاج من يناكفه كما أنه كـان يعـرف بقوة أن عبد ا بن سعد، ينتمي بقرابة إلى الخليفة عثمان بن عفان. فذهب عمرو بن العاص إلى الخليفة الجديـد يسـبق الأحداث ويطلب منه عزل عبد ا بن سعد والحقيقة أن تقدير عمرو بن العاص للأمور في تلك اللحظة لـم يكـن دقيقًـا أو على عهده من الذكاء والفطنة فرفض عثمان بـن عفـان الفكرة وأخبره أن عبد ا بن سعد سـيكون مسـئولاً عـن الخراج حتى أن عمرو بن العاص له مقولة شهيرة هي "فـي

هذه الحالة وأنا أتولى مصر كمن يأخذ البقرة بقرنيها ليحلبها غيره".

وتعذر التوفيق بين المتنافسين فانتهى الخـلاف بإقالـة عمرو بن العاص وإقامة عبد ا بن سعد على ولاية مصـر وخراجها وهذا المشهد يحكي ويبين لنا أنه يمكن لهذا الخلاف أن يكون. فالموضوع ليس أن شخصيات الصحابة لا تختلف أو تتناقض أو تتحاور أو تتصارع حتى ولكن وفـق قـانون إنساني وإلهي ونبوي وهو العدل.

ويتضح لنا من هذا المشهد أيضا أن ولاية عمـرو بـن العاص لمصر كانت شيئًا عزيزا على نفسه جدا وهو متمكن منها تماما ويحب هذا الوطن وقادر على قيادته وفـي نفـس الوقت هو شخصية ذاتية تاريخية. وكان عثمان بن عفـان. كما قيل في كتب التاريخ يخشى كثيرا من طموح عمرو بـن العاص. الأمر الذي جعله يصل سريعا إلى هذا القرار وهـو أن يولي أخيه في الرضاعة عبد ا بن سعد ولايـة مصـر تامة متممة والحقيقة أن هذا القرار لم يكن سهلاً على عمرو بن العاص ولم يكن هو هذه الشخصية التي تصمت على هذا القرار. عمرو بن العاص لم يصمت بل قـاد حربـا نفسـية

برعاية حقيقية سوداء ضد الخليفة عثمان بن عفـان. سـواء وعمرو بن العاص من منفاه الاختياري في فلسطين حيث لم يظل عمرو بن العاص في مصر بعد عزله ولم يذهب إلـى المدينة حيث عثمان بن عفان وآثر أن يبقى في منطقة وسطى بين الجزيرة العربية ومصر وكان يزور المدينة على فترات وكان دائم الإشارة إلى سلبيات حكم عثمان بن عفان لدرجـة أنه وشى به لدى الخليفة عثمان بن عفـان واشٍ، فاسـتدعاه عثمان وقيل في كتب التاريخ أنه أغلظ له في القول - وتقول الروايات التاريخية أغلظ في شتمه ولكننـي أريـد تخفيـف التعبير - وراح يؤنبه ويقول له "يا ابن النابغة أتطعن علـي وتأتين بوجه وتذهب علي بوجه آخر" وبالطبع تنصل عمرو بن العاص وقال له "إن كثيرا مما يقول الناس وينقـل إلـى ولاتهم باطل فاتقِ الله يا أمير المؤمنين".

عمرو بن العاص في هذه المقولة يقر قانونًا إنسانيا وهو أنه ليس كل ما يقال للولاة حقيقيا، طبعا هو والي وأمير وظل خمس سنوات في مصر ويعرف ذلك لكنه لا يكتـف بهـذا القول ويضيف "اتقِ الله يا أمير المؤمنين" هل يمكن أن يعتبر هذا الحوار خشن؟ لكنني على النقيض أعتبره حوارا راقيـا

حضاريا وحرا جدا ـ فعمرو بن العـاص بـدون منصـب أو إمارة.. مجرد مواطن يواجه الخليفة ويقول له "اتق ا يا أمير المؤمنين" فرد عليه الخليفة عثمان بن عفان "اسـتعملتك على ظلمك وكثرة القالة فيك" فقال عمرو بن العـاص "لقـد كنت عاملاً لعمر بن الخطاب فارقني وهو عني راضٍ".

فقال له عثمان بن عفان "لو أخذتك بما أخذك به عمـر لاستقمت لكنني لنت عليك فاجترأت".

فرد عليه عمرو بن العاص "أنه تجاوز حدوده أو ألزم حدودك أو ما شبه هذا التعبير وانتهت هذه المجادلـة وهـذا الحوار إلى رائحة خصومة وعداوة.

كانت كلما تدرجت الفتنة. وتعبير الفتنة استخدم للحديث عن أشهر حرب أهلية في التاريخ الإسلامي والتـي كانـت علامة تغير وتبدل في المزاج والعقلية والحكـم الإسـلامي. كان عثمان بن عفان كعهد أمراء وخلفاء المؤمنين في ذلـك الوقت كان مجتمعا في المسجد بالعوام عندا سأل عثمان بـن عفان عمرو بن العاص في لحظة من اللحظـات التاريخيـة المهمة ماذا يفعل أمام جمع من مجلس الشورى عـن رأيـه في هذه الفتنة: ماذا يفعل؟ فرد عمرو بـن العـاص الـذكي

الفطن وهو في نفس الوقت الذي انتزع منه عثمان بن عفان ولاية مصر - وهذا لم يكن شيئًا هينًا عليه - "لقـد ركبـت الناس بني أمية فقلت وقالوا وزدت وزادوا فاعتزل أو اعتدل" لاحظ معي أن تعبيرات عمرو بن العاص قوية وهو يقـول ذلك لخليفة المؤمنين في مشهد من الناس وهو ما قد يعتبـره البعض اجتراء ولكنني أعتبرها جرأة مبالغ في قسوتها مـن عمرو بن العاص كما لو أنه يحاسب أمير المـؤمنين وكـان عمرو بن العاص يدرك لحظتها أنه مشكوك ومطعـون فـي شهادته أو رأيه باعتباره شخصا من الشخصيات التي عزلها عثمان بن عفان.. يعني أنه يقول هـذا الكـلام لأن عثمـان عزله. لكن عمرو بن العاص أذكى مما تظن وأكثر فطنة مما نعتقد وأكثر حيطة واحتياط للأمر مما يدرك أي منا لأنه بعد أن انفض هذا الجمع أو مجلس الشورى اقترب عمـرو بـن العاص من الخليفة عثمان بن عفان واعتذر له وقال له: "وا يا أمير المؤمنين لأنت أكرم علي من ذلك وإنني قد علمـت أنه من بني قومك قد علموا أنك قد جمعتنـا لنشـير عليـك فأحببت أن أبلغهم قولي فأقول لك خيرا وأدفع عنـك شـرا، "لا شك في ذكاء هذا الرجل وكان يقول مثل هـذا وأشـابهه

في دولة عثمان بن عفان" بمعنى أنه بالرغم من أن أمله كان يضعف يوما بعد يوم في الحصول على إمارة مصر مرة أخرى أو أنه يصبح ذا شأن ونفوذ سياسي في وقت دولة عثمان بن عفان، فكان دائم المراوحة في هذا الكلام وأحياناً يشتد ويغلظ قوله ويهاجم عثمان بن عفان وسياسته القائمة على تقريب أبناء أسرته - كما تقول كتب التاريخ - فكرة أن الأقارب والأهل هم الولاة والحكام ويقصد أن الولاة والخلفاء الذين عينهم عثمان بن عفان على سائر الأمصار والأقطار الإسلامية أكثر من ٩٠ % منهم من عمومته وأبناء أسرته وعشيرته. ليس هذا فقط لكنه كان يتركهم ينتهجون سياسات مالية تثير غضب الناس ثم أنهم بلغوا في مرحلة ما من الفخامة والرفاهية المتناقضة تماما مع عدل دولة عمر بن الخطاب، وهذا ما أثار الناس ضد ولاة عثمان ثم أثار الناس ضد عثمان بن عفان نفسه وهو الخليفة العظيم لأنه سكت على ما يفعله بني أمية وولاته ولم يشأ عزلهم لدرجة أن عمرو بن العاص وقف في المسجد وقال له "اتق ا يا عثمان فتب إلى ا ونتب معك" هذه المقولة التي قالها عمرو بن العاص في المسجد مقر الخلافة وأمام جمع من الناس

دليل على الحرية والاحترام الشديد للرأي والاختلاف، ثم انتهى الأمر للثورة التي اغتيل فيها عثمان بن عفان. وفي ذلك المشهد كان عمرو بن العاص وزير إعلام في مواجهة عثمان بن عفان كان صاحب بيانات في مواجهته على طريقة المنشورات السياسية الآن. فهو من الذين أثاروا الغضب على سياسة عثمان بن عفان. وكان من المنطقي تاريخيا أنه ما دامت لم تعجبه سياسة عثمان بن عفان أن تعجبه سياسة علي بن أبي طالب رمز العدل والعدالة، لكن عمرو بن العاص لم ينصره. لماذا؟ يرجع ذلك أن بحث عمرو بن العاص كله في تاريخه كان بحثًا عن مصر وولايته مصر. فعمرو بن العاص لم ينتصر لعثمان بن عفان بل عاداه كما لم ينتصر لعلي بن أبي طالب بل ترقب وانتظر حتى يرى المشهد. نعرف أنه كان لسيدنا علي بن أبي طالب خصمان هما طلحة والزبير ثم بعدها الخصم الأكبر وهو معاوية بن أبي سفيان. فعندما شهد عمرو بن العاص هذا المشهد: علي بن أبي طالب ضد معاوية بن أبي سفيان، وجب عليه أن يختار طريقًا من الطريقين لأنه إذا آثر الاعتزال فلن يتركه الفريقان في عزلته. لماذا؟ لأنه عمرو

بن العاص. لا سكت أبدا فإذا سكت وابتعد سيثير القلق ومن ثم كان لا بد أن يكون رأيه واضحا. فجمع عمرو بن العاص واديه محمد وعبد ا وسألهما "ماذا أفعل؟ قتل عثمان والأمر أمام علي ومعاوية.. فماذا أصنع؟. فأجابه ابنه عبد ا "قتـل الخليفة عثمان بن عفان وأنت عنه غائب فاجلس في منزلـك فلست مجعولاً خليفة ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية علـى دنيا قليلة زائلة". أما ابنه محمد فأشار عليه بأنه "شيخ قريش وصاحب أمرها وأن حسم هذا الأمر وأنت فيه حامل، صغر أمرك، فالحق بجماعة أهل الشام مع معاوية فكن يـدا مـن أيديهم". فرد عمرو بن العاص "أما أنت يا عبد ا فـأمرتني بما هو خير لي في ديني وأما أنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي وأنا ناظر فيـه" وروي أن عمـرو بـن العاص استغرق فترة من التفكير وقال لصحبته ومستشـاريه "أني إن أتيت عليا قال إنما أنت رجل من المسلمين فلم يكـن لدى سيدنا علي بن أبي طالب مثل هذه الخيارات والفواصل وليس عنده ما هو ذو مكانة وامتياز فالكل عنـده سواسـية كأسنان المشط. وهذا عدل علي.. تقوى علي.. ونبل علـي.. رفعة علي.. دين علي.. وإن أتيت معاوية يخلطنـي بنفسـه

ويشركني في أمره". يعني أصبح صـاحب مكانـة ونفـوذ وسلطان مع معاوية. فكان ما كان وانضم عمرو بن العـاص إلى معاوية بن أبي سفيان وكان ما عرفناه بعـد ذلـك مـن مواقف كان فيها من التحكيم وصاحب الدور الأول في تولية معاوية الذي يطالب بدم عثمان بن عفان بينما عمـرو بـن العاص كان ضد عثمان بن عفان ومن الذين قـادوا الثـورة ضده ـ سبحان ا ـ أيضا عندما نرى المشـهد التـاريخي العظيم الذي يحكيه الصحابي الجليل عبـادة بـن الصـامت وهو من الزهاد العظام والصحابة الأجلاء قال إنهمـا قـدم عليهما ـ عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان ـ وهما بالشام فجلس بينهما فسألهما أتدريان لم جلست بينكمـا فـي مكانكما فردا عليه: نعم لفضلك وسابقتك وشـرفك. فقـال لا وا وما كنت لأجلس بينكما في مكانكما لذلك ولكـن بينمـا نحن نسير مع رسول ا ﷺ إذ نظرا إليكما تسيران وأنتمـا تتحدثان فالتفت إلينا فقال: إذا رأيتموهما اجتمعا ففرقوا بينهما فإنهما لا يجتمعان على خير أبدا "قد يكـون هـذا الحـديث موضع شك لكن التاريخ لا يشك فيه أبدا.

علاء الحضرمي

في السنة الثامنة لهجرة الرسـول ﷺ، أرسـل عـلاء الحضرمي إلى البحرين. وهو أحد الصحابة الـذي تتوقفـت كتب التاريخ كثير عند سيرته. لأنها سيرة تفتح كثيـرا مـن الدهشة وتفتح أبوابا من الحق. كان العلاء الحضرمي مبعوث النبي عليه الصلاة والسلام إلى البحرين لدعوة ملك البحرين في ذلك الوقت - المنذر - إلى الإسلام. والحقيقـة أنـه إذا كان المصريون مدينون لعمرو بن العاص بدخول الإسـلام، إلى مصر فإن أهل البحرين أو بالأحرى أهل الخليج مدينون للعلاء الحضرمي، بدخول الإسلام فقد استجاب المنذر ملـك البحرين وشعبه إلى دعوة الرسول لهدايتهم على يد العـلاء الحضرمي فأسلموا جميعا وأسلم معه جميع العرب وبعـض العجم في منطقة الخليج حتـى أهـل الخلـيج مـن اليهـود والمجوس والمسيحيين صالحوا العـلاء الحضـرمي علـى الجزية وكتب بينهم كتابا يقول في نصه: "هذا ما صالح عليه العلاء الحضرمي أهل البحرين. صالحهم علـى أن يتقنـون العمل ويقتسمون الثمار فمن لا يبغي بهذا عليه لعنة مـن ا والملائكة والناس أجمعين "فجاءت البحرين إلى الإسلام مـن

دون قتال وأرسل العلاء إلى الرسول عليه الصلاة والسـلام في حياته ثمانين ألف درهم جزية البحرين، لكن بعد أن توفي النبي عليه الصلاة والسلام بأيام وتصل في بعض الروايـات إلى أسابيع. مات المنذر ملك البحرين وملكوا علـيهم ابنـه وكان شابا مغرورا فقال قولته التي ربما فتحت باب حـروب الردة، هي: "لو أن محمدا نبيا ما مات" وأصبحت البحـرين مركز إشعاع الردة ولم يبق بالبحرين ارتدوا عدا بلدة واحدة هي أول قرية أقامت صلاة الجمعة من أهل الردة وحاصـر المرتدون أهل هذه القرية وضيقوا عليهم الخناق ومنعوا عنهم الأقوات فجاعوا جوعا شديدا حتى أنقذهم ا على يد العـلاء الحضرمي، وكان ما حدث امتحانًا عظيما لأهـل البحـرين وللإسلام ولعلاء الحضرمي نفسه الذي دخل على يديه أهـل البحرين إلى الإسلام، فـأمر أبـو بكـر الصـديق العـلاء الحضرمي أن يسير بجيشه إلى أرض البحرين ليعيدها إلـى الإسلام حربا بعد أن كان قد أدخلهم فيه سلما. عندما وصـل العلاء الحضرمي إلى البحرين جاء إليه أن آثام وهو زعـيم قبيلة كبيرة تعيش ما قبل البحرين فانضـموا إلـى العـلاء الحضرمي فأكرمهم ورحب بهم وأحسن إليهم. وكان العـلاء

الحضرمي من سادة الصحابة ومن العلماء مجابي الـدعوة.
وفي هذه الغزوة نزل العلاء الحضرمي بجيشه إلى مكان قبل البحرين وما إن نزل المعسكر حتى نفرت الإبـل ـ كأنهـا أصيبت بلوثة ـ بما عليها من خيام الجيش وشرابهم وزادهم وأسلحتهم فأخذوا يطاردون الإبل ولم يقدروا علـى إرجـاع بعير واحد فبات الجيش على هذه الأرض ليس معهم شـيء إلا ثيابهم. وكما تقول كتب التاريخ في بلاغتها: فركب الناس من الهم والغم ما لا يوصف ولا يشرح لدرجـة أن الـبعض أخذ يقول لأصحابه وصيته فنادى منادي العلاء فاجتمع الناس إليه فقال لهم: "أيها الناس ألستم مسلمين؟ ألستم في سبيل ا ؟ ألستم أنصار ا ؟ "قالوا: "بلى" فقال الحضـرمي: "فأبشـروا فو ا لا يهزم ا من كان في مثل حالكم هيا إلـى صـلاة الصبح" ونادى المؤذن إلى صلاة الفجر فصلى الجيش فلمـا انتهوا من الصلاة جثا العلاء الحضرمي على ركبتيه وجثـا الناس ورفع يديه بالدعاء، ففعل الناس مثله ثم بدأ نور النهار في البزوغ ليكشف الكون ويبدد الظلمة والعتمـة. ونظـروا حولهم فوجدوا غديرا من الماء لم يلتفتوا إليه في ظلمة الليل، وكأنه فجر لهم بمنحة إلهية أو اكتشفوا بدعاء وابتهال إلى ا

فمشى الناس إلى الغدير يشربون ويغتسلون فوجـدوا الإبـل عائدة. كل الإبل التي هربت في الليل رجعت ولم يفقد الناس من أمتعتهم شيئًا. عادت الإبل بالسلاح والطعـام والشـراب والخيام جميعا فاستعد الجيش بعد هـذه المعجـزة الإلهيـة العظيمة إلى الحرب لكنهم لم يحاربوا كيف ذلـك ومعسـكر الأعداء كان موجودا طوال الليل على بعد أميال منهم يستعد لحرب طاحنة لا قبل لأحد بها؟ وكان جيش المسـلمين بـلا سلاح فكان من المكن أن ينقض المرتدون علـيهم ويفنـوهم لكن ذلك لم يحدث بل ولم يحارب المسلمين أساسا. ففي الليل التالي للاستعداد للحرب سمع العـلاء الحضـرمي أصـواتًا تنبعث من معسكرات المرتدين فبعث جواسيسه إلى المعسكر حتى يكشفوا لهم خبر المرتدين فرجع جواسـيس وموفـدين العلاء الحضرمي إليه فقالوا: "وجدناهم سكارى لا يعقلون من الشراب" من الواضح أن خبر فقدان المسلمين لإبلهم وزادهم وأسلحتهم قد وصل إلى المرتدين فشعروا بالعظمـة وأنهـم سينتصروا فشربوا حتى فقدوا قـدرتهم علـى الـتحكم فـي أنفسهم، فقاد علاء الحضرمي جيشه فـورا وقضـى علـيهم جميعا لكن هناك الكثير من جيش المرتدين فر وهرب مـن

هذه الموقعة إلى ساحل البحر وركبوا سفنًا إلى جـزر فـي البحر وما كاد العلاء الحضرمي يصل إلى مكان السفن حتى أصدر أمرا للجيش اتبعوني وقال: "يا أرحم الراحمين يا حكيم يا كريم يا أحد يا صمد يا حي يا قيوم" ثم دخل إلـى البحـر على الحصان وتبعه الجيش وكما تقول كتب التاريخ لم يغرق جيش العلاء الحضرمي فكان كأنه يمشي على مثل رمل فوق ماء وكان الماء لا يصل إلى ركب الخيل وإخفاف الإبل وكان بينه وبين الجزيرة التي قصدتها سفن جيش المرتـدين يـوم وليلة، سارها علاء الحضرمي بجيشه في البحر حتى وصل إليهم وانتصر عليهم وعاد بالأنعـام والأمـوال ولـم يفقـد المسلمون في البحر شيئًا سوى طوق فرس لأحد المسـلمين، فعاد علاء الحضرمي إلى البحر وسار مسافة ليست بالقصيرة داخله حتى وجد طوق الفرس فعاد به إلى البر ووزع الغنائم فكان نصيب الفارس ألفين والرجل ألفًا مـع كثـرة أعـداد الجيش. وكتب العلاء الحضرمي إلى أبي بكر الصديق أعلمه بما حدث. هذه الرواية التي قيلت عن شق جيش الحضـرمي للبحر إما صنعها خيال مؤمن أو إيمان الخيال أو أنها كانـت معجزة من معجزات عبد ربـاني. فهـي معجـزة موسـى

الإسلامية فالعلاء طلب من ربه سبحانه وتعالى فاستجاب له ا وتحول البحر إلى طريق معبد سار عليه الجـيش ومـن الممكن أن تكون طبيعة ذلك المكان الجغرافية تسـمح بـذلك لكن الروايات جميعها تجزم بتلـك الواقعـة والإيمـان بهـا وإدراك عظمتها لا يعني الإيمان بالمعجزات وإنما الإيمـان بالإيمان وأن هناك إرادة قـادرة علـى صـنع مـا يشـبع المعجزات. فعودة الإبل كانت استجابة للدعاء أما سير الجيش في البحر فمن الممكن أن يكون نتيجة طبيعية جغرافية للمكان مثل جسر طبيعي بين اليابس والجزيرة. وعندما تولى عمـر بن الخطاب الخلافة قرر توليـة العـلاء الحضـرمي أحـد الأمصار فرفض الحضرمي إلا أن عمر بـن الخطـاب ﵁ تمسك به وفي طريق ذهابه إلى تلـك البلـد مـات عـلاء الحضرمي. يقول أبو هريرة إنه رأى ثلاثة أشياء من العلاء الحضرمي تجعله يحبه أبدا: "أولها وجدته يسير على البحـر وكأنه قد صنع من تحت مائه رملاً ونبع من تحت رمله الماء فظهر من مائه الرمل. أما الواقعة الثانية فهي سقوط بعـض المتاع في البحر فرجع العلاء الحضرمي وأحضـرها. أمـا الثالثة فإنه لما مات الحضرمي كان أبو هريرة يرافقه وكانوا

على غير ماء - أي لا يوجد معهم ماء لغسله - فأرسل ا لنا سحابا فأمطرت فغسلناه وحفرنا له بسيوفنا ولم نلحد له - واللحد هو الحفر أفقيا حتى لا يهيلوا التراب على وجهـه - ودفناه ومضينا فقال رجل من أصحاب رسول ا دفناه ولـم نلحد له فرجعنا لنلحد له فلم نجد موضع قبره" وكانـت هـذه آخر كرامات العلاء الحضرمي.

الدهاة الأربعة

في صدر الإسلام كان هناك أربعة من دهـاة العـرب. والداهية هو الشخص شديد الشخص شديد الذكاء وهم عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبه ومعاوية بن أبي سفيان وزيـاد بن أبيه. هؤلاء الأربعة هم الدهاة الأربعة فعمرو بن العاص داهية بالبديهة بمعنى سرعة بديهته فهو قادر على الوصـول إلى رأي وقناعة وتصرف وسلوك ولفظه بسرعة عالية جدا. أما المغيرة بن شعبة فداهية في حل المعضلات أما زياد بـن أبيه فداهية في كل صغيرة وكبيرة. أما معاوية فداهيـة فـي الروية والصبر حتى القنص فهو يمثل حالة الصياد. الـرأي الذي لا شك فيه أنهم جميعا من الدهاة على اخـتلاف نـوع الدهاء. لكن الدهاة الثلاثة بن العاص وبن شعبة وبـن أبيـه يقودهم دهائهم إلى الداهية الرابع معاوية بـن أبـي سـفيان بحيث إنه في لحظة الصراع السياسـي الشـديد والـدموي الرهيب بين علي ومعاوية، استطاعوا أن يسيروا سيرهم إلى معاوية فانضموا للداهية الرابع وكان مطلبا بعيد المنال عليهم جميعا أن يطالب أي منهم بالخلافة في مواجهة علي بن أبي طالب. لم تكن لأحد منهم فرصة الوصول لإمارة المسـلمين

إلا معاوية بن أبي سفيان، فانضموا إليه لم يكن أحدهم واليـا على أي من الأمصار والولايات فيما عدا زياد بن أبيه الذي كان واليا على أقاليم في فارس وكان الجميع يخشى باسه لما عنده من المال والجند لكن زياد بن أبيه كان مغمور النسـب لأن أبي سفيان لم يعترف ببنوته رغم أنـه أبيـه الحقيقـي، فأطلق عليه زياد بن أبيه وفيما بعد اعترف معاوية بن أبـي سفيان بأن زياد أخوه وأنه ابن أبي سفيان وذلك فـي لعبـة السياسة والدهاء فكان هذا الاعتراف، لكنه حتى تلك اللحظـة كان لا زال زياد بن أبيه ولكن هذا لا يمنعنا من الاعتـراف بعظمة وقوة دور زياد بن أبيه ومن ثم لم يكن هـو الـوالي الوحيد ضد معاوية بن أبي سفيان لكن لأنه مغمـور النسـب وليس له مكانة معاوية في أهله فلم يكن يطمح للخلافة فـي وجود طامح آخر في مواجهة علي بن أبـي طالـب. كـان عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة من آحاد الرعيـة يـوم نشب النزاع على الخلافة بين عميد بني هاشم علي بن أبـي طالب وعميد بني أمية معاوية بن أبي سفيان ولم يكن لأيهما ـ لعمرو بن العاص أو للمغيرة بن شعبة ـ الجنـد والمـال والعصبة التي تنافس العصبية الهاشمية أو الأموية فماذا فعل

الداهية الأول عمرو بن العاص؟ ـ وتعبير الداهية لإجلالـه وتقديره وليس للطعن فيه فهو داهية بمعنـى شـديد ورائـع الذكاء ـ تردد عمرو بن العاص قليلاً قبل شد الرحال إلـى صراع علي ومعاوية وتساءل إلى أين أنتحي؟ وإلـى أيـن أذهب؟ وفي ظني أن هذه الحيرة كانـت حيـرة التصـرف وليست حيرة القرار بمعنى أنه كان مقررا أنه سيكون إلـى جانب معاوية بن أبي سفيان وكانت حيرته سببها هو كيـف يتصرف خاصة أنه استشار أبناءه فاختار له أحد ابنيه صف معاوية والآخر اختار صف علي بن أبي طالب كما استشـار عمرو بن العاص غلامه وخادمه وحارسـه الأمـين وردان الذي كان يشتهر بالدهاء فقال له وردان: "إن شئت أظهـرت لك نفسك، اعترضت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت مع علي الآخرة بلا دنيا ومع معاوية الدنيا بلا آخرة فأنت واقف بينهما "فقال عمرو بن العاص: "ما أخطأت ما في نفسي يـا وردان فماذا ترى؟" وهو ما يجعلنا نتذكر ما كان يجري من بعـض المسلمين في المعارك بين علي بن أبي طالب ومعاوية بـن أبي سفيان، حيث كانت هناك جماعة من المسلمين إذا نودي للصلاة ذهبوا للصلاة خلف علي بن أبي طالـب وإذا دعـي

بالنفير إلى الطعام جروا إلى معسكر معاوية بن أبي سـفيان، ومن هنا ظهرت المقولة الشهيرة التي صـارت مـثلاً فـي التاريخ وهي أن "الصلاة خلف علي أتقـى والطعـام عنـد معاوية أشهى" وهذا هو الصراع الذي كان يدور وقتها وهـو أيضا الصراع الذي كان يدور في نفس عمرو بـن العـاص وما زال يدور حتى هذه اللحظة في تاريخ البشرية رد وردان على عمرو بن العاص بقوله: "أرى أن تقيم في منزلك فـإذا ظهر أهل الدين - يقصد انتصر علي بـن أبـي طالـب - عشت في دينهم وإن ظهر أهل الدنيا - يقصد معاوية بن أبي سفيان - لم يستغنوا عنك" فقال عمرو بن العاص: "صـحيح ولكن الآن بعد أن علم العرب بمسيري إلى معاويـة أصـبح الأمر أصعب" بمعنى أنه في هذه اللحظة كان العـرب قـد وصل إلى ما معهم وأبنائهم أن عمرو بن العاص أظهر ميلاً وهوى إلى معاوية. بل ذهب إلى مقابلته وهو فـي الطريـق إليه ومن ثم إن عمرو بن العاص لا يرى في الوقوف علـى الحياد وقتئذ في انتظار نهاية المعركة أمرا سليما من حيـث الذكاء والفطنة والدهاء. قدم عمرو بن العاص على معاويـة فساومه على رضاه. اشترط عليه لكي يكون فـي فسـطاطه

ولم يقنع بأقل من ولاية مصر مدى الحياة كان بـن العـاص واليا على مصر وعزله عثمان بن عفان وولى عبد ا بـن سعد بن أبي سرح واشترط عمرو بن العاص ليقف بجانـب الطالبين بدم عثمان بن عفان أن يحصل على مصـر وإلـى الأبد. عندما ذهب عمرو بن العاص ليعقد هذه الصفقة مـع معاوية بن أبي سفيان، تلكأ الأخير ولم يستجب سريعا فدخل عليه عتبة بن أبي سفيان وقال له: "أما ترضـى أن تشـتري عمروا بمصر؟ إن صفت لك لا تغلب على الشام أبدا "فلمـا سمع معاوية قول عتبة أرسل إلى عمرو بن العاص وأعطاه مصر وكتب في أسفل الكتاب" ولا ينقض شرط طاعة" فكتب عمرو بن العاص" ولا تنقض طاعـة شـرط "وعلـى هـذا الأساس خرج عمرو بن العاص من صفقته مع معاوية بن أبي سفيان غالبا غير مغلوب. وكان عمرو بن العاص واضـحا جدا في هدفه. وكان معاوية يعي هذا جدا ووافق بعد ممانعة واستعصاء لكن في النهاية حدث الاتفاق على الشرط وهـو حكم عمرو بن العاص لمصر مقابـل طاعتـه، لدرجـة أن معاوية بن أبي سفيان ـ كما تحكي كتب التـاريخ ـ عقـد لعمرو بن العاص أربع ألوية عسكرية لواء له ولواء لكل من

واديه ولواء لغلامه وردان. في هذه المعركة كان عبد ا بن عمرو بن العاص من أنصار أن يعتزل أبـوه هـذه الفتنـة أو ينتمي إلى علي بن أبي طالب لكنه التزم أباه ويرجع ذلك إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له في أحـد مـرات المغاضبة مع أبيه "الزم أباك" فاعتبر عبد ا أن هـذا أمـرا نبويا يحق له أن يلتزم به مدى الحياة. ووقف عبـد ا بـن عمرو بن العاص مع أبيه عمرو بن العاص رغم أن هـواه الشخصي مع علي بن أبي طالب. لذلك تحكي كتب التـاريخ أنه عندما ذهب إلى المدينة ودخل إلى الجامع فلقي الحسـين بن علي فبكى وقال للناس أنه يخجل من مقابلة الحسين بـن علي فقال له الحسين: "إذا كنت تخجل من لقائي ومن قتل أبي والحرب ضده فلماذا حاربتنا؟" فحكى له عبد ا بن عمـرو بن العاص الحديث النبوي فسامحه الحسين بن علـي وكـان بينهما حوارات ومصاحبة لكن المفارقات أن عبـد ا بـن عمرو بن العاص والذي كان ضد الحرب على علي بن أبي طالب وكان من أنصاره لكن التزم والده كما أمره النبي عليه الصلاة والسلام هو الذي أصبح واليا على مصر بعـد وفـاة أبيه عمرو بن العاص. كانت الحيلة التي لجأ إليها عمرو بن

العاص واضحة وهي شرط حكم مصر مقابل الولاء والطاعة لدرجة أن المؤرخين المعاصرين يصفونها بأنها كانت لعبـا على المكشوف، فلم يكن هناك أي خفاء ولا اف ولا دوران. وكان عمرو بن العاص واضحا وهو يقول لمعاوية بن أبـي سفيان: "أترى أننا خالفنا عليا لفضل منا عليه؟ وا إن هـي إلا الدنيا نتكالب عليها وأيم ا لتقطعن لي قطعة من دنيـاك وإلا لنابذتك عليها". كانت المعاملة بين الـرجلين واضـحة تماما وكان حظ عمرو بن العاص في أولها أكبر مـن حـظ معاوية بن أبي سفيان الذي كان يمنح بن العاص حكم مصر وهو لا يملك شيئًا إلى الشام فضلاً عن أن عمرو بن العاص لم يفعل شيئًا بعد لكن عمرو بن العاص كان يعلـم يقينًـا أن الانتصار معناه حصوله على مصر وفـي المقابـل شـارك عمرو بن العاص ـ بأن لم يكن هو الذي أعلن ـ في وضع معاوية خليفة للمسلمين وأميرا للمؤمنين في مشـهد التحكـيم والمدهش أن عبد الرحمن بن عوف الذي كان أحد المرشحين الستة لتولي الخلافة بعد سيدنا عمر بن الخطاب والذي كـان ـ ابن عوف لا الخطاب ـ رئيسا لمجلس الشورى تقريبا هو الذي أعلن ولاية عثمان بن عفان وأعلن مبايعته ونفس القصة

تتكرر في التحكيم ما بين معاوية بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب حيث كان أبو موسى الأشعري مندوب علي بن أبي طالب رغم أنه لم يكن يريده لكن أصحاب علي وأشياعه فرضوه عليه وكان عمرو بن العاص مندوب معاوية بن أبي سفيان ذهبا المندوبان وتحكي لنا كتب التاريخ أنه عندما جلس عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري منفردان كان رأي أبو موسى الأشعري أن يخلعا الاثنين - علي ومعاوية - وأن يختارا شخصا آخر وكان الأشعري يفضل عبد ا بن عمر بن الخطاب أما عمرو بن العاص فكان يعرف من البداية ماذا يريد فإما أن يولي بن أبي سفيان أو يولي ابنه عبد ا بن عمرو بن العاص ورفض أبو موسى الأشعري أن يتولى عبد ا بن عمرو بن العاص الخلافة نظرا لتورطه الشديد في المعركة وكان ما كان في مشهد التحكيم من خروج أبو موسى الأشعري بناء على تقديم عمرو بن العاص له وإعلانه خلع علي بن أبي طالب فخرج عمرو بن العاص قائلاً أنه يثبت صاحبه معاوية بن أبي سفيان. هذه اللحظات فرقت كثيرا في تاريخ الأمة الإسلامية. هذا هو الداهية عمرو بن العاص. أما المغيرة بن شعبة فيمكنك وصفه بأنه

يستطيع بيع سمكًا في البحر ويشتري به سمكًا مطبوخًا شهيا فكان ذكيا في المعضلات. كان عمر بن الخطاب رضـي ا عنه قد عزل المغيرة بن شعبة عن ولاية الكوفـة لأن قومـا شاهدوه يضاجع امرأة غير امرأته وحدثت الواقعة الشـهيرة التي أقر فيها أربعة شهود أنهم شاهدوه يواقع امـرأة غيـر امرأته أي يلزم تطبيق حد الزنا عليه لكن المغيرة بن شـعبة قال إنه قد التبس الأمر على الناظرين لشبه بين المرأتين وأنه كان مع زوجته ولم يثبت التهمة لعدول أحد الشـهداء وهـو محمد بن أبي بكر عن الشهادة. وقال إنه يشك فيما رآه فجلد وأعفي المغيرة بن شعبة من التهمة لأنها لم تثبت عليه ثبوتًـا يوجب إقامة الحد، لكنها أيضا لم تسقط عنه سـقوطًا يزيـل الشبهة، فكان الأمر يستحق هذا القرار العمري بعزل المغيرة بن شعبة. وأبقاه عمر بن الخطاب ﵁ زمنًا بغير عمل علـى الإطلاق، كأنه يريد استتابته حتى قرر أن يعيده فدعاه إليـه وشدد عليه أن يتجنب الشبهات وولاه الكوفة مرة أخرى. فلما تولى عثمان بن عفان الخلافة عزله وعنـدما قتـل عثمـان وبويع لعلي الخلافة في المدينة ذهب إليه المغيرة بن شـعبة للتقرب إليه زلفى ونصحه أن يقر معاوية بن أبـي سـفيان

المطالب بدم عثمان بن عفان على ولاية الشـام ليـدين لـه بالولاء، وبعد أن تمر الأزمة يعزله متى شاء لكن الإمام علي بن أبي طالب رفض أن يقره على ذلك وكانت نصيحة بـن شعبة مليئة بالسياسة إذ كانت موهبة بن شعبة الرئيسية العمل بالسياسة فرجع المغيرة بن شعبة في اليوم التالي وقال لسيدنا علي بن أبي طالب: "أني كنت أشرف عليك بالـذي أشـرف وهو أن تبقي معاوية واليا على الشام فرفضت وخالفتني فيه ثم علمت أن الصواب فيما رأيت فاعزلهم ـ اعزل كل ولاة عثمان ـ واستعمل مما تثق بهم فإنهم أهون شوكة مما كـان "وكأن نصيحة بن شعبة معناها إذا كنت قد قررت أن تخسر أحدا فاخسر الجميع وعاد المغيرة بن شعبة إلى عزلته بعـد هذه النصيحة التي ربما ساهمت في قسمة الأمـة. وبعـد أن انتهت الأمور إلى أن ولى عمرو بن العاص تقريبا معاويـة بن أبي سفيان الخلافة وأبقاه على الإمارة في مواجهة علـي بن أبي طالب. الذي خلعه مندوبه أبو موسى الأشعري قـرر المغيرة بن شعبة بعد رجحان كفة معاوية بن أبـي سـفيان أن يذهب إلى الشام، وينتمي لحزب معاوية، فولاه إمرة الحج بعد انفراده بالدولة. وكان المغيرة بن شعبة ينظر إلى ولايته

الأولى للكوفة كما نظر عمرو بن العاص إلى ولايته الأولـى لمصر بمعنى أن ولاية الكوفة كانت مهمة وعزيزة وقريبـة وتمثل طموحا دائما وحلما مراودا للمغيرة بن شـعبة مثلـما كانت مصر لعمرو بن العاص. فلما أراد معاويـة أن يعهـد بولاية الكوفة وقد أصبح أميرا للمؤمنين وخليفـة للمسـلمين قرر أن يعطيها لعبد ا بن عمرو بن العـاص وهـو مـن الأتقياء الأنقياء في التاريخ الإسلامي فقرر المغيرة بن شعبة أن يعمل ذكائه وأن يخوض في الأمر بكل ما يملك من فطنة وسياسة وحلم وطموح لولاية الكوفة فذهب إلى معاوية بـن أبي سفيان وقال له: "أتستعمل عبد ا بن عمرو بن العـاص على الكوفة، ووالده على مصر أنك بين نابي الأسد" فاستمع له معاوية وعزل عبد ا بن عمرو بن العاص وولى المغيرة بن شعبة مكانه على الكوفة فسمع عمرو بن العـاص بهـذا الخبر وتلك المكيدة فردها بمثلها فلم يطلب إعادة ابنه عبد ا إلى ولاية الكوفة وإنما قنع بحرمـان المغيـرة مـن ولايـة الخراج. أخذ منه وزارة المالية والقدرة على جمع الأمـوال فقال لأمير المؤمنين والخليفة الجديد معاوية بن أبي سـفيان: "أنك تستعمل المغيرة على الخـراج فيأخـذه ولا تسـتطيع

أن تنتزعه منه، أرى أن تولي على الخراج رجـلاً يخافـك ولا يبالي بأحد إلا بك وتؤمر المغيرة بن شعبة على الصـلاة والإمارة فلا يقوى عليك بغير مال "فكانت الاسـتجابة مـن معاوية واتبع مشورته غير كال فالمشورة لم تكسبه السيطرة الكاملة على أموال الكوفة فحسب وإنما أربحته عداء وتنافس المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص أيضا. وهو لا يسـتطيع أن يأمن أن يتحالف الاثنان عليه فاستقر الأمر لمعاوية وهان عليه خطب المغيرة فقرر عزله وعندما وصل الخبـر إلـى المغيرة من عيونه حول معاوية. فوراء كل رجـل سياسـي ذكي رجل يجلب له المعلومات مـن العيـون والجواسـيس أو الأصدقاء ذوي النفوذ والأمر. وصل المغيرة بـن شـعبة أن معاوية بن أبي سفيان قرر عزله بعد أن أخذ منه ولايـة الخراج فأصبح أسدا بلا أنياب تسهل الإطاحـة بـه. وكـان معاوية يريد أن يطيح بالذين ساندوه في هذه الولايـة وهـذا العرش حتى يظل له ولم يكن يستطيع عـزل عمـرو بـن العاص لأن بينهما عقد مكتوب وشرط الطاعة معلق بولايـة مصر فقرر البدء بعزل المغيرة بن شعبة فأشـفق المغيـرة من مذلة العزل فآثر أن يذهب إلى معاوية بن أبـي سـفيان

أن يحتال حيلته قرر أن يعمل في حل المعضلات كيف يجبر معاوية على استبقائه؟ ذهب المغيرة بن شعبة إلـى دمشـق عاصمة الخلافة الإسلامية وقتئذ ولكنه لم يلتق بمعاوية وإنما التقى بابنه يزيد الأمير المرفه، ابن الخليفة الذي لم يشـتهر بعلم أو تقوى ولا بأي شيء سوى أنه اشتهر فيما بعد بأنـه أميرا للمؤمنين. التقى المغيرة بن شعبة بيزيد بـن معاويـة ووسوس إليه أن يطلب إلى أبيه تسميته لولاية العهـد وبـدأ المغيرة في دق المسمار في النعش. بدأت فكرة ولاية العهـد وتحويل الخلافة الإسلامية إلى ملك عضود وإلى ملك يورث ابنه، وتحول الأمة الإسلامية من الخلافة إلى المملكـة مـن شخص أراد أن يظل واليا في مكانه. رجل ذكي قـرر أنـه لا خير من بيع الأمة كلها مقابل أن يظل في مكانـه عنـدما زين المغيرة بن شعبة الأمر إلى يزيد بن معاوية كـان لـه مقاصد كثيرة ولم يكن يتصور أن الاستجابة ستكون فوريـة قال بن شعبة إلى زيد بن معاوية: "أن أصحاب النبي وكبراء قريش قد ذهبوا وبقي الأبناء وأنت أفضلهم فلا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة "فلمعت المسـألة وبرقـت في عين زيد وقال له: "أترى ذلك ممكنًا؟" فقال المغيرة بـن

شعبة: "نعم". ما حدث بعد ذلك طبيعي ومنطقي وهو أن دخل يزيد على أبيه معاوية بن أبي سفيان وأخبره بمقالة المغيـرة فأرسل معاوية في طلب المغيرة من فوره ليناقشه في حقيقـة الخبر والعرض الذي قدمه إلى يزيد فقال له: "ما هذا الـذي تقوله ليزيد؟" فقال المغيرة: "أني يا أمير المؤمنين قد رأيت ما رأيت من سفك الدماء بعد عثمان ويزيد منك فأحضره وأعقد له البيعة فلا تكون فتنة "فقال معاوية": ومن لي بهذا؟" فقـال بن شعبة: "أكفيك أنا أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصـرة وليس بين هذين المصرين أحدا يخالفك "لمعت الفكـرة فـي ذهن معاوية فأمره أن يرجع إلى الكوفة وأن يتحدث مع ثقاته في ذلك. ويرجع تحديد بن شـعبة للبصـرة والكوفـة إلـى اعتبارين الأول أن العراق كان هواها منذ اللحظة الأولى مع علي بن أبي طالب وكانت تنتصر له، صحيح أنها خذلته هذا الخذلان الكبير لكن ظلت هذه المشاعر والقناعات لدى أهـل العراق. لذا كان تركيز المغيرة بـن شـعبة علـى هـذين المصرين باعتبارهما بؤر الخطر وهكذا ربح المغيـرة ولـم يخسر وكما يقولون باع السمك في البحر فإذا أعرض معاوية عن عقد البيعة لابنه - وهو أمر مبتعد - فيكون المكسب أنه

فرق بين معاوية وابنه يزيد الذي سينتقم عليه ويغضب منـه وفي هذه الحالة يتحقق انتقام المغيرة من معاوية بـن أبـي سفيان بأن يوغل صدر ابنه يزيد عليه، وإذا وافـق معاويـة على الفكرة وبرقت أمام عينه ولمعت سيكون المكسـب أنـه صاحب الفكرة وأنه الذي سيتولى التخطيط. أما المشهد الجلل في التاريخ الإسلامي فكان عندما جمع معاوية بن أبي سفيان أمرائه ورجاله ليستفتهم في عقد البيعة لابنه يزيـد باعتبـار أن ما يفعله سيكفي الأمة الإسلامية الحرب وسـفك الـدماء، وكان لمعاوية بن أبي سفيان نظرية في الملك هي أن سـيدنا عمر بن الخطاب أخطأ عندما رشح ستة إلى الخلافة فأصبح هناك أكثر من شخص يطمح إلى الخلافة، ومن ثم كان يرى أن هذه النقطة هي التي أسقطت هيبة دم المسـلمين وأن أي شخص يمكن أن يطمح في المنصب فيحدث بينهما سفك دماء وكانت هذه النظرية لتبرير توريث معاوية للعرش بعـده لأن حقيقة الأمر أنه لو كان عثمان بن عفان سار سيرا آخر لمـا كان من الفتنة عندما جمع معاوية الأمراء ليطرح فكرة ولاية العرش كان المغيرة بن شعبة هو الذي نادى وطالب بتعيـين يزيد بن معاوية وعقد البيعة له وهذا هـو الداهيـة الثالثـة

أما الداهية الرابع فكان زياد بن أبيه الذي كان صعبا عنيـدا رغم أنه أخ لمعاوية بن أبي سفيان وكـان معاويـة يتمنـى مبايعة زياد له فرغم أنه أخوه إلا أنه كان منـزوع النسـب ومرفوض انتمائه إلى آل سفيان وكان ذلك جزءا من اعتمال الغضب داخله على معاوية وعلى رغبته في انتزاع الخلافـة من سيدنا علي بن أبي طالب وكان في تقدير معاوية بن أبي سفيان أن يكون زياد أول من يبايعه لأنه شرعيا لأبي سفيان لكن علي بن أبي طالب ولى زياد بن أبيه على فارس فأرسل إليه معاوية يتوعده فقام زياد في الناس خطيبا وأغلظ القـول والجواب ورد الوعيد بمثله على مسمع من أعوان معاوية بن أبي سفيان ورؤوس أتباعه فقال: "العجب كل العجاب من ابن أكلة الأكباد والمقصود هند آكلة كبد حمزة بن عبد المطلـب عم النبي بعد أن قتله وحشي في معركة أحد ـ ورأس النفاق يخوفني ويقف بيني وبين ابن عم رسول ا وإمام المهاجرين والأنصار ألا وا لو أذن لي في لقـاءه لوجـدني ضـرابا بالسيف "تنم الخطبة عـن مشـاعر الأخ الغاضـب لعـدم الاعتراف به من الأسرة فأخذ زياد يعاير معاوية بأمه بالرغم من أنها أسلمت وأسلم الجميع والمعروف أن الإسلام يجب ما

قبله. لكن المسألة وصلت إلى ذلك الحد مـن الحـدة فكتـب معاوية إلى زياد يلين له القول ويرجوه فقال: "إلى زياد بـن أبي سفيان ـ وهو الاعتراف بنسب زياد إلى أبي سفيان الذي يتمناه ـ وكأنك لست أخي وليس صخر بن حرب أباك وأبي وشتان ما بيني وبينك. أطالب بدم عثمان بن عفـان وأنـت تقاتلني ـ من الواضح سيطرة حالة الرغبة في استمالة زياد بن أبيه على الخطاب لأنه يعرف ما يمكن أن يفعله زيـاد ـ لو خضت البحر في طاعة القوم ـ يقصد قوم علي بن أبـي طالب ـ فتضرب بالسيف حتى ينقطع متنـه ـ أي ينكسـر سيفك من كثرة الضرب ـ لما ازددت منهم إلا بعدا فـارجع رحمك ا إلى أصلك واتصل بقومك ولا تكن كالموصـول يطير بريش غيره فقد أصبحت ضال النسـب فـإن أحببـت جانبي ووثقت بي فأتمر بأمري وإن لم تثق بقولي ففعل جميل لا لي ولا لعلي" كان هذا هو كل ما يطلبه معاوية من زيـاد بن أبيه الداهية في كل صـغيرة وكبيـرة. أخـذ يقـدم لـه الإغراءات والمبررات ليستميله إلى جانبه أو ليحيده" ففعـل جميل لا لي ولا لعلي "لكن معاوية بن أبي سفيان ظل قلقًا من زياد حتى مقتل سيدنا علي بن أبي طالب، ولم يـأمن مكـره

وجرأته حتى توسط بينهما المغيرة بن شعبة ليشـتد سـاعد المغيرة بتحالفه مع زياد بن أبيه في مواجهـة عمـرو بـن العاص. وأخيرا استجاب زياد للمغيرة في أمر البيعة لمعاوية وبعد ذلك كان موقف زياد بن أبي سفيان واضحا في الانتقال من مناصرة سيدنا علي بن أبي طالب وتأييـده إلـى بيعـة معاوية وبذلك أصبح آخر من بايع وبوساطة من المغيرة بن شعبة. لكن عندما بدأ الكلام يتردد عن عقد البيعة ليزيد بـن معاوية بن أبي سفيان كان زياد حادا في رفضه إلا أنه توفي قبل إتمام هذا الأمر وإعلان مبايعة يزيـد ملكـا أو خليفـة أو حاكما للمسلمين وهو ما يدهشك في تاريخنا المعاصر لأنه حتى إذا عاش زياد بن أبيه كان من الممكن ألا تسير الأمور كما سارت لأن زياد بن أبيه على ذكائه وقدرته العقلية كـان حاد اللفظ. وفي مواجهة ولاية العهد ليزيد بن معاوية فهـل تظن أن هذا الصراع هو صراع مجهـول النسـب الغيـر معترف به في مواجهة الذين اسـتأثروا بالأسـرة والسـلطة وأصبح شأنهم عظيما عاليا؟ احتمال وارد.

عبد ا   بن مسعود... صوت الإسلام

كلنا نعرف عبد ا   بن مسعود أول من جهر بالقرآن في التاريخ الإسلامي. في مكة تحديدا حيث منبت النبوة ومبعث الرسالة قال الرسول ﷺ "ما سمعت قريش هذا القرآن يجهـر لها به قط فمن رجل يسمعهم؟ أي أن الرسول ﷺ قـرر فـي لحظة ما أن قريش عليها أن تسمع وتستمع كرسـالة هدايـة ورؤية تحدي وعلاج بالصدمة. عندما تسمع قريش القـرآن عاليا صادحا بصوت أحد المسلمين فقال عبد ا   بن مسـعود "أنا" كانت هناك حالة خثينة عامة مـن جمـوع المسـلمين والصحابة الموجودين على عبد ا   بن مسعود. لأنه فضـلاً عن أن جسمه ضئيل للغاية لم يكـن لـه حسـب أو نسـب أو عشيرة تحميه أو تنقذه مما يمكن أن يفعله المشركون مـن قريش وقتها. فرد عبد ا   بن مسعود عليهم "إن ا   سـامع" وفعلاً ذهب عبد ا   بن مسعود في اليوم التالي إلى قلب أندية قريش في مكة في قلب الكعبة وأمام الجميع وعلـى رءوس الأشهاد ورفع صوته بالقرآن وقرأ "بسم ا   الرحمن الرحيم" وانطلق نداء الحق وصوت الإسلام وصوت القرآن لأول مرة عاليا خفاقًا في سماء مكة. هذه اللحظة يمكـن أن نعتبرهـا

مفتاح شخصية عبد ا بن مسعود فهذا الرجل الذي يتحـدى بالحق صاف وقوة قريش هو نفسه كان لصيق الصلة بالنبي عليه الصلاة والسلام فكان يخدمه إلى درجـة أن روايـات التاريخ تحكي أنه كان يرد عليه - أي يدخل عليـه فـي أي وقت. ويلبسه نعليه ويمشي معه وأمامه. كرفيـق وحـرس ويستره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام وكان يعرف بين الصحابة بصاحب السواد والسواك لأنه كان يحتفظ بسواك النبي أيضا وتذكر الروايات أنه في إحدى المرات تسلق عبـد ا بـن مسعود شجرة ليأتي للرسول ﷺ بشيء منها - رغم أنه لـم يكن متسلقًا للنخل - فنظر أصحاب النبي إلى ساق عبـد ا بن مسعود فضحكوا من دقة ونحافة ساقيه، فسأل الرسول ﷺ لم تضحكون. فقالوا لمنظر رجل عبد ا مسعود فقال النبـي مقولته العظيمة في حق عبد ا بن مسعود أن رجل عبد ا بن مسعود أثقل في الميزان يوم القيامة من جبل أحد. ومـن أهم ما فعله عبد ا بن مسعود هو شهوده جميـع معـارك وغزوات النبي عليه الصلاة والسلام. ليس هذا فقط وحتـى بعد وفاة النبي شهد جميع المعارك فلم يكن هنـاك موضـع ليقاتل. رغم نحافة جسده وضآلة عوده ودقة أعضائه. فيه إلا

وشهده مثلاً شهد عبد ا بن مسعود موقعة اليرموك بالشـام وكان فيها مسئولاً عن الأنفال" أي توزيع الغنائم "ويعني هذا أنه أصبح من حراس بيت المال.. وزيرا للماليـة..مسـئولاً للخراج.. مسئولاً للأنفال.. أمينًا على عمال المسلمين حيـث سير سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ عبد ا بن مسـعود إلـى الكوفة وكتب إلى أهل الكوفة "أني بايعت عمار بـن ياسـر أميرا وعبد ا بن مسعود معلما ووزيرا وهما من النجبـاء من أصحاب رسول ا ﷺ ومن أهل بدر. وتبتـدئ مواقـف عبد ا بن مسعود بوضوح عام ٣٥ هجرية وكان وقتها قـد مرت سنوات على خلافة عثمان وظهر نوع من الاسـتنكار لأمور قام بها عثمان بن عفان حيث أنكر صاحبة كثيـرون منهم عمار بن ياسر وحتى عبد الرحمن بن عوف الذي عينه واختاره والسيدة عائشة رضي ا عنها على عثمان بن عفان كثيرا مما فعل وأشياء أنكروها مما فعلها أمراؤه وولاته، لكن أهم ما حدث في تاريخ عثمان بن عفان مـع عبـد ا بـن مسعود كان عنده عودة عبد ا بن مسعود من الكوفة. فعندما تولى عثمان بن عفان الخلافة كان عبد ا بن مسعود مسئولاً عن الخراج في الكوفة وكان عثمان بن عفان قد أبقى علـى

الولاة الذين كانوا قد عينهم عمر بن الخطاب في مناصـبهم لمدة عام ثم عزلهم وعين آخرين بدلاً منهم ومنهم عمار بـن ياسر الذي كان واليا على الكوفة فعزله عثمان ثم ولى الكوفة كلها لعبد ا بن مسعود ثم ولى الوليد بن عتبة إمارة الكوفة على أن يظل عبد ا بن مسعود مسئولاً عن الخراج. عندما ولى عثمان بن عفان الوليد بن عتبة. وهو أحد أقارب عثمان وثقاته ـ على الكوفة لم يتحمل عبد ا بن مسـعود عبـث الوليد بن عتبة بأموال المسلمين كما لم يحتمل الوليد بن عتبة أن يظل عبد ا بن مسعود حجر عثرة في طريقـه، فكتـب لعثمان بن عفان أن عبد ا بن مسعود يعيبه ويطعن عليـه فكتب إليه عثمان بن عفان أن يرسله إلى المدينة. لاحـظ أن عثمان بن عفان الذي عزل كثيرا من الصحابة الذين كان قد عينهم عمر بن الخطاب مثل عمار بن ياسر كما نفى أبـا ذر الغفاري الصحابي الجليل وأرسل في طلـب عبـد ا بـن مسعود من الكوفة ليحاسبه على ما قاله الوليـد بـن عتبـة. وفي المقابل قال أهل الكوفة لعبـد ا بـن مسـعود "أقـم ولا تخرج ونحن نمنعك أن يصل إليك شرا تكرهـه" هنـاك قضيتان في استدعاء عثمان بن عفان لعبد ا بن مسـعود:

الأولى أن السبب فيها كتاب الوليد بن عتبة إلى عثمان بـن عفان لعبد ا بن مسعود: الأولى إن السبب فيها كتاب الوليد بن عتبة إلى عثمان بن عفان. والرواية الثانية تقول إن سبب الاستدعاء كان قرار عثمان بن عفان بتوحيد المصاحف فأمر بجمع المصاحف كلها من الآفاق وسلقها بالماء الحار والخل حتى تنفى تماما ويصبح هناك مصحف واحد هو مصـحف عثمان بن عفان إلا أن عبد ا بن مسعود امتنع عن تسـليم مصحفه إليه وقال "إن الرسول ﷺ أقره وقال مـن أحـب أن يقرأ القرآن غضا طريا كما أنزل فليقرأ على قراءة ابـن أم عبد وحين بلغ عبد ا بـن مسـعود أمـر عثمـان بجمـع المصاحف قال "أيأمرني أن أقرأ القرآن على قراءة زيد بـن ثابت. وحيث وحد القرآن على قراءة زيد بن ثابت. والـذي نفسي بيده لقد أخذت من فم الرسول ﷺ ٧٠ سورة أحكمتهـا قبل أن يسلم زيد". توبة عبد ا بن مسـعود إلـى المدينـة للمثول بين يدي عثمان بن عفان وفي ذهنه أن عثمـان بـن عفان يريد شيئًا من اثنين.. إما مواجهته بالوليد بـن عتبـة ليقول له أنت قلت على كذا وكذا وفي هذه الحالة قرر عبـد ا بن مسعود مواجهته بأخطاء الوليد بـن عتبـة وإسـرافه

وعبثه ببيت المال، وكان ذلك سينتهي برفض عبـد ا بـن مسعود الاستمرار على بيت المال وأن يلقي بمفـاتيح بيـت المال قائلاً: "من غير ما ألزمنا به ا فما بنا حاجة". وكـان عبد ا بن مسعود يتوقع حدوث ما حدث من إسراف الوليـد بن عتبة لأن عثمان بن عفان عزل عمار بـن ياسـر عـن الكوفة ثم عزل سعد بن أبي وقاص وولى الوليد بن عتبة بعد اثنين من الفطاحل في التاريخ الإسلامي وفي نفس الوقت كان عبد ا بن مسعود مسئولاً ببيت المال بالكوفة. فالأمر الثاني الذي كان يدور في ذهن عبد ا بن مسعود هو أن عثمان بن عفان سوف يطلب منه الانصياع إلى أمر الخليفـة بتسـليم مصحفه وكان قرار عبد ا بن مسعود في هذا الشأن أنه لن يأخذ بقراءة زيد بن ثابت مهما حدث. دخـل عبـد ا بـن مسعود الجامع فلقي عثمان بن عفان مشغولاً بخطبته فقطـع عثمان بن عفان خطبته وقال "إنه قدمت عليكم دابة سـوء". طبعا كلمة قاسية جدا واستقبال مريع في قسوته مـن جانـب عثمان بن عفان لعبد ا بن مسعود. فرد عليه عبد ا بـن مسعود "أنا لست كذلك ولكني صاحب رسول ا يـوم بـدر ورضوان" المدهش أن عثمان بن عفان محمل بأن عبد ا بن

مسعود يرفضه ويهـاجم سياسـته ويـرفض فكـرة جمـع المصاحف وتسليم مصحفه ولهذا عندما دخل عليه عبد ا بن مسعود خرج عن شعوره وهاجمه وكـان رد عبـد ا بـن مسعود قويا وربما أجزع عثمان بن عفان لأنه يقـف بـين الناس وفي خطبته بين المسلمين وهو أمير المؤمنين فأمر به عثمان فقام إليه خدم وموالي عثمان فحيز برجلـه فكسـروا ضلعين من ضلوع عبد ا بن مسعود ورجله لدرجـة أنـه عندما سمعت السيدة عائشة رضي ا عنها ـ من موقعهـا داخل المسجد ـ ما فعله عثمان انزعجت وقال "أي عثمـان" أتقول هذا لصحاب رسول ا يوم بدر؟" هذا الإخراج العنيف لعبد ا بن مسعود وأن يضربه غلام عثمان داخل المسـجد كان مذهلاً عند الصحابة والمسلمين وكيف أن صاحب رسول ا يضرب صاحب رسول ا وأنه كيف هذا الرجل الـذي نال من الضرب والعنف ما ناله من المشركين والكفار جزاء جهره بالقرآن فإذا بالمسلمين في عصر عثمان بـن عفـان يفعلوا به ما هو أكثر مرارة حتى أن تكسر رجله حتـى أن سيدنا علي بن أبي طالب قال "أتفعل هذا بصاحب رسول ا لقول الوليد بن عتبة" ثم احتوى سيدنا علـي عبـد ا بـن

مسعود وأخذه إلى بيته ويقال إنه انقسمت الناس داخل المسجد بين مؤيد لعثمان ورافض له وقتها لما فعلـه بعبـد ا بـن مسعود فضرب الرافضين بالنعال داخل المسجد وحـدث أول قتال أهلي بين المسلمين في عصر عثمان بن عفـان وكـان بالنعال نتيجة ما فعله عثمان بن عفان بعبد ا بن مسـعود. واستمرت الخلافات بينهما حتى وفاة بن مسعود لدرجـة أن عثمان بن عفان عندما رجع إلى صوابه نتيجة تداخلات مـن الصحابة ومراجعة عثمان الأمر حاول استرضاء عبد ا بن مسعود وذهب ليزوره في مرضه الأخير ليمنحه العطاء الذي كان قد منعه عنه فرفض عبد ا بن مسعود مقابلته ورفض أخذ العطاء وقال له "منعته وأنا محتاج إليه وتعطيني إياه وأنا غني عنه لا حاجة لي به" فأرسل له عثمان "ليكون لبناتك من بعدك. فرد عليه بن مسعود "أتخشى على بناتي الفقر.. أنـي أمرت بناتي أن يقرأن في كل ليلة سورة الواقعة وأني سمعت رسول ا ﷺ يقول من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصـبه فاقة أبدا" وتقول روايات أخرى أن عثمان بن عفان ذهب إلى عبد ا بن مسعود فعلاً وطلب منه أن يسأل ا المغفرة لـه فكان جواب بن مسعود "أسأل ا أن يأخذ لي منـك بحقـي"

وقيل إنه دفن دون أن يعلم عثمان ودون أن يحضر جنازتـه وأن الذين حضروا جنازته كانوا مجموعة من الصحابة بينهم علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر. وهناك رواية يحكيهـا عبد ا بن مسعود نستطيع أن نلخص بها حياته يقـول بـن مسعود "قمت في جوف الليل وأنا مع رسول ا ﷺ في غزوة تبوك فرأيت شعلة من النار فأتبعتها أنظر إليها فإذا رسـول ا وأبو بكر وعمر وإذا عبـد ا ذو البيجـادين ـ دليـل الرسول في الصحراء ـ قد مات بينما رسول ا وأبو بكـر وعمر واقفون وإذا هم قد حفروا له حفرة ورسول ا ﷺ في الحفرة وأبو بكر وعمر يدليانه إليه ويقول أدينا إلى أخاكمـا فدلياه إلي فلما هيأه للحده قال عليه الصلاة والسلام اللهم أني أمسيت عنه راضيا فأرضى عنه" فيقول عبد ا بن مسـعود "فيا ليتني كنت صاحب هذا القبر".

الحسن بن علي ـ سيد شباب الجنة

كان الحسن بن علي أول من أسرع إلى دار عثمان بـن عفان ليزود عنه وكان الحسن والحسين من حراس عثمان بن عفان أمام أفواج الثورة ضده ـ محبة النبي عليـه الصـلاة والسلام للحسن والحسين لا إضافة لدينا عليه فهو حب وارف جارف، حب نبوي وبشري من جد لحفيديـه. حـب عظـيم ورائع ومذكور في كل كتب التـاريخ ومعلـوم بالضـرورة ونردده دائما يقينًا وصدقًا حبا ومحبة خاصـة إذا عرفنـا أن السيدة فاطمة بنت محمد عليه الصلاة والسلام هي أقرب أهل الأرض شبها بنبينا الكريم وأبيها العظيم عليه الصلاة والسلام وعندما نعلم حب النبي لفاطمة وعلي فمن باب أولى أن نعلم حب النبي للحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة كما قـال النبي عليه الصلاة والسلام عنهما. لكن كان لكل منهمـا ـ ـ الحسن والحسين ـ منهج مختلف كانا الاثنين رفعـة فـوق رفعة ونبلاً فوق نبل وعظمة فوق عظمة. إنمـا يمثـل كـل منهما نظرة مختلفة للحياة مـن مـوقعين مختلفـين ورؤى مختلفة، وكل كلمة اختلاف سـابقة هـي لإظهـار العظمـة والفضل فليس بالضرورة أن يكون هناك توحد فـي الـرأي

والمنهج والقرار. أتوقف بداية عند الحسـن بـن علـي ﷺ.
عندما كان الخليفة عثمان بن عفان محاصرا كان الحسن أول من يذهب لحراسته وكان عدد حراس عثمان بن عفان أقـل من ١٠ في مواجهة ٧٠٠ يحاصرونه فضلاً عن التجمعـات التالية لهم فكان من الطبيعي والمنطقي - وليس التـآمري - أن ينجح السبعمائة بفوضاهم وصخبهم وكل ما كانوا يملكونه من حمية الغضب خاصة بعد أن عرفوا أن عثمـان ينـوي قتلهم. كان مشروعا في لحظة الغضب والثـورة ألا يفكـر الناس بعقولهم. ليس مشروعا بمعنى الموافقة على ذلك ولكن بمعنى إقرار واقع الحال، خاصة إذا عرفنا أن مـن ضـمن الذين حاصروا عثمان بن عفان كان هناك صـحابي عظـيم هو طلحة الخير أحد المبشرين بالجنة وأحد المرشحين الستة مع عثمان بن عفان لخلافة المسلمين أيضا من ضمن الـذين حاصروا عثمان بن عفان. كان محمد بن أبي بكر الصـديق وكان من الزعامات التي حاصرت عثمان بن عفان وقـادت الثورة ضده ثم انضم إلى صفوف علي بن أبي طالب بينمـا كان عبد ا بن عمر بن الخطاب لزم الحياد بينما انضم أخوه عبيد ا بن عمر بن الخطاب إلى صـفوف معاويـة. قتـل

الخليفة رغما عن كل حراسه حيث تسور الثـائرون عليـه الجدار واشتبكوا مع أهل عثمان بن عفـان وانتهـى الأمـر بمقتله. بعد مقتل عثمان كان هناك رأي بمبايعة علي بن أبي طالب والمدهش أن كتب التاريخ لا تذكر أي شي عـن آراء ومواقف واتجاهات كل من الحسين والحسن حتى هذا اليـوم المشئوم الذي حوصر فيه عثمان بن عفان فيبدأ التاريخ ينتبه لكل شاردة وواردة تصدر منهما. ويبدأ التاريخ يحكي ويروي موقف الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة مـن مجمـل وجملة الأحداث التي جرت في ذلك الوقت. أول ما تذكره لنا كتب التاريخ هو أن سيدنا علي بن أبي طالب كان معروضا عليه البيعة فماذا كان رأي الحسن الابن البكر لسيدنا علي بن أبي طالب؟ كان الحسن يرى ألا يشترك أبوه في شيء مـن أمر الفتنة من قريب أو بعيد بل أشار عليه أن يعتزل النـاس وأن يترك المدينة ويقيم في مكان بعيد عنها، فلا يسـمع بـه أحد ولا يشارك في أمر من أمور اختلاطت وتشابكت حتـى لم يعد لأحد القدرة على معرفة أين هو صواب الحركة؟ وأين هو خطأ القرار؟ لكن سيدنا علي بن أبي طالب لـم يسـمع له وإنما رأى أن مكانه في المدينة المنورة حيـث يسـتطيع

أن يأمر بمعروف أو ينهي عن منكر أو يصلح بين النـاس. وكانت رؤية سيدنا علي بن أبي طالب أنه لا يمكن الوقـوف على الحياد حيث لا حياد بين المنكر والمعـروف ولا حيـاد بين الحق والباطل. كان سيدنا علي بن أبي طالب بكل ما له من عظمة ولكل ما لديه من حكمة ولأسباب هائلة في الـدين والتاريخ يشعر أنه يعرف عن حق ما هو الحـق. فهـو إذن غير مطالب بالاعتزال لأن الرؤية واضحة بالنسبة له. عندما قتل عثمان بن عفان لم ير الحسن لأبيه أن يقيم في المدينـة ولا أن يتعرض للبيعة ولا أن يقبل البيعة إن عرضت عليـه وإن كان الأمر بيد الحسن بن علي لاعتزل الفتنة اعتزالاً كما فعلت طائفة من أصحاب النبي عليه الصلاة والسـلام لكـن الحسن كان يعرف ويدرك ما لأبيه من حق عليه فأقام معـه وشهد مشاهده كلها وهو على غير حب ورغبـة منـه فـي الدخول في هذا الصراع ثم عندما حدثت تطورات المعـارك والحروب كان رأي الحسن ألا يخرج سيدنا علي بـن أبـي طالب من المدينة وألا يقبل بالبيعة فلما قبل سيدنا علي بـن أبي طالب بالبيعة ولزم عليه الخروج من المدينة، كـان رأي سيدنا الحسن أن يبقى أبوه بالمدينة المنورة بجوار النبي عليه

الصلاة والسلام وألا يرحل إلى العراق فقد كان يكره لأبيـه أن يذهب إلى دار غربة ويتعرض لأبيه غريبـا وألا يـدخل في المعارك، والتي بدأت بمعركة ضد طلحة والسيدة عائشة والزبير رضي ا عنهم جميعا لكن في كل تلك المشاهد كان علي بن أبي طالب يعصى ابنه في كل ما كان يشـير عليـه به لدرجة أن الحسن بكى ذات يوم حينما رأى ركاب أبيه تؤم العراق فقال له أبوه: "إنك لتحن حنين الجارية" ولـم يفـارق الحسن حزنه على عثمان. روى بعض الرواة أن سيدنا علي بن أبي طالب مر بابنه الحسن وهو يتوضأ فقال له: "أسـبغ الوضوء" فرد عليه الحسن بهذه الكلمة المـرة: "لقـد قتلـوا بالأمس رجلاً كان يحسن الوضوء" وكان يقصد عثمان بـن عفان فلم يرد عليه سيدنا علي إلا أن قال له: "لقد أطـال ا حزنك على عثمان" وقد شهد الحسن مع والده علي بن أبـي طالب مشاهده في البصرة وصفين النهراوان لكـن المؤكـد والاعتقاد الراسخ لدى كثيـر مـن المـؤرخين أن الحسـن والحسين شهدا مع أبيهما هذه الحروب دون أن يشاركا فيهـا بل إن عليا بن أبي طالب كان يضن بهما على الخطر، مخافة أن يصيبهما شر فتنقطع ذرية النبي عليه الصلاة والسـلام،

وكان المسلمون مدركين لهذا وكانوا يعرفون قيمـة الحسـن والحسين وكانوا دائما ما يتبارون في إبعادهم عـن سـاحات الوغى والقتال والمعارك حتى لا يفنى نسل النبي، وكان قتل كل من يحارب عليا يعلم تماما أن هذه منطقة خطوط حمراء لكنها لن تظل كذلك مع معاوية بن أبي سفيان وولـده يزيـد ولم يذكر للحسن والحسين في كل تلك المعـارك دورا قويـا أو مبارزة بالسيف أو رمي بالرمح وهذا يبرأهما كثيرا مـن مظنة أنهما أزهقا أرواح المسلمين أو أراقا دماءهم. عند تلك اللحظة تم اغتيال سيدنا علي بن أبي طالب على يد الخوارج. في تلك اللحظة التاريخية الشهيرة عندما قتل عبد الرحمن بن أبي ملجم سيدنا علي بن أبي طالب. وفي تلك اللحظة يبـرز مرة أخرى اسم الحسن بن علي، فعندما اغتيل سـيدنا علـي لم يمت في نفس اللحظة وإنما ظل فترة بعد طعنـه، بعضـا من الساعات وتصل إلى أيام في بعض الروايات التاريخيـة، وفي تلك الفترة طلب الناس من سيدنا علي بن أبي طالب أن يستخلف. مؤرخو أهل السنة يقولون إن سيدنا علي بن أبـي طالب لم يستخلف من بعده وإذا قرر أن يختار النـاس مـن بعده وأن القوم ـ أنصار علي بن أبي طالب من المسلمين ـ

طلبوا منه أن يسـتخلف الحسـن فقـال لهـم: "لا آمـركم ولا أنهاكم" أي أن سيدنا علي بن أبي طالب رفض توريـث ابنه الخلافة وترك حرية اختيار الحسن من عدمـه للنـاس "لا آمركم ولا أنهاكم" وبذلك تكون الرواية إما أن المسـلمين طلبوا من سيدنا علي بن أبـي طالـب أن يسـتخلف فـأبى أو طلبوا منه استخلاف الحسن تحديدا فرفض أيضا وإن كان لم ينهاهم عن اختياره، وفي الحالتين لم يسمى سيدنا علي بن أبي طالب اسما يخلفه أما مؤرخو الشيعة فيقولون إن سـيدنا علي بن أبي طالب أخلف الحسن نصا. وتعتبر هذه الروايات متأخرة بطبيعة الحال. ففي ذلك الوقت لم يكن هناك مـذهب للشيعة ولكن أنصار علي أو شيعة علي ولـم تتحـول إلـى نظرية ورؤية ومذهب إلا في عصور متـأخرة وفـي كـل الأحوال تنتهي بنا الروايات - سواء السنية أو الشيعية - أن الحسن لم يعرض نفسه على الناس وكان مفهوما أن الحسـن لم يكن يريد ذلك الأمر برمته فهو عارض قبول أبيه للبيعـة رغم علمه فضل أبيه وقدره ورفعته كما عـارض خروجـه من المدينة المنورة لكن قيس بن سعد بن عبادة - ابن سـعد بن عبادة زعيم الخزرج والأنصار - هو الذي دعـي إلـى

البيعة وطالب الناس بمبايعة الحسن بن علي فبكـى النـاس واستجابوا فأخرج قيس بن سعد بن عبادة الحسن من مجلسه وأجلسه للبيعة وظل الحسن يشترط على الناس أن يسـمعوا ويطيعوا وأن يحاربوا من يحاربهم ويسالموا مـن سـالمهم، بمعنى أن الحسن وهو في مواقف المراقب ويعرف من تلـك الفترة التي عاشها مع والده التحزبات والصراعات ومخالفـة أوامر سيدنا علي ومناقشته لدرجة التهجم بل والانشقاق عليه، كان الحسن يدرك أن هذه المجموعة الضيقة التي كانت حول سيدنا علي بن أبي طالب وحتى المجموعة الأكثـر اتسـاعا تخالف أكثر مما توافق وتصارع أميرها أكثر ممـا تطيعـه لذلك كان شرطه السمع والطاعة، لكن عندما اشترط الحسـن بن علي أن "يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم" وكـرر هذه الجملة بدأ الإحساس لدى القوم أن الحسن طالـب سـلم وصلح وليس هذا لكم بصاحب وإنما هو صاحب سلم وصلح. كانت الأمة الإسلامية في تلك الفترة منقسمة إلى شقين الشام ومصر وما خلفهما تحت إمرة معاوية بن أبي سـفيان أمـا الحجاز والعراق فكانت تحت إمرة سيدنا علي بن أبي طالب، وكان ذلك حدود الصراع الجغرافي بـين الفـريقين. مكـث

الحسن بعد البيعة شهرين أو قريبا من شـهرين لا يتحـدث عن الحرب ولا يستعد لها حتى ألح عليه قيس بن سعد بـن عبادة وعبيد ا بن العباس وكانا هما ذراعا جيش الحسن بن علي وسنعرف لاحقًا كم أن قيس بن سعد بن عبادة كان قائدا عظيما مغوارا مخلصا للحسن تماما وكلية بينما مال عبيد ا بن عباس في لحظة ما إلى معاوية بن أبي سـفيان ويمكـن أن نستخدم تعبير تخلى عن الحسن كما تخلى عبـد ا بـن عباس عن علي بن أبي طالب. كتب عبيد ا بن عباس مـن مكة إلى الحسن يحرضه على الحرب ويلـح عليـه فـي أن ينهض بما كان ينهض به أبوه، واشتد إحساس الناس بعـدم إقبال الحسن على الحرب لدرجة دفعت ببعضهم إلى اقتحـام خيمة الحسن وتعنيفه تعنيفًا شديدا وصل إلـى حـد السـباب والملاعنة، وما كان منهم إلا أن نهبوا متاعـه. كـل ذلـك والحسن لم يأخذ قرارا بالحرب بعد، فخرج الحسـن يريـد المدائن وأثناء ذهابه إلى هناك طعن لكن هذا الرجل لم يصب منه مقتلاً. ويقول بعض المؤرخون إن هذا الرجل كان مـن العراقيين أصحاب الحسن الذين غاضبوه ولعنـوه وسـرقوا متاعه، والبعض الآخر يقول إن هذا الشـخص كـان مـن

الخوارج. وأرى أنه إذا كان القاتل صـاحبه فهـي الخيانـة وإن كان من الخوارج فهو الغدر وما بين الخيانـة والغـدر وكانت معركة الحسن الأخيرة. ظل الحسن بـن علـي فـي المدائن حتى يشفى من جراحه. ويقول المؤرخون إنه تعجـل السلم في أثناء ذلك. كان الحسن بن علي يريد أن يرى انتهاء المفاوضات إلى قرار سليم. لكن هل من الممكن أن يتراجـع معاوية عن طلب الخلافة والعرش وأن يعود عن صراع ضد علي بن أبي طالب؟ وكيف ذلك إذا كان معاوية قد أصر على معركته ضد علي بن أبي طالب وهو - من هو - من أرفع الخلق وأعظمهم وأحد المبشرين بالجنة وصحابي رسول ا وابن عمه؟ ومع ذلك كان معاوية يريد أن ينتزع منه وينتزع عنه الخلافة. فهل من المعقول إذا جاء الحسـن أن يرتـدع معاوية ويرتد عن طلبه للخلافة؟ في ظني أنه بمقتل سـيدنا علي بن أبي طالب أصبح معاوية يرى الأمر أقرب وألصـق وأصبح يرى كرسي الخلافة في الواقـع كمـا كـان يـراه في الحلم، كان الخوارج قد حاولوا اغتيال عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان في نفس اللحظة التي اغتـالوا فيهـا سيدنا علي بن أبي طالب وكان ما كان من اغتيال علـي رضي الله عنه

أما عمرو بن العاص فلم يخرج لصلاة الفجر يومها وخـرج صاحب الشرطة أو كما نقول رئيس حرس عمرو بن العاص فاغتالوه الخوارج وقتلوه. أما معاوية بن أبي سفيان فأصابته الطعنة في المؤخرة - منطقة أسفل الظهر - واستطاع أطباء معاوية معالجته وكان الأثر الجانبي الوحيد للعلاج أنـه لـن يستطيع الإنجاب ووافق معاوية على هذا العلاج. صحيح أنه لم يخلف بعدها لكنه استخلف فماذا فعل الحسن بن علي فـي تلك الأثناء؟ كون الحسن بن علي جيشًا من السفراء واتفـق معهم على الصلح وأعلن أنه لن يـدخل فـي حـرب ضـد معاوية، وخير الناس ما بين أن يـدخلوا فـي السـلم معـه أو يحاربوا معاوية وحدهم وأعلن قيس بن سعد بـن عبـادة القائد الأعلى للقوات المسلحة للحسن بن علي هذا الأمر على الناس فوقف قيس بن سعد بن عبادة خطيبا في الناس وقـال لهم: "لقد أظهر لنا الحسن أنه سوف يصالح معاوية بن أبـي سفيان فإما أن ندخل فيما دخل فيه الإمام الحسن وإما أن نظل نحارب وندخل المعركة على الحق بـدون الإمـام الحسـن فاختار الناس العافية ووضعت الحـرب أوزراهـا وفتحـت

الطريق إلى معاوية نحو الكوفة فدخلها موفورا سالما غانمـا منتصرا مبايعا له.

وعرض معاوية على الحسن ثلاثة أشياء لاكتمال الصلح هي: أن يجعله ولي عهده، وأن يجعل له راتبا سـنويا مـن المال وقدره مائة ألف درهم وأن يترك له مدنًا مـن فـارس يرسل إليه بمالها وخراجها بل ويعـين الحسـن بـن علـي حكامهم. فقال له الحسن: "إن آمنت الناس بايعتك" لاحظ أنـه صالح معاوية لكنه للآن لم يبايعه بعد فكان للصلح شـروطه واتفاقيته وللمبايعة شروط واتفاقية أخرى. كان كل ما يريـده الحسن بن علي هو الأمان للمسلمين وحقن دماء هذه الألوف المؤلفة التي سارت خلف علي بن أبي طالب ومـن ورائـه الحسن بن علي ولم يكن الحسن بن علي يطمع في أو يريـد ولاية العهد فلجأ معاوية إلى أسلوبه مرة أخـرى وهـي أن يعطيه التفويض وهو ورقة بيضاء عليها خاتمـه علـى أن يكتب الحسن بن علي ما يرضيه من شروط فكتب الحسـن: "هذا ما صالح عليه الحسن بن علي معاوية بن أبـي سـفيان صالحه على أن يسلم إليه ولاية أمر المسلمين على أن يعمل فيها بكتاب ا وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين وعلى أنه

ليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد لأحد من بعد وأن يكون الأمر شورى بين المسلمين والناس آمنون حيث كانوا على أنفسهم وأموالهم" أي أن الشرط الذي قدمه وطلبه الحسن بن علي هو الأمان للناس وأن يعمل بكتاب ا وسنة الخلفاء الصالحين وهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب أما أهم شروط الحسن فهو أنه ليس لمعاوية أن يضع أو يولي أحدا من بعده ويبقي الأمر من بعده شورى بين المسلمين. بالطبع حدث إخلال بهذا التعهد وهذه الاتفاقية.

كان كل طرف من طرفي الاتفاقية يدرك الطرف الآخر جيدا ويفهمه فأنصار الحسن يعلمون أن معاوية لن يحترم الاتفاق أما معاوية فكان يعلم يقينًا أن وجود الحسن على قيد الحياة يمثل خطرا عليه بقوة وشد فهو الرجل الذي كان يصارعه على الخلافة لذلك لم يكن ممكنًا أن يظل الحسن حيا بينما معاوية بن أبي سفيان يحكم ويأمر ويقود الأمة الإسلامية، فطول الوقت سيظل الحسن بديلاً متاحا أمام المسلمين إذا ظلم معاوية أو تجاوز من الممكن أن يثور المسلمون عليه ويختاروا الحسن بديلاً له، أيضا لم يكن ممكنًا

أن يظل الحسن حيا بينما معاوية يحكم ويـأمر لأن الشـرط الذي وقعه معاوية مع الحسن يمنعه من تولية ابنه يزيد ولاية العهد من بعده لذلك كان لا بد من التخلص من الحسـن بـن علي فضلاً عن أنه في تلك الفترة لم يكن الحسن راضيا عن سير معاوية بن أبي سفيان في الأمر، وكانت له ملاحظـات واضحة وشديدة على استبداد معاوية والتصرف المالي لأبنائه وتحول الخلافة إلى مظاهر تبعد عـن شـورى المسـلمين والخلافة وتتجه إلى الملك. ورغم أن معاوية بن أبي سـفيان كان يدرك أنه لا بد من مواصلة إمداد الحسن بن علي بمئات وألوف الدراهم والخيرات إلا أنه كان يعرف أن سيدنا الحسن خطر محدق به وعليه فكان سنة ٥٠ هجرية أي بعد مـرور ما يقرب من ١٠ سنوات على توقيع هـذا الصـلح أن دس معاوية بن أبي سفيان ـ كما تقول كتب التاريخ ـ للحسن بن علي من يسمه ليخلو له ولابنه من بعده وجه الخلافة. وحتى مؤرخو السنة يرون ذلك ويردون أن معاوية بن أبي سـفيان هو الذي دس السم أو وضع من يضع السم في طعام الحسن وشرابه.

وبالرغم أنه لا يوجد إجماع في كتب مـؤرخي السـنة على أن معاوية هو الذي أمر بدس السم للحسن أو أن الحسن مات مسموما إلا أن روايات التاريخ كلها تجمع علـى أنـه عندما ذهب الناس ليزورون الحسن في مرضه الأخير قـال لهم: "لقد سقيت السم مرات ولكنني لم أسق قط أشد علي من هذا السم الذي سقيته هذه المرة" ويقولون إن شدة السم كانت لدرجة جعلته يلفظ قطعة من كبده وعندما سأله الحسين بـن علي "من سقاك السم؟" أبى الحسن أن يخبره وحتى اللحظـة الأخيرة من حياة سيدنا الحسن بن علي كان يـرفض إراقـة الدماء مهما حدث وجرى وعندما أدرك الحسن أنه سـيموت كره أن يلقى ا وقد اقتص لـه بالشـبهة بـالرغم أن كـل الشبهات كانت تتجه نحو أزواجه ويزعم بعـض المـؤرخين أنها بنت الأشعث بن قيس زوج الحسن بن علي ﷺ هي التي اختارها معاوية لتدس السم للحسـن فـي بعـض طعامـه أو شرابه أكثر من مرة وبأكثر من طريقة ورشاهـا معاويـة في مقابل ذلك بمائة ألف درهم، ومنهم من يزعم أنه وعـدها بأن يزوجها ليزيد ابنه فلما مات الحسن وفى لهـا معاويـة بالمال لكنه كره أن يتزوجها أو يزوجها لابنه ومفهوم طبعـا

أنه من الصعب أن يتزوج هو أو ابنه سيدة وضعت سما في طعام أو شراب زوجها. لكن الروايات التي تنفي عن معاوية ترتيب دس السم للحسم بن علي لا تنفي موت الحسن مسموما وإن كانت لا تجيب عن سؤال من فعل ذلك؟ ومن مصلحته دس السم للحسن وقتله والتخلص منه؟ ثم هل من المعقول أن يرفض معاوية ويأبى أن يأمر شخصا بقتل الحسن في حين أن معاوية وافق على وتسبب في قتل الآلاف من المسلمين في حرب من أجل العرش؟ ونكتشف أن الموت بالسم كان ظاهرة في فترة ولاية معاوية بن أبي سفيان فمثلاً المالك بن الأشهر أحد الزعامات المهمة والذي كان سيتولى مصر وكان معاوية يدرك خطورة ذلك الرجل وأهميته ومناقشته للجميع بما فيهم معاوية نفسه إلا أن مالك بن الأشهر يتوفى بالسم وهو الموقف الذي قال فيه معاوية "إن جنودا من عسل" لأن السم وضع لمالك في العسل، أيضا توفي عبد الرحمن بن خالد بن الوليد مسموما بعد الحسن بن علي لأنه كان من أهم المنافسين ليزيد بن معاوية لما له من رفعة وعظمة وإجماع من المسلمين. وكان الواقع العربي والإسلامي وقتها على قناعة أن زوج الحسن بن علي هي

التي دست له السم في العسل، فكان يتم معايرة أخوتها بهـا كأن يقول الناس لهم يا أخ/ أخت قاتلة السم وكـان الجميـع على قناعة راسخة أن معاوية هو الذي أمر بدس السم للحسن لكي يتخاص منه ومن منافسته ومن خطره عليه وعلى ابنـه يزيد من بعده. لكن معاوية بن أبي سفيان حين تذكر خطـر الحسن نسى الحسين بن علي.

الحر بن يزيد

هناك مشاهد في تاريخ الإنسانية هي اختبار للإنسـانية نفسها امتحان للبشر والبشرية ذاتها. هناك مشهد جال وخطير ومهم ومعذب في تاريخ الإنسانية هو موقف كربلاء والوقفة الحسينية العظيمة أمام جحافل جيش زياد بن مرجانة ويزيـد بن معاوية الحاصل أن أي إنسان يمكن أن يأتي إلـى الـدنيا ويرحل منها دون أن يمتحن أو يـدخل الاختبـار، وهنـاك لحظات يكون فيها الاختيار اختبارا أن تكوم ما بـين الجنـة والنار فتتردد ويكون لديك القدرة علـى تحديـد مصـيرك ومسيرك ما بين الحق والباطـل. تلـك لحظـات الاختيـار الكبرى. لحظات الاختيار العظمى في التاريخ الإنساني، كان مشهد الحسين في كربلاء من مشاهد الاختيـار والاختبـار. لم يكن الحسين بن علي مجال اختبار لإيمانه وتقواه وشهادته وشجاعته لكن البشرية هي التي كانت في مجال الاختبـار. فهل تنجح أم لا؟ هل ستختار الحق أم الباطل هـل سـتختار الحرية والعدالة أم الثروة والسلطة والاسـتبداد والاسـتعباد؟ لم يكن هناك من يمثل البشرية في لحظة الاختيار والاختبار تلك إلا الحر بن يزيد. فمن هو الحر بن يزيد؟ هو من كبراء

القوم عليتهم في الكوفة وكما قلنا كانـت الكوفـة عاصـمة سياسية مهمة في ذلك الوقت. يدور فيها كثيـر مـن جـدل والسياسة وصراعات الساسة وحالات التحزب مع أو ضـد. من اللحظة الأولى لبنائها عندما أنشأها سعد بن أبي وقـاص وهي تسير في التاريخ مسارا مهما وخطيرا ليس مهما كونه إيجابيا أو سلبيا ولكن المهم أنها تلعب دورا وكـان سـكانها من العراقيين بطبيعة الحال ومن وفد إلـيهم وسـكن معهـم وتصاهر وتمازج معهم من القبائل العربية أو من الصـحابة أو من الأنصار والمهاجرين وأدى ذلك إلـى أن أصـبحت الكوفة واحدة مـن القـرارات الهامـة والأرقـام الصـعبة في الصراع السياسي في ذلك الوقت منذ عـام ٦٠ هجريـة في كربلاء ولأعوام تالية لكن تظل حقيقة أن الحر بن يزيـد هو أحد زعامات الكوفة السياسية والعسكرية. ذهب الحر بن يزيد إلى كربلاء مع جيش زياد بن مرجانة وإلـى الكوفـة في عهد يزيد بن معاوية وكان الجيش يترأسه يقوده عمر بن سعد بن أبي وقاص ابن الصحابي الجليل والمبشـر بـالجن وأحد المرشحين الستة للخلافة بعد عمر بن الخطاب وعلـى الرغم من أن سعد بن أبي وقاص كان قد اتخذ موقفًا محايـدا

تماما في الصراع السياسي بين علي بن أبي طالب ومعاويـة بن أبي سفيان حتى مات وعمره ثمانون عاما وكان سعد بن أبي وقاص يبرر موقفه المحايد بقوله: "لا أقاتل حتى تأتوني بسيف ينطق فيقول لي هذا مؤمن لا تقتله وهذا كافر اقتلـه" ورغم أن تلك كانت سياسة سعد بن أبي وقاص إلا أن ابنـه عمر كان قائدا لجيش الباطل كما اعتبـره ويعتبـره معـي كثيرون وهو جيش زياد بن مرجانة ويزيد بن معاوية لأنـه أخذ موقفًا منحازا ضد حفيد النبي الحسين بن علي بن أبـي طالب كان الحر بن يزيد يرافق الجيش المنـوط بـه قتـل الحسين. وقف الحر بن يزيد على فرسه ينظر إلى الأمر كله بعيون دامعة وقلب واجف. بـدا مرتعـدا مرتعشـًا تأخـذه الرعشة، تنهك قلبه من هذا الاختبار الهام والقوي. كان الحر بن يزيد يسأل نفسه ما الذي أتى بي إلى هنا؟ كـان يتحـرك بالفرس دائرا حول نفسه ملقيا على الصحراء الممتدة أمامـه نظرات منكسرة ومكسورة، متأملة منتظـرة لرحمـة ربـه تحكمت فيه الأفكار وسيطرت عليه الأحاسـيس المتناقضـة المتصارعة، بدا كأنه ليس الحر بن يزيد أقوى فرسان قومـه وأعظم قادة الكوفة العسكريين وكانت حوافر الفرس تخـبط

في الرمال تثيره غبارا وتفجره ترابا فوق تلك الربوة التـي اعتلاها الحر بن يزيد في تلك الموقعة. كان الغبار والتـراب وما أثارهما هو تعبير عن الصراع والنار التي تشتعل داخله في حماس الأفكار وتصارع الهواجس ووجد الحر بن يزيـد نفسه بين أمرين.. بين قدرين.. بين حياتين.. بين مسـتقبلين فتردد عن يمينه جيش الحسين بن علي بن أبي طالب وابـن بنت النبي ﷺ يحاصره الجنود والحطب والقصب والنار وهو يقف في الخيام التي يتخذها حماية لظهره ووقاية لأهله عندما تتصلب عيون الحر بن يزيد على هذه البقعة من كـربلاء - كرب وبلاء على ابن نبيه الذي يصلي ويسلم عليه ويرجـو عفوه وشفاعته كل صلاة ويقتل ويقاتل من أجل دينه فإذا بـه مطالب أن يقتل حفيده. لكز الحر بطن فرسه وهو يسأل نفسه كأنه يوقظ فرسه ليستيقظ هو. من الذي أوقعني؟ مـن الـذي قادني إلى تهلكة نفسي وبيع الدين بالدنيا؟ كانت أوامر عمـر بن سعد بن أبي وقاص قائد جيش يزيد الزاحف بأربعة آلاف جندي وفارس. واضحة أنهم يطلبون دم الحسين أو جره إلى قصر الكوفة حيث ينتظره رجال زياد بن مرجانـة القبـيح الدميم.. دميم الفكر والعقل والقلب وأمير يزيد بـن معاويـة

على الكوفة. يزيد بن معاوية الوالي الأمير الحاكم السلطان، الملك الجالس على مقعد في دمشـق وزيـاد بـن مرجانـة هو واليه وحاكمه في الكوفة بدمامته ووحشيته وسوء خلقـه وخلقته. يفترس عظم ابن النبي العظيم ويـنهش فـي لحـم رسالته وحلم إمامته. كان الحر بن يزيد يقف ذلك الموقـف الذي يصرخ فيه ومعه "ما الذي أوقفني هنا معكم يـا أبنـاء الأفاعي؟" حدث الحر بن يزيد نفسه وهو يلتفت إلـى جـيش عمر بن سعد وقد حسم أمره. عمر بن سـعد حسـم الأمـر والحر بن يزيد يتردد في أمره وقد أجبـر شـيطانه علـى التراجع لا طمع في دنيا طموح لمجد بل هو السـعي إلـى الآخرة. ذهب الحر بن يزيد إلى عمر بن سعد بن أبي وقاص قائد الجيش فسأله: "أمقاتل أنت هذا الرجل؟" يقصد الحسـين بن علي. فأجابه عمـر: "أي وا قتـالاً أيسـره أن تسـقط الرؤوس وتطاح الأيدي" كان العنف واضحا مؤكدا وكان مـا يمني الحر بن يزيد نفسه من أن المسألة ستكون مجرد تهديد يتراجع معه الحسين بن علي عن طلب الخلافة.

لم يكن الأمر مجرد إرهاب ليسلم الحسين بن علي ليزيد بن معاوية فالأمر جد والهلاك قادم والحسين مقتولاً لا محالة

وهو يقف بين ثلاثين إلى أربعين رجـلاً فقـط مـن أهـل وعشيرته. كان كل ما يملكه الحسين بن علي من حطام الدنيا هم ٧٢ شخصا فقط هم أهله وعشـيرته وأنصـاره وأبنائـه وشقيقاته الذين ذهبوا معه إلى كربلاء. كان الحسين بن علي في تلك الصحراء الشاسعة القاتلة وحده خلفه النيران الناشبة في خيامه حيث أشعلوا النار في خيامه وأجبروه على الوقوف في العراء هو وأصحابه الاثنين وسبعين ما بين ابـن يبكـي وأخت تنتحب ومن معهم من النسـاء والغلمـان والفرسـان العظام الذين التفوا حوله وحده ووحيدا. بينما أمامـه أربعـة آلاف فارس يقـودهم الطـامع للإمـارة المنـافق والأفـاق والمريض بالسلطة الذي باع دينه مقابل كيس دراهم والـذي أجبره الخوف وضعف النفس فاندفع لمقاتلة من؟ مقاتلة ابـن النبي ولا كذب.. ابن علي بن أبي طالب. ابن فاطمـة بنـت محمد. حفيد النبي عليه الصلاة والسلام.

يقف الحر بن يزيد بين جيشين.. بين عمـرين.. بـين قدرين.. بين منهجين.. بين الحسين بن علي وبين جيش يزيد بن معاوية. ما أضيع النفس وما أضعف القلب ومـا أخـف الحمل يوم العرض على الميزان، سمع الحر حوافز الفـرس

تقترب وجسد رجل يرتج فوق ظهر فرس وهمهمة بعيدة تبدو أنها لصاحبه ورفيقه المهاجر بن أوس في رحلة الصـحراء وصفوف الجيش وسكن الكوفة والخـروج لقتـال الأعـداء والصلاة فجرا في المسجد والتسبيح في العشـاء وجلسـات الشعر أمام النيران تدفئ القلب والصدور فزعق فيه المهاجر منتفضا فوق حصانه: "وا لأمرك مريب يا حـر وا مـا رأيت منك موقفًا قط مثل ما أراه الآن ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة رجلاً؟ ما اخترت غيرك فما هذا الذي أراه منك؟ فرد عليه الحر بن يزيد: "أني وا أخير نفسي ما بين الجنـة والنار وا لا أختار على الجنة شيئًا" ومندهشًا مذهولاً تابعه المهاجر وهو يدخل بفرسه إلى حلقـة الحسـين الصـغيرة المقاتلة الشجاعة واقترب الحر بن يزيد من الحسين بن علي بفرسه لاهثًا واثقًا مطمئنًا ثم هبط من الفرس إلى الحسين بن علي وقال له: "جعلنا ا فداك يا ابن رسول ا . أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع ـ حيث حبسه ومنعه من الرجوع إلى مكة ـ وأني جئت إليك تائبا مما كان مني إلـى ربـي وموفيا لك بنفسي وحتى أموت بين يديك أفتـرى ذلـك لـي توبة؟" ذهب الحر بن يزيد إلى الحسين بن علي ليغسل ذنوبه

ويعلن توبته الكاملة "أفترى ذلك لي توبة". فنظر إليه الحسين بن علي وقال: "نعم يتوب ا عليك ويغفر لك ما اسمك؟ فقال "أنا الحر بن يزيد" فقال الحسين "أنت الحر لما سمتك أمـك. أنت الحر إن شاء ا في الدنيا والآخرة" هذا المشهد الـذي وقف فيه الحر بن يزيد وعرض توبته وقدم نفسه وروحه فداء للحسين بن علي، عودة عن طريق الخطأ واختيـار للجنـة عن النار والحق عن الباطل. هذه هي اللحظة التي كان يعتقد التاريخ الإنساني كله أنها تكون لحظة الحر بن يزيد وحـده لكنها كانت المفترض أن تصبح لحظة كافة مـؤمني الأرض ومسلمي الإنسانية. لحظة الاختيار الحر الذي اختاره الحر بن يزيد لكن الأمر لم يكن كذلك. ليس في تلك اللحظة فقط بـل قبل ذلك حين خرج الحسين من المدينة إلـى مكـة بأبنائـه وأخوته ومعظم أهل بيته مدفوعا بالحمايـة بالبيـت الحـرام والسكن في أمن مكة اشتدت على عنقه الضغوط وزادت فوق كواهله دعوة أمير المدينة الوليد بن عتبة بطلب بيعته ليزيـد مقاليد الحكم طبقًا للبيعة السابقة كولي عهد فأرسل يزيد بـن معاوية. خرج الحسين بن علي في طريق الهجرة المضـادة فقد هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة بينما ها هو الحسـين

بن علي يخرج من المدينة إلى مكة لأن أمير المدينة الوليـد بن عتبة يطلب البيعة منه ليزيد بن معاوية. كان معاوية بـن أبي سفيان قد توفي في رجب عام ٦٠ هجرية وتولى يزيـد إلى واليه في المدينة برسائله وقال له فيها: "من يزيد أميـر المؤمنين إلى الوليد بن عتبة أما بعد فإن معاوية كان عبـدا من عباد ا استخلفه وخوله ومكن له فعاش بقدر ومات بأجل فرحمه ا فقد عاش محمودا ومات برا تقيا أما بعـد فخـذ الحسين بن علي وعبد ا بن عمر، وعبد ا بـن الزبيـر وعبد الرحمن بن أبي بكر أخذًا شديدا ليس فيه رخصة حتى يبايعوا" أي أن الرسالة اشترطت أن يمضي هؤلاء الأربعـة حتى يمضي الملك ما إن وصلت الرسالة حتى ألـح الوليـد ثقيلاً على الرجال مسرعا في تنفيذ الأمر مضبوطًا كأي والي من ولاة يزيد على تلقي الأوامر، لكن الحسين بن علي رفض إعطاء البيعة. ما كان منه إلا أن انتظر يومين ثم انطلق إلى مكة. لم يكن رفض الحسين لبيعة يزيد حتى تلـك اللحظـة في عام ٦٠ هجرية طمعا في حكم أو رغبة في اعتلاء مقعد الخلافة ولا حتى إرثًا تاريخيا من العداء بين علي ومعاويـة فالحسين لا يعادي وعلي بن أبي طالب لا يعادي. هذه مناهج

للعدل والعدالة في الدنيا. موقف ومنهج ورؤية. هذا العـداء الذي رفعت فيه السيوف والرمـاح والسـهام والمصـاحف وخاضوا فيه صراعا شديدا ومعارك شرسة وانقسامات وفتن وفرق سياسية ودينية راح ضحيتها الحسن بن علي الذي قتل مسموما وتثار الشبهات حول معاوية في دس السم له. بـأن الحسن بن علي ضحية هذا الصراع وهو شقيقه فـي الـدنيا وفي حفادة رسول ا ﷺ وسيد شباب أهل الجنة الذي مـات مسموما بالعسل وقد تحمل معاوية في التاريخ ـ رغم كـل محاولاته وتبرأته ـ وزر دس السم إلى فم الحسن. لم يبـايع الحسين بن علي يزيد بن معاوية خليفة للمسلمين ولـم يكـن الأمر أن الحسين يريدها بل إن يزيد لا يستحقها. لـيس لأن العادل يريد أن يكون الخليفـة بـل لأن الظـالم لا يسـتحق أن يكون الخليفة، لكن السؤال الذي يبرز هو إذا كان الحسين بن علي قد رفض أن يبايع يزيدا أميرا للمؤمنين، وإذا كـان الحسن بن علي قد وافق أساسا على ولاية العهد ليزيـد بـن معاوية فلماذا يعود ويرجع "ويتراجع" ويرفض أن يتم الأمـر ليزيد بن معاوية؟ التساؤل الذي يبدو في مظاهره أن يتناقض وظني أنه لا يتناقض أبدا ولا يمكن أن يتناقض أمـرا فعلـه

أو فكر فيه مع أمر آخر فعله أو فكر فيه فأنا أربأ به وبعقلـه وبنبله وشهادته ورفعته أن يكون في لحظة ما وقـد تنـاقض بينه وبين نفسه أو تناقض رأي له مع رأي آخر سالف لـه. الأمر أن معاوية بن أبي سفيان ذهب إلى المدينـة المنـورة قبيل وفاته في موكبه بين حراسه وزعائم دولته وصـولجانه وعزه وسلطته ومكث فيها أياما يلتقي برجالات المدينة الذي يعلم علم يقين بإدراك رجال السلطة والنفوذ وأنهم لن يقبلـوا ببيعة ليزيد ما عاشوا وما عاش وهم الحسين بن علي وعبـد ا بن الزبير وعبد ا بن عمر بن الخطاب وعبد الـرحمن بن أبي بكر الصديق. رغم أن عبد الرحمن كان من الـذين شاركوا معاوية في الحروب على علي بن أبي طالب أو على الأقل انتموا له بالقول والفعل وباللفظ والسيف إلا أن معاوية كان يعلم علم اليقين أنه لن يقبل أحدا من هؤلاء بيزيد ومـن ثم كانت مهمة عندما جلس عدة أيام في المدينة أن يأخـذهم بالتهديد والوعيد ولأنه معاوية فكان يأخـذهم أيضـا بـاللين والمهادنة فأجرى معهم مفاوضات مطولة كثر فيهـا الغمـز واللمز والتغريب الترهيب والتنمر حتى أذعن هؤلاء الأربعة إلى الأمر رضوخًا مؤقتًا وتأجيلاً لفض الجرح وطلبا منهم

عز وجل أن يتدخل برحمته ورعايته فينقذ الأمة مـن ذلـك الأمر، بعد أن وافقوا حقنًا للدماء وإبراء للذمم إلا أنها لم تكن موافقة نهائية وإنما موافقة مؤقتة تشبه الهدنة والمهادنة حتى يقضي ا أمرا كان مفعولاً، وكان لمعاوية في هـذا الأمـر خطبة شهيرة يقول فيها: "لقد علمتم سيرتي فـيكم وصـلتي لأرحامكم ـ حيث كان معاوية بن أبي سفيان دائـم العطـاء لهؤلاء وغيرهم في المدينة المنورة بالأموال والرعاية المالية المادية الكاملة ومحاولة إضفاء أجواء من الرفاهية عليهم لكي يخضعوا ويخنعوا ويرقوا له في تصرفاته وسياساته ويبـدوا عن جدل السياسة والمعارضة ويصـبح الأمـر كلـه أنهـم أصحاب مصلحة في بقاء معاوية ما دام يجزل لهم العطاء ـ يزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموا يزيد باسم الخلافة" ـ أي أنه يريد أن يصبح يزيد الخليفة ـ ـ ومعاويـة فـي استكمال خطبته التي ترويها لنا كتب التاريخ خطـب ذلـك في الأربعة الذين حددنا أسماءهم وهم الحسين بن علي، عبد ا بن الزبير، عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عبد ا بن عمر بن الخطاب خطب فيهم وسط حشد من الناس وقال لهم "أريد أن تسموا يزيد بالخلافة" أي توافقوا على خلافة يزيـد،

على أن تعزلون وتأمرون وتجمعون المال وتقسـمون أي أن الأمر يكون بين أيديكم مقابل أن يصبح يزيد خليفة للمؤمنين وكأنه ملك لا يملك وأنتم غير ملـوك تملكـون وتحكمـون. هذا الإغراء والإغواء الذي كان مـن الطبيعـي والمنطقـي أن يعرضه معاوية بن أبي سفيان للحصـول علـى الرضـا والموافقة. قدم معاوية عرضه على مائدة المفاوضات بكـل الوسائل المعتادة مكرسا الأمر كله لصـالح نفـوذه ولنفـوذ مصالحه. أغرى كبار معارضي خلافة ابنه بامتلاك الزمـام الفعلي للإمارة والجباية والقسمة على أن يكون يزيد صـورة في إطار فقط لكن الرجال الأربعة كـانوا يـدركون ببصـر وبصيرة أنها حيلة. حيلة معاوية السياسي لا وعـد معاويـة صاحب الرحم والكرم فأجابه الزبير بأن يصنع مـا صـنع الرسول من ترك الأمر دون خليفة أو كما صنع أبـو بكـر بالعهد إلى رجل ليس من بين أبيه أو كما فعل عمر في ترك الأمر شورى لكن معاوية غضب وأسفر عن نيتـه وطـوى ستار السياسة ليكشف عن ستار الملك فقال: "إننـي أنـذر.. أنني أحذر أن أخطب فيكم فيقوم القائم يكذبني علـى رؤوس الناس فأحمل ذلك وأصفح وأني قائل بمقاله وأقسم با لـئن

رد علي أحدكم كلمة في مقالي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها" أي أن من سينطق ويناقش لن يستطيع فـتح شـفتيه بكلمـة أخرى حتى يسبقه السيف لرأسه. وأضاف معاوية: "فلا يبقين رجلاً إلا على نفسه ثم أمر صاحب حرسه أن يقـوم علـى رأس كل منهم رجلين في يد كل منهما سيف فيقف بجوار كل رجل من الرجال الأربعة. ووقف معاوية في المسجد وأعلن يزيد واليا للعهد والخليفة القادم وكـان الجميـع موافقـًا وإذا حاول أحدهم النطق كان السيف سينطق.

الحسين.. سيد الشهداء

بعد موت معاوية بن أبي سفيان تفرقت السبل بهؤلاء الأربعة فعاش عبد ا حتى دخل الحجاج بن يوسف الثقفي المدينة. بعد أن انتصر على عبد ا بن الزبير بن العوام الذي حكم الحجاز والعراق ١٠ سنوات. يقال إن عبد ا بن عمر كان قد كف بصره وقتها ويقال إن عبد ا بن عمر قد قتل عن طريق رمح مسموم في قدمه أصابه به الحجاج بن يوسف الثقفي لأسباب كثيرة منها أن عبد ا بن عمر لم يكن ليضع في اعتباره أن هذا هو الحجاج الذي يستطيع بكلمة منه أن تطير رأس وبكلمة أخرى أن يطير لسان.

أما الشخص الثاني وهو عبد ا بن الزبير فهو الذي استطاع بالفعل أن يحصل على ثمرة القرار السياسي بخروج الحسين بن علي ويقال إن عبد ا بن الزبير كان من الذين شجعوا الحسين بن علي على الخروج من المدينة إلى مكة ثم من مكة إلى العراق كي يطلب الخلافة أو سعيا لمن طلبوا منه أن يقبل بخلافة المسلمين وفي النهاية فرغت الحجاز من قيادي عظيم إلا عبد ا بن الزبير الذي استطاع بعد

مقتل الحسين بن علي بسط نفوذه وسلطته ودولته على الحجاز والعراق أما عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق فتوفي. في تلك اللحظة التي قال فيها معاوية بن أبي سفيان بمنتهى الوضوح أنه سيتحدث فإذا خرج عليه أحد بكلمة بتصديق أو بتكذيب فليضربا بسيفهما ثم خرج بهم إلى المنبر ووقف وأثنى على الرسول ﷺ وقال "هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ولا يبرم أحد دونهم ولا يقضي على بمشورتهم وأنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد بولاية العهد فبايعوه على اسم ا " فبايع الناس هذا هو ما حصل عليه يزيد بن معاوية من ولاية العهد.

التهديد بالقتل وسفك الدماء إذا رفعت المعارضة كلمة فوق شفتيها لا يوحي بذكاء معاوية المصروف بذكائه ودهائه.

لا شك أنه هدد بإراقة الدماء في المسجد ودماء من؟.. دماء هؤلاء الأربعة برجالهم وأهليهم وذريتهم وتاريخهم ويحدث ذلك أين؟ في مسجد رسول ا ﷺ ومدينته هذا الفعل على الرغم في وجوده على الألسنة وفي كتب التاريخ والمراجع إلا أنه لا يمكن أن نجد له تفسيرا واضحا لا لبس

فيه إلا أن معاوية المسلم والحاكم والسياسي ورجـل الدولـة لم يقدم على مثل هذا الأمر إلا عندما أدرك تمامـا وعليـه أن المطلوب صعب وشاق جدا فهو يطلب ليزيد ولاية العهد ومن ثم خلافة المسلمين. صحيح أن الدولة الإسلامية كانـت في طور النشأة والتأسيس وأن أعمدتها كانت لا تزال رطبـة وصحيح أن أي خطر قد يهدد المملكة من الممكن أن يطـيح بها ومن الممكن جدا إذا قتل أحد في الأربعة أن تحدث فتنة.

لكن حقيقة الأمر أن معاوية كان متشددا أو عنيفًا وقاسيا ومهددا في هذا الأمر رغم مخاطره وآثاره الجانبية، إذا أدرك بذكائه أن الرجال الأربعة لا يمكن أن يسمحوا له بإراقة الدم في مسجد رسول ا ﷺ وهم يعلمون أنه يمكـن أن يفعلهـا. الثابت أن السادة الأربعة قد صمتوا عندما أعلن معاوية ابنـه يزيد وليا للعهد واكتفى معاوية بصمتهم وترك أثار وتبعـات ذلك تعالجه الأيام مع تولي يزيد بن معاوية الولايـة وظلـت الأمور معلقة حتى ليلة قدوم الحسين بن علي مـن المدينـة المنورة إلى مكة. كان الحسين بن علي يدرك تبعة خروجـه رافضا منح البيعة ليزيد بناء على طلب الوليد بن عتبة والي المدينة. كان يدرك مشقة الأمر كله. كان يدرك أنـه بدينـه

ودنياه وأهله ومستقبله فما هذا المنهج المالكي الوراثي الجائز حكما واختصام السلطة. وظلم الناس وقهـر العبـاد وجبـر الجمهور على منح البيعة بالدم. وكان يدرك في الوقت ذاتـه سوء يزيد وضعفه وهزال خلقه وانحلال سياسته، ليس قياسا إلى الحسين كمنافس فالحقيقة لأنه لا مجال للمقارنة بين ابـن بنت رسول ا ﷺ الزاهد المقاتل السيد الحليم المؤمن الحكيم سيد شباب أهل الجنة ذلك الذي دعا له النبي ﷺ مـع أخيـه الحسن" اللهم أني أحبهما فأحببهمـا وأحـب مـن يحبهمـا" لا يصلح يزيد قياسا للحسين لكن قياسا للشخص الذي يمكـن أن يكون حاكما لأنه للمسلين فهناك شروط يجب أن تتـوافر في من يحكم المسلمين لا تتوافر في يزيد ولا ينطبق عليـه. فيزيد لا يصلح ولا يمكن أن يصلح من كان مثلـه شـغوفًا بالملذات عن انطلاقه لأي مهام قتالية أو استشـهاد.. ولعـه باللهو والصيد وقلة عقله الديني وهـواه ومنطقـه السياسـي أيضا، عدم درايته وفهمه لشئون السياسة والحكـم. ويزيـد باختصار ذلك الذي دسه لنا المغيرة بن شعبة فـي التـاريخ عندما نصح يزيد أن يذهب لوالده معاوية كي يعينـه واليـا للعهد فقط لكي يبقي المغيرة حاكما واليا على الكوفة. فبيعت

الأمة بالكوفة لم يكن يزيد الحاكم الذي يؤتمن على أمه فضلاً بطبيعة الحال عن صعوده لسرير العرش محفوقًا بالسـيوف مرفوعا بالرماح مدفوعا بنفوذ أبيه وجلاء قصـره وخبـث امرأته وطمع أوليائه. رفض الحسين بن علي أن يكون ذلـك الرجل قواما على أمه مسـلمة ورجـال أشـداء وصـحابة ما زالت تعيش.

كان لابد من موقف وقد اتخذه الحسين فقرر أن يقـول لا.. فقرر يزيد ـ ببساطة ـ أن يقتله وهذا هو كتاب يزيـد لقائد جيشه ـ عمر بن سعد "أما بعد فإن لـم أبعثـك إلـى الحسين لتكف عنه أو لتطارده ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا تعلم له عندي شافعا فإن نزل الحسين وأصحابه على الحكـم واستسلموا فابعث إلي بهم سلما وإن أبوا فازحف إليهم حتـى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون فإذا مـات الحسـين فأوطأ الخيل صدره وظهره فإنه عاق شاق قاطع ظلوم.. ليس رغدي في هذا ـ أي رغبة مني في هذا ـ أن يضار بعـد الموت شيئًا ولكن على قول قولته أن قتلته مقات بـه هـذا.. إن أنت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السـامع المطيـع وإن أبيت فاعتزل عملنا وبصرنا وخلي بين شرم بن الجوشن

ـ القائد الثاني في جيش عمر بن سعد ـ وبين العسـكر ـ أي أن يعين شرم بن الجوشن قائدا للجيش في حالة رفضـه واعتزاله ـ فإن قد أمرنا بأمرنـا والسـلام" واضـحة إذن الأوامر. وتعني هذه الرسالة البشعة أن اقتلوا الحسين إما أن يستسلم ويمنح يزيد الإمارة وإما أن يقتل ويمثـل بأصـحابه وتطأ الخيل صدره وظهره لا شيء يضره ـ لا سمح ا ـ بعد الموت ولكن لأن صاحبهم عبيد ا بن زياد قد نذر ذلك حال قتل الحسين وبرفض هذا الأمر العسكري أن يرفع عمر بن سعد بن أبي وقاص عن كتفيه شرف القيادة ويرحل تاركًا العمل الميداني لشرم بن جوشن فإنا قد أمرنا بـأمر "اقتلـوه" هذه هي كلمة السر والعلان في أوامر يزيـد بـن معاويـة. الغريب أن هناك بعض الروايات التاريخية تطفو على سطح المراجع وبعض أمهات الكتب تزعم أن الحسين قد عـرض على جيش عمر بن سعد عندما تقابلا فـي كـربلاء أثنـاء اللقاءات الليلية بين المعسكرين علـى الحـدود أحـد ثلاثـة خيارات يرى فيهم عمرا أمـرا ينفـذه الحسـين دون قتـال أو إراقة دماء. زعموا الحسين قوله: وهي إما أن أرجع إلى مكة وإما أن أضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرى ما بيني

وبين رأيه وإما أن تسيروني إلى ثغر من ثغور المسلمين ـ والمقصود بالثغر ليس الميناء فحسب ولكن أي مدينة علـى الحدود. فأكون رجلاً من أهله لي ما لهم وعلي ما عليهم هذه الاختيارات نقلت حرفيا إلى عبيد ا بن زياد لكنه رفضـها قاطعا بضرورة مبايعة الحسين يزيد وحضوره حتى قصـر الإمارة بالكوفة وإما الموت وأرسل الـرد الـذي عرضـناه في السطور السابقة لعمر بن سعد وهو (إما يبـايع الحسـين أو يقتل ويمثل بجثته) لكن من الذين صاحبوا الحسين من مكة وحتى مقتله وشهادته مثل عقبة بن سمعان نقض هذه الرواية تماما وقال! لم أفارقه حتى قتل وليس بمخاطبة الناس بكلمـة في المدينة ولا في مكة ولا بالطريق ولا بـالعراق ولا فـي عسكر إلى يوم مقتله إلا وسمعتها وا ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد بن معاويـة ولا أن يسيروه إلى ثغر من ثغور المسلمين لكنه قال دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتى أنظر إلى مـا يصـير من أمر الناس. عندما يموت البطل الرمز تخرج أحاديث إفك تنسب له سقطات وتنازلات تشوه الصور النقية التي يراه فيه الناس وتضعف من قوة الإيمان وتشكك في المواقف القاطعة

كأنهم يريدون التشويش على فكرة أن الحسين بن علي اختار الشهادة ويقولون إنه لم يكن يتمنـى إلا السـلامة والأمـان. وتزعم هذه الرواية أن الحسين عرض على أعدائه اختيـار واحدة من الخصال الثلاثة فإذا كان الأمر صحيحا فلماذا لـم يعرض الحسين هذه الاختيارات وهو جالس في المدينة وكان ذلك من باب أولى وكانت ترسل إليـه أمـوال بـلا حـدود أو وصف من يزيد طمعا في رضاه ومبايعة ليزيد بن معاوية لكن الجهاد الحسيني لم يكن كذلك. رفض الحسين أن يبـايع يزيد وقرر أن يستشهد وقرر أن يعطينا المثل فهو فـي ٧٢ شخص عظيم مناضل حول الحسين وهو كل ما تبقـى مـن الدنيا مقابل ٤ آلاف وكانت كربلاء.

رجال كربلاء

كان الليل مطلق العنان في تلك الصحراء التي لم يظهر فيها قمر، ولم يظهر بها فرح كذلك كالذي سطع قبل شـهادة الحسين. ربما أرق أبناء كربلاء الذين عاشوا حتى الفاصـل بين رمل الصحراء قبل عناق ظهر الإمام الحسين وبعـدها. ربما صاروا يؤرخـون أيضـا لاخـتلاف القمـرين بـين المرحلتين. قمر ما قبل شهادة الحسين وما بعدها فـي هـذه الصحراء الكربلائية. جلس الحسين مع صحبه وأهله رجـال سيماهم على وجوههم. اطمئنان الشهادة، رقة الفوز. عشـق النبوة. ولاء الرجال، عناق القلوب. إصرار أولى القوة. عناد الحق. أحلام الجنة. الحنين للقاء سيدنا محمد ﷺ ومصـافحة حور الجنة. قطرات من النور المصفى تفيض علـى جبهـة الحسين وترسم عطرها فوق شفتيه وعلى محنته وبين لحظة وأخرى يرقب ابنه الصغير العليل الذي أصابته حمى فأرقدته في حجر عمته السيدة زينب تلك التي عجزت ووثبت حزنًـا وألما عندما سمعت الحسين يهمس بشعر ينعـي فيـه نفسـه وثبت تجر ثوبها وتحسر غطاء رأسها وتبكي دما من قلبهـا "المنزوف" واثكلاه لبث الموت أعدمني الحياة. اليوم فاطمـة

وعلي أبي والحسن أخي مات يا خليفة الماضي وثمالة الباقي" سمعها الحسين فارتد واقترب منها وعانقها مبللاً بـدموع أخ كريم وشهيد قادم قد علته نمصة في صـوته. كمـا ضـمت رأسها على صدره "بأبي وأخي يا أبا عبد ا . نفسي فـداك" وغشي على السيدة الجليلة التـي وثقـت أن المـوت قـادم وأن الحسين أخاها سيد شباب أهل الجنة ذاهب. تاركًا لوعـة نفسه وحرقة قلبها واغتصـاب الظـالمين لحقـوق النـاس والشهداء. صب الحسين على وجهها ماء وقال لها: "يا أختاه اتق ا وتعز بعزاء ا واعلمي أن أهـل الأرض يموتـون وأهل السماء لا يموتون وأن كل شيء هالـك إلا وجـه ا . خلق الأرض بقدرته ويبعث الخلق فيعودون وهو فرد وحده. أبي خير مني وأخي خير مني ولي ولهم ولكل مسـلم فـي رسول ا أسوة" كان يستعد بذاته للشدة ويـروي تفاصـيله بعينيه وهو ينظر لصحبه وأهلـه وعلـى وجـوههم سـمت الشهداء. قال لهم: "أني لا أعلم أصحاب أولـى خيـر مـن أصحابي ولا أهل بيت أعز ولا أوصل من أهل بيتي وجزاكم ا عني خيرا إلا وأنني أظن يومنا من هؤلاء الأعداد غدا ألا وأني قد أذنت فانطلقوا جميعا في حل ليس عليكم من دمـاء

هذا البيت قد غشيكم فاتخذوه بدلاً وليأخذ كل منكم بيد رجـل من أهل بيتي ثم اذهبوا في بسيط الأرض وفي سواد الليـل إلا بلادكم ومدائنكم فإنما القوم يريـدونني". أبـى الشـهداء إلا الشهادة فتجمعوا حول الحسين وقالوا قولة واحدة: "لا بقاء لنا بعدك لا أراد ا ذلك أبدا فالتفت الحسين إلى أخيه مسـلم بن عقيل وابن عمه وفارسه ومندوبه قال لهم: "حسبكم مـن القتل من قتل على يد والي الكوفة ويزيد بن معاوية، اذهبـوا فقد أذنت لكم" قالوا: "فما يكون ذلك يقولون أنا تركنا شـيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام لم نرم معه بسـهم ولـم نطعن معه برمح ولم نضرب معه بسيف رغبة فـي الحيـاة الدنيا. لا وا لا نفعل ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنـا وأهلنـا ونقاتل حتى نرد موردك فقبح ا العـيش بعـدك" وانطلـق الرفاق: "وا لا نخليك حتى يعلم ا أنا قـد حفظنـا غيبـة رسول ا ﷺ فيك: "انطلق الرفاق يقولون له ويقسمون معـه ويعلنون وإياه أنهم غير مفارقين وأنهم باقون معا. وقال لـه أحدهم: "وا لو علمت أنني أقتل دونك ألف قتلة وأن ا يدع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتـك لأحببت ذلك. إنما هي قتلة واحدة" كان ليل كربلاء يشهد على

هذه اللحظة النادرة في تاريخ البشـرية. صـحبة الحسـين يقولون: "لا أراد ا يوم فقدك ولا حاجة لنا في الحياة بعدك وا لا نفارقك وأنفسنا فداء لك. نفديك بأموالنا وأنفسنا وأهلنا وأبدائنا فإن نحن قتلنا وفينا أنت وقضينا ما علينـا فيكفينـا". قضـى الشـهداء لـيلهم يصـلون ويسـتغفرون ويـدعون ويتضرعون بينما جنود وفرس عدوهم تمـر مـن ورائهـم وصوت الحسين قوي نابعا من الجنة.. من خنـدق الشـهادة وخرج الضوء الأول من النهار على مشهد كـربلاء. وقـف الحسين بن علي فوق حصانه. نظر للكـون نظـرة مـودع والتفت للقوم التفاتة القائد. لحظة التفاتـة التـاريخ وتوقـف التاريخ على التفاتها. رفع الحسين يديه بالدعاء: اللهـم أنـك ثقتي في كل كرب ورجائي في كل شدة وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة. كم من المهم يضعف به الفؤاد وتقل فيه الحيلـة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو أنزلته بـي وشـكوته إليك رغبة مني إليك فيمن سواك فكشفته وفرغته فأنت ولـي كل نعمة وصاحب كل حب ومنتهى كل رغبـة" ثـم أمـر الحسين صاحبه بإضرام النار في الحطب والخشب والقصب من خلفهم حتى لا يأتي المهاجمون من خلفهم فاشتعلت النار

من كل المداخل إلى قلوب ربما فيها بصيص من أمل. وقف الحسين خطيبا في الفريق الظالم يتجول بفرسه يدور برأسه. يصافح العيون والقلوب والضمائر يمتلأ صوته حزنًا عميقًا مستقيما نافذًا يرفع يده إلى السماء يشير إلى صدره يربت على فرسه "أيها الناس اسمعوا مني نصيحة أقولها لكم. أيها الناس إن قابلتم مني وأنصفتموني كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم علي سبيل وإن لم تقبلوا مني فأجمعوا أمركم وشركائكم ثم لا يكون أمركم عليكم غيمة ثم اقضوا إلي ولا تظلمون هل يصح لكم قتال من هو مثلي وأنا ابن بنت نبيكم وليس على الأرض ابن بنت غيري وعلي أبي وجعفر ذو الجناحين عمي وحمزة سيد الشهداء عم أبي. قال رسول ا ﷺ لي ولأخي (سيدا شباب أهل الجنة) أيها الناس ذروني أرجع إلى مأمني من الأرض" هل كان من الممكن أن يستمع أهل الظلم والضلالة إلى كلمة طاهرة تمام الطهر قادمة من فم عفيف فم قبله الرسول عليه الصلاة والسلام؟ هل كان ممكنًا لهؤلاء الظلمة الفسقة أن يقتنعوا أن لا ابن بنت نبي على وجه الأرض غيره وأن النبي ﷺ قال له ولأخيه (أنتما سيدا شباب أهل الجنة)؟ هل كان من الممكن أن يرضخ قلب.. أن يتحرك

ضمير.. أن تسقط دمعة.. أن تبرق فكرة؟ قالوا له: ما منعك أن تنزل على حكم بني عمك؟" فقال: "معاذ ا أنـي عـذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب. أخبروني أتقتلونني بقتيل لكم قتلته أو مال لكم أكلته أو بقصاص مـن جراح" فأخذوا لا يكلمونه. صمتوا. فنادى: "يا فلان ألم تكتبوا لي أنه قد أينعت الثمار فأقبل علينا فإنما تقبـل علـى جنـد مجندة" لم تفلح كل المداخل وأدت كلها إلى الحقيقة المؤكـدة وهي أن الصراع لم يعد ضد الحسين ولكنه بات ضد أنفسهم وضد صوت العقل وهمس الضمير. كان لا بد وأن يحطموه ويقتلوه ويمثلوا بجسد الضمير وليس الحسين فقـط. زحـف عمر بن سعد قائد الجيش وقد أعمتـه الطموحـات الملكيـة وعشقه لولاية العهد في دولة الفرس فوضع سهمه في كبـد قوسه صم رمى وقال: "اشهدوا أني أول من رمـى" وبـدأت المعركة بهذه الانطلاقة من سهم عمر بن سعد فـإذا برجـل يقال له عبد ا بن حوزة يقف قبالة الحسين مناديا: "يا حسين أبشر بالنار" فأطرق الحسين مجيبا: "كلا أني أقدم علـى رب رحيم وشفيع مطاع" ثم التفت وسأل: "من هـذا؟" فقـال لـه أصحابه: "هذا ابن حوزة". فقال: "ربي حـزه إلـى النـار"

فاشتعل حوزة غضبا وهم باقتحام فرسه بينه وبين النهر فوقع منه وتعلقت قدمه بركاب الفرس ووقع رأسـه فـي الأرض ونفر الفرس فأخذت رأسه تصطدم بكل حجـر فـي الأرض حتى مات. لكن حتى المعجزات أو ما يبدو أنه معجزات لـم تكن قادرة على تغيير دفة المعركة. خرج رفيـق الحسـين وحافظ القرآن الذي كان يحفظه لعدد من رجال جيش القتلـة برقة وبرز يزيد بن عقل فانطلقا بفرسـيهما إلـى المبـارزة فخرجت ضربتان في نفس اللحظة من كليهما فأصابت برقـة صاحب الحسين ضربة خفيفة لم تضره أما ضـربته بسـيفه النار فقد اخترقت رأس يزيد فأفقدته التوازن والحياة فسـقط من الفرس صريعا فاندفع شخص آخر من رجـال الجـيش الظالم وسقط بجسده فوق برقة الذي عاركه مقاتلاٍ مستبسـلاً وبينما كان على وشك الانتصار فإذا بكعب بن زيد يغـرس رمحا في ظهره غدرا وخيانة فقاتل برقة والرمح مغـروس في ظهره بيديه وأصابعه لكن كعب بن زيد عالجـه بطعنـة قاسية فما كان من المقاتل الشرس صـاحب الحسـين إلا أن نهض على ركبتيه ونفض التراب عن جسده وهـو يقـول: "أنعمت علي يا أخ السوء نعمة لن أنساها أبدا ثم نظـر إليـه

والتفت ناحية الحسين مبتسما مودعا ثم إلى ذهب إلـى ربـه "اتجه الحر بن يزيد إلى إحدى قيادات الجيش الظالم ليتبـارز معه، كانت نفس الحر على كفه لذلك عنـدما رفـع السـيف وهوى به على الأخير مات من فوره في تلك اللحظـة كـان رجلات الحسين ينتصرون في كل مبارزة فصاح أحد رجال جيش القتلة بالناس: "يا حمقى أتدرون مـن تقـاتلون؟ قـوم مستميتون لا يبارزون منكم منهم أحدا فـإنهم قليـل وقلمـا يخسروا وا ولولا أن ترموهم بالحجارة لقتلتمـوهم" فقـال عمر بن سعد: "صدقت الرأي" ثم أرسل لرجالـه ألا يبـارز رجل منكم رجلاً منهم وأصدر أمره العسكري بمد فرسـان جيشه بخمسمائة من الرماة وشقوا خيل الاثنين وثلاثين فارس الحسين فماتوا جميعا. وصار أصـحاب الحسـين فـرادى راجلين فوق الأرض البطحاء التي رويت بدمائهم الزكيـة. وفي حين كانت الأحصنة تحمل الجروح فوق جيش الحسين المحدود في العدد والعتاد كان أحدهم يتضرع للحسين وهمس في أذنه وهو يقول على باب الآخرة ويلفظ أنفاسه الأخيـرة: "بشرني بالجنة بشرك ا بالخير" فقال له صديق آخر: "لولا أنني أعلم أنني في أثرك ورواحك لأحببت أن توصيني بكـل

ما أهمك" فرد عليه: "نعم أوصيك. أوصـيك أن تلـزم هـذا رحمك ا " وأشار بيده التي دنت من المـوت إلـى الحسـين وهمس همسته الأخيرة: "أوصيك أن تمـوت دونـه" فبكـى صديقه واحتضن جسده المسجي في دمائه وهتـف: "أفعـل ورب الكعبة". انطلق شمر الجوشن.. المرشح لقيادة الجـيش خلفًا لعمر بن سعد. نحو فسطاط الحسـين بينمـا اشـتعلت النيران في خيام الشهداء وأحرقوها عن آخرها. انطلق شمر نحو فسطاط الحسين حتى طعنه برمح فهوت الخيمـة علـى نساء وأبناء الحسين فصرخت النسوة ومزق صراخهن نيـاط القلب. ونادى شمر متوحشًا: "علي بالنار حتى أحـرق هـذا البيت على أهله "فصاح الحسين بـه: "حرقـك ا بالنـار" ساعتها رحل شمر دون أن يشعل نار حقـده فـي فسـطاط الطهر وبدأت قائمة الشرف في الاكتمال. الشهداء يـذهبون إلى ربهم يوصون الذي يحيى بالذي يحيـى بيـنهم شـهيدا ويستشهد بينهم حيا. يوصونه بالحسين حتى التفتوا فإذا هـم قلة يعدون على أصابع اليد الواحدة وأنهم باتوا لا يستطيعون منع حسينًا ولا أنفسهم فتنافسوا بأن يقتلوا بين يدين الحسين: "يا أبا عبد ا عليك السلام حادنا العدو إليك فأحببنا أن نقتل

بين يديك. نمتعك وندفعك عنك "فرد عليهم: "مرحبا بكم أدنوا مني" فدنوا منه.

"أتينا ابن عم وإخوان الأم" واقتربوا منه وهما يبكيان:

ـ "أي ابن أخي ما يبكيكما"

"جعلنا ا فداك، لا وا ما على أنفسنا نبكـي ولكننـا نبكي عليك نراك وقد أحيط بك ولا نقدر على نمنعك" ثم قائلاً بين يديه واقترب من الحسين حنظلة بن أسعد "أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بإخواننا" فقال الحسين: "رح إلى خيـر مـن الدنيا وما فيها وإلى ملك لا يبلى" فهتف به حنظلة: "السـلام عليك يا أبا عبد ا وعلى أهل بيتك وعرف بيننا وبين جدك رسول ا ﷺ "فقال الحسين: اللهم آمين". فقاتل حنظلة حتـى قتل، جثا أبو شعث الكندي على ركبتيه بـين يـدي الحسـن ورمي بمائة سهم أصابت كلها عدا خمسة فقط ثم عتل علـي بن الحسين الأكبر مضيئًا منطلقًا رافعا سـيفه علـى الظلـم وفرسانه والدنيا وزينتها بين لحظة وأخرى ينظر إلـى أبيـه فيشرب يقينه ويمتص رحيقه، يعـدو علـى العـدو ويقتـل ويصرع حتى لمحه (مر بن المنقذ) أحد فرسان الظلم فأوجس في نفسه أنه قاتله ولما هم علي فوق الأرض اجتمـع حولـه

حشد من السيوف التي تزاحمت فوق جسد الشاب وأعملت فعلها الوحشي في الفتى فاقترب الحسين محتسبا الأجر عند ربه ولثم ولده وبكى دمعه وهمس: "قتل ا قوما قتلوك يا بني ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة رسوله. على الدنيا العفاء من بعدك" ثم التفت وقال: "احملوا أخاكم". اندفع غلام من آل الحسين مذعورا من صوت السيوف ولون الدماء وعصف الجثث يلتفت يمينًا وشمالاً باحثًا عن حضن دافئ ينقذه من بشاعة ما يحدث فإذا برجل يخرج بسيفه راكضا على فرسه حتى دنا منه ومال عليه وقطع بالسيف وبينما سقط الابن الشهيد في حجر الحسين وحاول الحسين أن يغمض عينيه مبتعدا عن الدم المسكوب والجرح المفتوح إذ رماه أحدهم بسهم فذبحه في حجر الحسين فتلقى الحسين دمه في كفيه ثم صبه على الأرض وبيده المغطاة بدماء ابنه رفعها إلى ربه: "ربي إن تك حبست عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين"، مرت دقائق القتال عصيبة ودنت الشهادة حتى أعناق الرجال. عطش الحسين واشتد به العطش فاقترب ليشرب من الماء فأتاه أحدهم بسهم فوقع في فمه فجعل يتلقى الدم من فمه

ويرمي به إلى السماء: "اللهم أحصهم عددا واقتلهم جددا ولا تذر على الأرض منهم أحدا" ودخل الحسين معركته الأخيرة عطشانًا للماء وللشهادة.

الحسين أمام أربعة آلاف مقاتل إلا قليلاً. وحيدا في الصحراء والرمال والقتال والعدد والنقاء والبقاء. وحيد تماما. النساء يقفن أمام الخيام وينتظرن باكيات مروعات مجزوعات لهذا المشهد اللانهائي. علي بن الحسين طفله الصغير المريض العليل ينظر في حضن السيدة زينب. ينظر وهو محموم بهذا المشهد المضجع. وحيدا جدا. خيل سقطت وأخرى وقفت مجهدة مرهقة مدلاة الأذن والرؤوس بأجسام خرقت ودماء انتشرت وأعضاء بعثرت. سيوف تكسرن. رماح تحطمت. ثياب تمزقت. خيام أخرقت وحيد تماما. الكل يعرفه وهو وحيدا جدا قادما من زمن النبوة صاعدا إلى ربوة الجنة تحاصره عيون ورماح وسيوف وخيول تتشارك وتتقاسم كلها السواد. فصاح شمر في الناس" ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل. اقتلوه". فحمل عليه من كل جانب ضربه سيف في كتفه اليسرى ثم ضربه على عاتقه وانفضوا عنه وهو يميل ويكبو وحمل عليه سهام بن أنس فطعنه بالرمح

فوقع. جثا على ركبتيه وكتفيه وصدره. التفـوا واسـتداروا وعبثت خيولهم بالرمال واندفعوا وانهالوا بالسـيوف علـى جسده ثم هتفوا في (خولي بن يزيد): "اختر رأسـه" فـأراد أن يفعل فضعف وارتعد. لكنه لمح بريـق سـيف وصـوت السلطان فنزل عن فرسه وذبحه. ذبح الحسين. ثلاثة وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة في جسد الحسين. تقدموا منـه فانتزعوا سيفه وثيابه وسرقوا سراويله. وبقى وحيدا عاريـا. وحيدا تماما على الأرض المنكوبة. ثم تقدم القتلـة بخيـولهم فداسوا على عظامه ولحمه ومرت على جسده وضغطت على أطرافه وحطمت بدنـه وأصـابته بالكسـور والرضـوض والجروح، حوافر الخيل فوق صدر الحسين. خيل يزيد بـن معاوية ودولته فوق صدر وحلم الحسين.

سالم مولى أبو حذيفة

اشترى أبو حذيفة غلاما وقال إنه غدا به منزلة الابـن من أبيه فقالت قريش: "نعم ما صنعت" وكـان ذلـك تقليـدا طبيعيا ومتبعا قبل الإسلام، أن يتبنى أحد أحدا ويصبح اسمه ملتصقًا به. ومنذ ذلك اليوم أصبح الفتى يدعى سالم بن أبـي حذيفة. مرت شهور قليلة وبعث ا نبيه بدين الحق، فكان أبو حذيفة وابنه سالم من أوائل من شـرقت نفوسـهم بـإعلان الإسلام واستنارت قلوبهم بنوره. ومضى الأب وابنـه إلـى رسول ا ﷺ، وأعلنا إسلامهما بين يديه في ذلك الوقت ومنذ ذلك الحين شهدا مع النبي بعد أن شهدا الشهادة الأولى أن لا إله إلا ا وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله. لـم يمض وقت طويل على دخول أبي حذيفة وسالم دين ا حتى أنكر الإسلام التبني، وأمر الناس برد الأبناء إلى آبائهم حفظًا للأنساب. لكن المفارقة أن أبي حذيفة لم يهتد لوالد سالم على الرغم من كثرة البحث والتمحيص ومن ثم لم يجد لـه أبـا وذلك لأن سالما تم اختطافه وبيعه وهو صغير لم يدرك بعـد وهو يجلب إلى مكة ويباع في سوق النخاسة وهو في سـن لا تمكنه من أن يعرف لنفسه أبا أو أما. فأطلق عليه النـاس

سالم مولى أبو حذيفة. وأصبح سالم مولى أبو حذيفة لكن لـم تكن العلاقة بينهما علاقة مولى بمولاه ولكن علاقة أخ بأخيه وقد وحد الإسلام بين قلبيهما وآخى الإسلام بـين نفسـيهما وغمر قلبهما حب رسول ا وحب ا سبحانه وتعالى وحب دين الحق رغم فارق السن بينهما ورغم أنهما كان في عمـر الأب والابن إلا أنه بعد الإسلام صارا موقع الصاحب مـن صاحبه والصديق من صديقه. أصبح بين المصـاحبين منـذ اللحظة الأولى لإسلامهما ومنذ اللحظة الأولى حتى الأخيـرة لم يفرق بينهما أحد ولا شيء لكن فرق بينهما أحداث الشرك والكفر حينما حدثت أحداث جسام ومعانـاة جبـارة عاناهـا وكابدها المسلمون الأولون من قسوة الكفـار والمشـركين. اضطرت البعض إلى الهجرة. كانت الهجـرة الأولـى إلـى الحبشة مهاجرا إلى ا ورسوله فارا بعقيدته من أذى قريش. أما سالم فآثر أن يبقى في مكة مع رسول ا ﷺ. وأخذ سالم يعكف على كتاب ا عز وجل يأخذه غضا طريا كما أنـزل على النبي عليه الصلاة والسلام، ويتلو آياته البينات بخشوع ويستحضر سوره المنزلة بفهم وتدبر، وكان موهوبا في ذلك حتى غدا واحدا من كبار حملة القرآن في عهد النبي عليـه

الصلاة والسلام وأصبح رابع أربعة أوصى الرسول الكريم بأن يؤخذ عنهم القرآن فقال عليه الصلاة والسلام "اقرأوا القرآن من أربعة عبد ا بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل" فعرف الصحابة فضل سالم عليهم لحفظه لكتاب ا وإتقانه له وإدراكه لمراميه وتدبره معانيه ولم يعد سالم مولى أبي حذيفة مجرد صحابي في صحبة رسول ا بما لهم من فضل ومكانة ومنزلة وتقدير، ولكنه برز عنهم واختط لنفسه خطًا وعرف لنفسه مسارا وأدرك لنفسه تميزا وهو القرآن الكريم. فأصبح أحد أربعة يؤخذ عنهم قراءة القرآن الكريم، ولما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة دعوا سالم ليؤمهم في الصلاة ويدل ذلك على عظمة وروعة هذا الدين فسالم مولى أبو حذيفة مجهول النسب يؤم صحابة كثيرين ذوي حسب ونسب من قريش ومن عائلات عظيمة مثل أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وصحابة لهم مكانتهم في الثروة والثراء مثل عثمان بن عفان وغيره لكن عندما يذهب كل هؤلاء الصحابة إلى المدينة وكان الرسول عليه الصلاة والسلام وأبو بكر الصديق لم يأتيا بعد في هجرتهما. في تلك اللحظة يصبح إمام

المهاجرين هذا الذي بيع في سوق النخاسة ولا يعرف له أبـا وكان ابنًا متبنى واسمه سالم مولى أبـو حذيفـة وللإسـلام لحظات مشرقة كثيرة في تعامله مع العبيد. فهو جاء ليحـرر العبيد ويساوي بين البشر. فبلال بن رباح العبد عندما يتحرر بالإسلام يصبح صوت الإسلام وعندما يتحرر عبـد ا بـن مسعود بالإسلام من العبودية يصبح صوت القرآن الجهـور العالي. فهو أول من جهر بالقرآن في تاريخ البشرية في مكة وعندما يؤم للصلاة في غير وجـود النبـي عليـه الصـلاة والسلام ومع المهاجرين في دولة النبي الجديدة يصبح سـالم مولى أبو حذيفة إمام المهاجرين هو الذي يؤم الصلاة. هـل هناك مساواة وعدل أكثر من ذلك؟ وما زال سالم مولى أبـو حذيفة يصلي بهم حتى قدم النبي عليه الصلاة والسلام، عندما فتحت مكة للمسلمين أرسل الرسول عليه الصـلاة والسـلام بعض السرايا إلى ما حول مكة من قرى وقبائل، وأخبـرهم النبي عليه الصلاة والسلام أن هذا السـرايا والمجموعـات الصغيرة إنما يبعث بهم دعاة لا مقاتلين. عندما كان الرسول يحاور ويبشر ويدعو كان يبعث بالسرايا دعاة لا محـاربين وكان على رأس إحدى هذه السرايا خالد بن الوليد وكان في

أول إسلامه وكان على فروسيته ووجاهته وقوته إلا أنه كان به شدة وعنف ما من اللحظة الأولى لقيادته وظلت الأمـور تتراكم حتى عزله عمر بن الخطاب ﷺ عن قيـادة الجـيش وكانت تولية خالد بن الوليد لقيادة هذه السرية لـيس لإراقـة الدم واستعمال السيف لكن عندما ذهب خالد بن الوليد استخدم السيف وعندما سمع النبي عليه الصلاة والسـلام نبـأ هـذه الواقعة اعتذر إلى ربه طويلاً وهو يقول: "اللهم أني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد" وظل أمير المـؤمنين عمـر بـن الخطاب يذكرها له ويأخذها عليه ويقول إن سيف خالد بـن الوليد فيه رهق أي اندفاع وطيش وتعامل عمر بن الخطاب مع دعوة الرسول على أنها منهج وأنه لا يصح أن نتعامـل مع الناس بعصبية السيف والعصبية هنا لا تعنـي العصـبية القبلية وإنما عصبية التوتر. كان خالد بن الوليد يصحب فـي هذا السرية سالم مولى أبي حذيفة مع غيره من المهـاجرين والأنصار. ولم يكد سالم يرى صنيع خالـد حتـى واجهـه بمناقشة حامية وراح يعدد له الأخطاء التي ارتكبها رغم أنهم في سرية عسكرية ولا يوجد في الجيش نقاشات ديموقراطية من هذا النوع ولا يوجد أخذ ورد لكن سالم مولى أبي حذيفة

كان ذاهبا بوصفه داعية وليس مقاتلاً فكان لا بد أن يواجـه ويناقش. ولما بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام ما فعله خالد بن الوليد سأل: "هل أنكر عليه أحد؟" ما أجلـه مـن سـؤال وما أروعه وسكن غضب النبي عليه الصلاة والسلام عندما أخبروه أن سالم مولى أبو حذيفة راجعه وعارضـه. عـاش سالم مع الرسول والمسلمين لا يتخاف عن غزوة ولا يقعـد عن عبادة وكان إخاؤه بأبي حذيفة يزداد مـع الأيـام حتـى اللحظة التي شهدت قمة هذا التمازج والتماسـك والتواصـل والانصهار بينهما في موقعة اليمامة. كان النبي عليه الصلاة والسلام قد توفي وتولى أبو بكر الصديق الخلافة. وفي الأيام الأولى لعهد أبي بكر الصديق ارتدت العرب حيث أعلن كثير من العرب ردتهم سواء عن طريـق رفـض دفـع الزكـاة أو مناقشة أهمية الصلاة والصوم والخمس الذي كـان يـدفع للنبي هل يدفعونه أم لا؟ وكانت المحصلة هي أنه كانت هناك ردة وكان هناك موقف حاسم لأبي بكر الصـديق بالتصـدي لهذه الردة فيما عرف باسم حروب الردة. في ذلك اليوم فـي موقعة اليمامة وكان أحد الأيام الذي شكل مفصلاً في تـاريخ الإسلام، كان قتال مسيلمة الكذاب. استنفر المسلمون في كل

مكان للقضاء على كلمة مسيلمة الكذاب العمياء التي أوشكت تودي بدولة الإسلام وتدمر أهلها. بادر سالم وأبـو حذيفـة بالذود عن دين ا فلم يكن سالم يتوارى في لحظات القتـال والنضال أو يغيب عنها. كان قارئًا للقرآن حافظـًا ومعلمـا وفقيها له. لكنه كان سيفًا ساعة الحرب. ويمكـن أن نطلـق عليه مصحف وسيف. وكان سالم مولى أبو حذيفة من أبـرز حفظة القرآن الذين توفوا في موقعة اليمامة. خرج سالم وأبو حذيفة لقتال مسيلمة الكذاب فـالتقى الجمعـان علـى أرض اليمامة ودارت بينهما معركتان طاحنتان أبلى فيهما المسلمون بقيادة عكرمة بن أبي جهل وخالد بن الوليـد الكثيـر مـن ضروب الشجاعة. كما تقول كتب التاريخ يعجز عن وصفها الواصفون. وكان المسلمون المتأخرون أمثال خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل بواسل هذه المعارك لإثبات جـدارتهم بدين ا ولإثبات تعلقهم بدين ا ولإثبـات قـوة إسـلامهم وإيمانهم وفروسيتهم وأهميتهم لهـذا الجـيش العظـيم مـن المهاجرين والأنصار، كما أنهم يريدون أن يعوضوا ما فاتهم من مشاركة مع النبي عليه الصلاة والسـلام فـي غزواتـه وفتوحاته وتحت إمرته وقيادة جيشه وربما أيضا يريدون أن

يعوضوا اللحظات المريرة التي وقفوا فيها كأعداء مشـركين في وجه رسول ا فكان خالد بن الوليد وعكرمة بـن أبـي جهل من القيادات العظيمة في تلـك المواقـع والمعـارك، بالإضافة إلى شرحبيل بن حسنة والعلاء الحضـرمي لكـن المرتدين بقيادة مسيلمة لم يكونوا أقل إقداما على ما يفعلـون وكانوا يملكون عصبية شديدة جديدة وتحمسا مجنونًا في هذه المعارك. كان النصر في معركتي اليمامة حليـف مسـيلمة الكذاب حتى أن رجاله اقتحموا خيمة خالد بن الوليد وكـادوا يقتلون زوجته لولا أن أجارها رجل من جـيش المسـلمين. في تلك اللحظة دبت الحمية في صدور المسلمين وبرز بينهم أبطال عز ميامين باعوا نفوسا تموت اليوم أو غدا بنفوس لا تموت أبدا وهي الشهادة. أعاد خالد بن الوليد تعبئة الجيش فأسلم لواء المهاجرين لسالم مولى أبي حذيفـة فهـو غمـام المهاجرين في الصلاة والحرب وأسلم لواء الأنصار لثابـت بن قيس ووقف أبو حذيفة وهو ينادي: "يا أهل القرآن زينـوا القرآن بفعالكم" ثم ذهب مجاهدا حتى استشهد مقبلاً نحو جنته أما سالم مولى أبو حذيفة فتوجه إلى المهاجرين وقال: "بـئس حامل القرآن أنا إن أخذ المسلمون من جهتي وأعلن القتـال

حتى الشهادة" ثم اندفع يدافع عن راية دينه حتى قطعت يـده فأخذ الراية بشماله وناضل عنها حتى قطعت هي الأخـرى فأخذ الراية بعضديه وفخذيه وثبت بها حتى ملأته الجـراح، وسقط على الأرض ولما انتهت المعركة وقف خالد بن الوليد على جسد سالم مولى أبو حذيفة المسجى أمامه وكان لا يزال به رمق فقال له سالم: "ما صنع المسلمون يا خالد؟" فأجابـه: "كتب ا لهم النصر وقتل مسـيلمة الكـذاب وهـزم جنـده وأتباعه" فسأل سالم: " وما فعل أخي أبو حذيفة؟" فرد خالـد: "مضى على ربه مقبلاً غير مدبر وقتل شهيدا" فقـال سـالم: إمام المهاجرين في الصلاة والحرب ورافع رايتهم في رمقه الأخير: "أضجعوني إلى جواره" فقالوا له: "ها هـو ذا راقـد في شهادته عند قدميك" فأغمض عينيه وهو يقول: "معا هنا يا أبا حذيفة ومعا هناك إن شاء ا " ولفظ آخر أنفاسه.

مواقف عمرية

تتوقف كتب التاريخ عند سيرة عمر بن الخطاب عنـد نقطة في غاية الأهمية والدقة والرقة. عنـدما نتأمـل فيهـا ونكتشف أن سيدنا عمر بن الخطاب كان قد أصـدر قـرارا واضحا صارما لا فصال فيه ولا تراجع عنـه ولا مراجعـة معه وهو ألا يترك المدينة أحد من المهاجرين، وألا يخـرج خارج حدودها إلا بإذن منه وكان لا يأذن إلا بموافقـة منـه وكان يوافق على مضض أحيانًـا وأحيانًـا أخـرى كثيـرة يرفض. كان الخروج الكبير من المدينة المنورة فـي وقـت وتوقيت سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمعنى أن سنوات خلافة أبي بكر القليلة استغرقت في حروب الردة والمرتدين وكانت هناك وقتئذ حروب حقيقية وانتصارات فاتحة فـي العـراق شمالاً لكنها لم تكن على نفس درجة وأهمية واتساع الحروب التي تمت في عصر سيدنا عمر بن الخطاب، ويحـدث هنـا مفارقة غريبة وهي أن سيدنا أبا بكر الصديق كـان يسـمح للصحابة وللمهاجرين أن يتركوا المدينة المنورة وأن يخرجوا منها قتالاً أو إقامة خارج المدينة في الشام والعراق وما إلـى ذلك من البلاد المفتوحة وليس في الجزيرة العربيـة. لكـن

سيدنا عمر بن الخطاب أصدر قرارا بمنع الصحابة من ترك المدينة والخروج منها. السؤال الأول الذي يسترعي انتباهك هو لماذا كان الصحابة يريدون الخروج؟ هذه المدينة المنورة التي تشهد في كل شبر ومتر منها ذكرى غـزوة أو جلسـة أو لقاء مع رسول ا . وتمتلئ بعطر النبوة ونفحاتها وذكراها وسنوات الانتصار العظيمة. وفترة الإيمان العظمى وإشراق الإسلام. فإذا كانت الناس تسعى حثيثًا بعد ١٥٠٠ سنة إلـى الذهاب إلى المسجد النبوي لتحتمي به وفيه فما بال هـؤلاء الصحابة المهاجرين كانوا يريدون الخروج منهـا؟ السـؤال الثاني هو ما حكمة هذا القرار؟ كان لعمر بن الخطاب تعبير قوي هو "أن قريش تريد أن تتخذ مال ا معونات دون عبادة ألا وابن الخطاب حي فلا أني قائم دون شعاب المدينة فأخـذ برجال قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار" إلى هذه الدرجة كان عمر بن الخطاب يعتقد أن خروجهم معناه التهافت إلـى النار. فلما تولى عثمان بن عفان الخلافة سار سيرا آخـر.، وتكتشف أن هناك خلافًا واضحا شاسعا كبيرا بـين سياسـة ثلاثتهم رغم أن عثمان بن عفان عندما تولى الحكم اشـترط عليه أن يأخذ بسنة النبي عليه الصلاة والسلام وسنة الخلفـاء

الراشدين من بعده أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب لكنه خالف من هذه السيرة والسنة تماما (سنة الشيخان) وهذه علامة فارقة وشديدة الإيضاح الفرق بين سياسة عثمان بن عفان وسياسة عمر بن الخطاب وهذا شيء لا يعيب أيا منهما. فالخلاف في الفقه رحمة فما بالك بالخلاف في السياسة هو تقدم ولا شك. لا داعي لإيضاح الفرق بين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان فكلاهما صحابي عظيم جليل لا قبل لأحد أن يصل إلى هذه القامة العظيمة الرائعة الرفيعة العالية في التاريخ الإسلامي ولا قبل لأحد أن يتحدث عن فروق بين شخص وآخر. لكن يمكننا لكي نتعلم ونتدبر ونفهم أن نقارن بين سياسة وأخرى. كانت سياسة عمر هي منع المهاجرين من الخروج من المدينة ووصل به الأمر أنه كان يمنعهم من الجهاد والقتال في سبيل ا ، وهنا يبرز السؤال من الممكن أن يخرج الصحابي من المدينة إلى العراق أو الشام أو مصر لكن كيف يطيق أن يقيم ويعيش هناك بعيدا عن بيت ا الحرام وبعيدا عن المدينة المنورة والمسجد النبوي؟ حيث اقتصر قرار عمر بن الخطاب على منع الصحابة من الخروج من المدينة فقط. أما عثمان بن

عفان فلم يأخذهم بالذي أخذهم به عمر بن الخطاب فانساحوا ـ فانطلقوا ـ في البلاد وسكنوا وأقـاموا فلمـا رأوا الـدنيا ورآهم الناس كان ذلك ـ كما يقول بعض المؤرخين ونقـاد التاريخ ـ أول وهن دخل على دولة الإسلام أي أن ذلك كان أول ضعف وفتنة في العامة وكانت تلك اللحظات هي التـي بدأت، فيها الوهن والضعف في الدولـة الإسـلامية. وهـي اللحظات التي بني عليها بعد ذلك حالة وظاهرة الفتنة الكبرى في التاريخ الإسلامي والحـرب الأهليـة التـي دارت بـين المسلمين وانتهت إلى تحول الخلافة الإسـلامية إلـى ملـك عضود. ملك معاوية والوراثة وما إلى ذلك من قرون يمكـن أن تعتبرها قرون فتح سبيل ا واتساع لدولة الإسلام لكنهـا كانت أيضا عصورا من الاستبداد. وانتهـت إلـى تسـاقط وتهافت هذه الحضارة الإسلامية العظيمة والتي بنيت بالإيمان وسقطت بالاستبداد ـ ويقولون إنه عندما مـات عمـر بـن الخطاب لم يمت حتى ملته قريش لأنه حاصـرهم بالمدينـة وامتنع عليهم قائلاً: أن أخوف ما أخاف علـى هـذه الأمـة انتشاركم في البلاد" لدرجة أن الرجل كان ليستأذنه في الغزو وهو ممن حبس في المدينة من المهاجرين، فكان عمر بـن

الخطاب يقول له: "يكفيك غزوك مع رسول ا ". لكن عثمان بن عفان خلى عنهم فانساحوا وانتشروا في الـبلاد فـانقطع إليهم الناس. فكان عثمان بن عفان أحب إليهم.

عندما خرج الصحابة من المدينة بدأ النـاس يجتمعـون حولهم وبدأ الناس يعاملون الصحابي على أنه المهاجر فـي سبيل ا   مع النبي. إذن له من التقدير والمكانة مـا تحـول الأمر معه إلى قيادات منفصلة وجزر منعزلة، لكن الفاصـل في هذا القرار أن عمر بن الخطاب منع مهـاجري المدينـة المنورة من الخروج منها والانطلاق فـي الأرض الرحبـة، وحتى من الخروج والمشاركة في القتال من أجل رفع رايـة الإسلام وإعلاء راية ولواء الإسلام خفاقًا عاليا في السـماء، لأنه كان يعرف طموح قريش ورغبتها في النفـوذ. وكـان عمر بن الخطاب يدرك ويعلم ويعي أن الإقبال على الإسلام مفتوح للإقبال بالإسلام على السلطة أيضا. بمعنى أنه هنـاك سلطة ونفوذ ومال وثروة. وإسلام عظيم يفتح العالم كله فهذا يجعل صاحب الرغبة في العلو والرفعـة والشـأن والشـأو والمكانة أن يصبح مفتوحا أمامه إغراءات وإغواءات أخرى. فقريش معتادة على السلطة والقيادة والمكانة والعظمـة ثـم

أصبحوا مؤمنين بدين عظيم وفاتح متألق في قوته وعظمتـه وفتحه ورفعته، وهو ما يغري بالبحث عـن قـوة إضـافية ومكانة عالية وسلطة وعظمة دنيوية.

عندما قرر سيدنا عمر بن الخطاب أن يمنع المهاجرين وأهل قريش من الخروج من المدينة المنورة كـان يعـرف قيمتهم وكان يعرف ما عرف الرسول ﷺ لهـم مـن فضـل ومنزلة عظيمة. منزلة الهجرة مع النبي عليه الصلاة والسلام في سبيل ا إلى المدينة المنورة وعندما حبسهم في المدينـة اختصهم بكثير من العناية والرعاية والعطايـا والرواتـب. وكانوا يمارسون التجارة والأعمال داخـل المدينـة، فلـيس المقصود من تعبير (حبسهم) أنه سجنهم أو أنه كان يعـاملهم معاملة الطبقة الأقل أو أنه كان يظلمهم. فعمر بن الخطـاب لم يظلم ليشتهر بالعدل وإنما هو عادل فـي كـل تصـرفاته وقراراته على الأقل عندما نحللها ونقيسها بعد ١٥٠٠ سـنة. كان عمر بن الخطاب حريصا عليهم لدرجة وقوفـه علـى شعاب (حدود) المدينة المنورة وهذه الاستعارة البلاغية التي قدمها عمر بن الخطاب ليظهر إلى أي حد هو متشدد في هذا الأمر، بأنه سيقف بنفسه على حدود المدينة ليمنع أي مهاجر

من الخروج من المدينة إلى العراق أو الشام. كان كثير مـن أبناء قريش عن نية صادقة يريدون أن يعوضوا بالبلاء فـي القتال في الفتوح الإسلامية ما فاتهم من مشاركة ومصـاحبة النبي في غزواته وقتاله ومعاركه، ولذلك كان أكثـر النـاس سرعة في الاستجابة إلى الغزو سواء في الدفاع عن الإسلام في حروب الردة أو في الفتوحات العربيـة الكبـرى التـي انطلقت إلى الشام والعراق وفارس ومصر، وكانوا من أكثر الناس الذين نفروا إلى القتال خفافًا وثقالاً هم الـذين أسـلموا في وقت متأخر بعد انتصار الإسـلام وفـتح مكـة. كـان المسلمون المتأخرون في إسلامهم من أبنـاء قـريش أهـم وأسرع وأقوى الناس في المشاركة في الحرب من أجل الفتح الإسلامي. لماذا؟ ليعوضوا ما فاتهم مع النبي عليه الصـلاة والسلام ورغبة في الشهادة ورغبة في إظهار كـل كـوامن الإيمان وكيف أن الإيمان تغلغل فيهم تماما، فكانـت حالـة الفرار إلى المعارك. وكانوا من أقوى المجاهدين وكان منهم شهداء كثيرون والواقعة الشهيرة التي نكررها هي أنه عندما مات عكرمة بن أبي جهل، واستشهد في معركة اليمامة التي كانت ضمن حروب الردة على جيش مسيلمة الكذاب. عندما

استشهد عكرمة أراح خالد بن الوليد رأسه على حجره فقـال عكرمة: "يزعم عمر أننا لا نستشهد" بمعنى أن سيدنا عمر بن الخطاب كان يرى أن طموح القريشيين إلى الدنيا أعلى كثيرا من طموحهم إلى الدين. وكانت هناك رغبة مـن زعامـات ورجال قريش من المسلمين المتأخرين إلى الإسلام قبـل أي شيء وقبل أي رغبة في عظمة دنيوية.

أيضا من مشاهد عمر بن الخطاب مع الصحابة مشـهده مع عبد الرحمن بن عوف أعظم الأثرياء وأثـرى العظمـاء والمبشر بالجنة حيث كان النبي عليه الصلاة والسلام قد أحل له لبس الحرير بقرار استثنائي نبوي لأنه كان يعـاني مـن حساسية - أو كما تقول كتب التاريخ من حكة - من القماش العادي فكان يلبس الحرير حتى لا يصاب جسـده بالتهـاب. ومن المعروف أن لبس الحرير ممنوع دينيا للرجـال فكـان لا بد من استثناء نبوي، فأحل له النبي لبس الحرير، أقبل عبد الرحمن بن عوف ذات يوم على سيدنا عمر بـن الخطـاب ومعه أحد أبنائه وقد لبس قميصا من حرير فنظر إليه عمـر وسأله: "ما هذا؟" ثم أدخل يده في جيب القميص فشقه علـى نصفين، فقال عبد الرحمن بن عوف: "ألم تعلم أن رسول ا

ﷺ رخص لي في لبس الحرير؟" فرد عليه عمر بن الخطاب: "بلى لشكوة شكوتها أما لبنيك فلا." كـان الحسـم العمـري واضحا في ألا يستخدم النص النبوي بشكل فيه امتياز وتمايز وبتجاوز عن سواء الأمر وحقه. فكان عمر بـن الخطـاب شرسا في الحق ويرفض توسع المهاجرين فيما منحهم إيـاه الرسول عليه الصلاة والسلام من منزلة وكرامة. عندما جاء عثمان بن عفان كان عليه أن يسلك سـبيلاً مـن السـبيلين لا ثالث لهما، إما أن يشتد كما اشتد عمر فيمسـك زعمـاء المهاجرين في المدينة، ويظهر لعامة قريش ما كان عمر بن الخطاب يظهر لها من سوء الظن في نظرة آل قريش علـى أمور الحكم والولاية. وكان عمر بن الخطاب يريدها شـائعة بين العرب والمسلمين فلا ينهض بهـذه الخلافـة والولايـة وأمورها إلا القادرون على احتمال أعبائها أو أن يخلي بـين قريش وبين الطريق إلى السلطة والولاية.

كان عثمان بن عفان أمام أحد الخيارين إمـا أن يمنـع أو يترك ويفتح فاختار الثانية راضيا أو مقتربـا بهـا إلـى نصرته وأهله وعشيرته، فخالف بذلك السيرة العمرية مخالفة كانت أشد خطرا وخطورة من أي شيء آخر. كمـا أعطـى

عثمان بن عفان كثيرا من الأموال والمنح والجواهر، وسـمم بالتفرق إلى الأرض فاجتمع جند غالبون برعيـة مغلـوبين. جند عظام جدا يتعاملون مع أغلبية مهزومة بما عندها مـن إحساس في التقرب ورغبة في التودد والـتعلم أيضـا مـع إسلامهم. فأصبح لكل شخص من الذين ذهبوا وتفرقوا فـي الأرض من أصحاب المال والثراء من الجند الغالبين، أصبح لكل منهم أتباع وأشياع ولكل منهم حزب يرى أنه أحق الناس بولاية أمور المسلمين، وينتهز الفرصة ليتمكن مـن ولايـة أمور المسلمين خاصة أن عثمان بن عفان عين كثيـرا مـن أقاربه وذوي رحمه وأبناء أسرته وتحول هذا الأمر من منع للمهاجرين وآل قريش من الخروج من المدينة المنورة إلـى الأمصار والولايات إلى السماح عندما أذن عثمان بن عفـان بالخروج من المدينة. فأصبحت هناك مراكز قـوى ضـخمة وكبيرة وسياسية ودينية، فأصبح هناك مدارس وأفكار وفقـه مختلف ومغاير كما أصبح هناك مراكز ثراء. وأدت كل هذه الأمور إلى الثورة على عثمان والتي أدت بدورها إلى مقتله.

بلال.. نداء الحق

إذا افترضنا أن بلال بن رباح أسلم في السـنة الأولـى للدعوة حيث كان سبب إسلامه أبا بكر الصديق. ومـن ثـم حدث ذلك في السنة الأولى للـدعوة فهـذا يعنـي ببسـاطة أن بلال شهد الإسلام في مكة قبل الهجرة، ثم شهد الإسـلام في المدينة منذ الهجرة وحتى وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ثم مات بلال عام ٢٠ هجرية في خلافة عمر بن الخطـاب، أي أن عمر بلال في الإسلام أكثـر مـن ٣٠ عامـا. هـذه الثلاثون هي أعظم فترة في التاريخ الإسلامي ففيهـا عهـد الرسول عليه الصلاة والسلام ثم الشيخين أبي بكر الصـديق وعمر بن الخطاب. وهي الفترة التي كـان الإسـلام فيهـا صافيا، وكانت الدولة الإسلامية هي الأعظم في أنحاء العالم صفاء ونقاء". نستطيع أن نقول إن بلال عاشر أحسن وأفضل سنوات الإسلام وعافاه ا من شرور الفتن. حين يقتل المسلم أخاه المسلم أي أنه لم يختبر في معركة الفتنة عندما انقسـم المسلمون إلى فسطاطين. معسكرين. حزبين. قسمين. ففـي البداية كانت الثورة على عثمان وانقسم فيها المسلمون ما بين مؤيد لعثمان ومعارض له، ثم ما بين مؤيد للثورة عليه بشكل

حاسم حتى قتله أو عزله، وبين معارض لـه لكنـه لا يقـر الثورة المسلمة عليه ثم ما بعد عثمان مـن انقسـام العـالم الإسلامي بين علي ومعاوية. إذن عاش بلال الإسـلام بـلا حرب أهلية وبلا دم الإخوة الإسلامية. عاش بـلال لصـيقًا بالنبي عليه الصلاة والسلام في المدينة المنـورة. والغريـب عند النظر في الطبائع الإسلامية هو أنه بمجرد وفاة النبـي عليه الصلاة والسلام لا يطيق بلال البقاء في المدينة المنورة. ظل في المدينة المنورة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسـلام عظماء الصحابة مثل أبو بكر الصديق وعمر بـن الخطـاب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلي بـن أبـي طالب رضوان ا عليهم جميعا. فما سبب سلوك بلال؟ ألـم تكن في هذه المدينة حبيبـك ونبيـك وذكـرى هـذا النبـي والحبيب؟ فإذا بك تنصرف عنه وتفر منه. سبب ذلـك هـو اختلاف الناس في ذوق وتذوق الحياة ومذاق القلـوب فلكـل إنسان تعبيره الخاص عن مشاعره نعرف أن تعبير عمر بن الخطاب عن مشاعره. في لحظة وفاة النبي عليـه الصـلاة والسلام كان تعبيرا غاضبا حانقًا مكذبا هذا الـزعم، مهـددا الذين يدعون بالباطل أن النبي قد مات بالقتل، فلما جاء أبـو

بكر الصديق وكان خارج المدينة ليومين لم يعلم فيها بوفـاة النبي وخلال تلك الفترة كان جسد النبي مسجى على فراشـه ولا أحد يعرف ماذا سيفعل مع موت النبي والناس منقسـمة ما بين مصدق ومكذب لموت النبي، وظل عمر بن الخطاب طوال هذين اليومين يهدد بقتل من يقول إن النبي قد مـات. وكان يرى أن روحه قد بعثت أربعين يوما كما بعث موسـى وأن روحه خرجت لكنها ستعود مرة أخرى، وعندما جاء أبو بكر الصديق وقال قولته الشهيرة: "من كان يعبد محمدا فـإن محمدا قد مات ومن كان يعبد ا فإن ا حـي لا يمـوت" في هذه اللحظة أدرك عمر الحقيقة، فسقط مغشيا عليه. هـذه النفس البشرية، نفس عمر بن الخطاب بكل عظمته وروعته وعقله الرهيب، لكنه جاء في لحظة وأنكر الموت وأدى حزنه وخوفه على النبي ورجعته من تلك اللحظة الشنيعة إلـى أن يسقط مغشيا عليه بعد هذا الإنكار إلا أنه بعـد ذلـك بعـدة ساعات يذهب إلى سقيفة بني ساعدة ويقود معركة سياسـية شديدة عظيمة لانتخاب أبي بكـر الصـديق. أي أن الـنفس البشرية في حالة من حـالات التـويج لاختلافهـا أيضـا. بلال بن رباح فبينما آثر بعض الصحابة البقاء في المدينة إلى

جوار عطر النبي عليه الصلاة والسلام ونفحه. كان الـبعض الآخر ومنهم بلال لا يحتمل أن يظل في مكان بعد أن غـاب عنه حبيبه الذي ليس كمثله حبيب. لكن متى خرج بلال مـن المدينة؟ هناك روايات تقول إنه خرج بعد وفاة النبي مباشرة وروايات أخرى تقول إنه خرج بعد وفاة أبي بكر الصـديق. إذا كان بلال قد خرج من المدينة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام مباشرة فهذا يعني أنه لم يشارك في حروب الـردة، وهنا يبرز سؤال هو أين ذهب بلال في تلك الفترة؟ حيث لم تكن الدولة الإسلامية قد اتسعت بعد ولم يكن هناك أمصـار مفتوحة في العراق والشام ومصر. هناك رأي آخـر يقـول إن بلال خرج من المدينة في عصر عمر بن الخطـاب مـع الجيوش الذاهبة إلى الشام للحرب. وكان عمر بن الخطـاب يمنع المهاجرين من الخروج من المدينة المنورة إلا بـإذن. وإن كان لا يأذن وإلا بأمر شخصي منه وكان لا يأمر لدرجة أنه كان واقفًا على حدود المدينـة ليمنـع المهـاجرين مـن الخروج أو هكذا كان يقول لإظهار مدى حسمه في هذا الأمر لدرجة أنه عندما كان يستأذنه أحد الصحابة فـي الخـروج للغزو والجهاد كان يقول له: "يكفيك غزوك مع النبي عليـه

الصلاة والسلام". هل يعني هذا الأمر العمري أنه من الممكن أن يكون بلال قد خرج في فترة وولاية وخلافة عمـر بـن الخطاب؟ الأمر يحيطه غموض ما عند هذه النقطة. خاصـة إذا عرفنا أن بلال كان جنديا عظيما. فإذا كان قـد شـارك في حروب الردة فكان لا بد من ذكر الموقعة التي شارك فيها وما فعله من بطولات وفي أي جيش ومع أي رفقـة كـان. فلم يكن بلال يحضر في مكان إلا ويبرز فيه اسمه ومن ثـم فأغلب الظن أن بلال قد خرج من المدينة المنورة في عصر أبي بكر الصديق أي أنه لم يستطع أن يظل في مكان كان فيه النبي ومات. وهناك قرائن أخرى على أن بلال خـرج مـن المدينة المنورة في فترة خلافة أبي بكر الصديق منها مـثلاً أنه لم يؤذن بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام إلا مـرتين الأولى عندما طلبت السيدة فاطمة بنت محمد أن تسمع الآذان الذي كان يسمعه أبوها وكما نعلم فإن السيدة فاطمـة أعظـم نساء الأرض وأحب خلق ا إلى قلب سيدنا محمـد عليـه الصلاة والسلام وهي أم الحسن والحسين. كان قد أطلق على بيت السيدة فاطمة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام بيـت الأحزان أو بيت الحزن حيث عاشت السيدة فاطمة من ٤٠ ـ

٧٠ يوم بعد وفاة النبي قبل أن تتوفى، ويقال إنها لم تتوقـف عن البكاء خلال تلك الفترة حتى سمي بيتها بيـت الحـزن. وفي لحظات الحزن الشديدة تلك طلبت السيدة فاطمة من بلال أن يؤذن لها بهذا الصوت الرائع العظيم الشجي الذي كانـت تسمعه في فترة النبي، ومن ثم يذكرها بوالدها العظيم النبـي الكريم. واستجاب بلال لأمر السيدة فاطمة وطلبها حيث كان يعلم كل من على الأرض وقتها مكانة السيدة فاطمة في قلب سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فأذن بلال وبكـت السـيدة فاطمة كما تبكي حبا لرسول ا وبكت المدينـة كلهـا. أمـا المشهد الثاني الذي أذن فيه بلال بن رباح بعد توقفـه عـن الأذان بعد وفاة النبي فهو عندما ذهب عمر بن الخطاب إلى الشام ليتسلم مفاتيح بيت المقدس. وهناك التقى ببلال ووسـط جمع منتصر عظيم وارتفاع راية الإسـلام. هـذا الوضـع النفسي هو الذي جعل عمر بن الخطاب يشعر أنه يريد سماع صوت بلال بن رباح مؤذن الرسول ليتذكر معه تلك المشاهد العظيمة مع النبي الكريم ولحظات الذكريات المشرقة الجميلة في التاريخ الإسلامي. كان الصحابة يريدون أن يتذكروا يوما كانوا فيه مع نبي ا عليه الصلاة والسلام فطلب عمر بـن

الخطاب من بلال أن يؤذن فأذن بلال من أجلهم بصوته وكان ما كان من ارتجاج المعسكر كله بالبكاء ثـم بالتهليـل ثـم بالتكبير. إذا أضفنا هذين المشهدين إلى حقيقة أنه لم يـؤذن بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ولـم يشـارك فـي حروب الردة وأن عمر بن الخطاب كان قـد أصـدر أمـرا يقضي بمنع خروج المهاجرين من المدينة، فيدلنا هـذا كلـه على أن بلال بن رباح مؤذن الرسول خـرج مـن المدينـة المنورة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، وهو دليل على نفس عظيمة ومشاعر رقيقة في منتهـى الشـفافية والحـب والعاطفة المرهفة اسمها بلال بن رباح. أحد مفاتيح شخصية بلال بن رباح هو خروجه من المدينة بعد وفاة النبي عليـه الصلاة والسلام مباشرة حيث استأذن بلال الخليفة أبـا بكـر الصديق وخرج إلى الشام رغم أنها لم تكن قد فتحـت بعـد الفتح الإسلامي الكبير وهذا يدل على أن بلال لم يكن ليقـيم المدينة المنورة وهي خالية من نورها العظيم البازغ. نـور محمد ﷺ. لم يكن يتحمل مقاما خاليا من النبي. هذا الفـراغ الكبير الذي خلفه النبي عليه الصلاة والسلام هو الذي دفـع بلال إلى الخروج من المدينة والجزيرة العربية كلهـا حتـى

وفاته عام ٢٠ هجرية، كان بلال هو أول عبد يعلن إسـلامه فأول حر آمن بالإسلام هو أبو بكر الصديق والذي كان سببا في إسلام بلال بن رباح ثم أصبح بلال مؤذنًا للرسول وكأن الإسلام والرسول عليه الصلاة والسلام قررا أن يكافئا رمـز العبودية التي تحررت بالإسلام. هذا الدين الحر بأن يصـبح صوتًا للإسلام. فهو أول من رفع آذانًا للصلاة. وهو أول من ارتفع صوته بهذا النداء الذي أصـبح بعـد ذلـك ولألـف وخمسمائة عام تالية وإلى أن يرث ا الأرض ومن عليهـا نداء للصلاة يتكرر خمس مرات يوميا.

لم يكن بلال صاحب فكرة الآذان وإنما كان الأذان حلما لأحد الصحابة حكاه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فتفتح قلب النبي إلى هذه الرؤيا فقال له: "حفظ بلال ما رأيت فهـو أنداكم صوتًا. وتقول كتب التاريخ أن عمـر بـن الخطـاب جاءته نفس الرؤيا وحكى نفس الحكاية فأصبح الآذان برؤية صحابيين، وقبل هذه الرؤية كان الرسـول عليـه الصـلاة والسلام يفكر في أن يدعو للصلاة بصوت الجرس كما يفعل المسيحيون وبالفعل اشترى المسلمون جرسا من حـداد فـي المدينة وأعدوا له الخشب ليعلقوه فجاءت هذه الرؤيـا التـي

انشرح لها صدر النبي عليه الصـلاة والسـلام، فأصـبحت الدعوة إلى الصلاة بالآذان كان الحدث الأشهر في حياة بلال بعد خروجه من المدينة هو عزل خالد بن الوليد حيث أمـر عمر بن الخطاب بلال بأن يخلع العمامة عن رأس خالد بـن الوليد ويقيد بها يديه وقدميه ثم يخلع عنه نعليـه أي يعـري خالد بن الوليد من كل نياشينه وكل اعتبـار بأنـه الفـارس المغوار صاحب السطوة والإمارة وكانت هذه المعاملة التـي أمر بها عمر بن الخطاب ليعرف خالد بن الوليد أن الرؤوس سواسية ولإعلان رسالة المساواة التي جاء لها الإسلام والتي ربما جاء من أجلها. فكل ما كان لدى خالد بن الوليـد مـن إحساس بالكبرياء والكرامة وعزة النفس والفخـر بالأصـل لا ينفي حقيقة أنه عبد من عبـاد ا وفـرد مـن الرعيـة الإسلامية له ما لهم وعليه ما عليهم وكان قرار عمـر بـن الخطاب في تلك اللحظة أن يقتسموا كل ما لدى خالـد بـن الوليد لدرجة أنهم قسموا نعليه فأخذوا الفردة الشمال. تـوفي بلال في دمشق عام ٢٠ هجرية وتقول الروايات إنـه مـات عن بضع وستين عاما أي أن نصف حياته كانت في الجاهلية والنصف الآخر كان في الإسلام ومن ضمن ما قيل في وفاة

بلال بن رباح أنه مات بحلب ودفن علـى بـاب الأربعـين بحلب. وشهد عام ٢٠ هجرية الذي مات فيه بلال بن ربـاح طاعون عمواس وهو أكبر بلاء وكارثة وقعت على المسلمين ومات فيه كثير من الصحابة منهم أبو عبيدة الجراح ومعـاذ بن جبل والعلاء الحضرمي وشرحبيل بن حسنة وبلغ عـدد من مات في الطاعون ـ كما تقول كتب التـاريخ ـ خمسـا وعشرين ألفًا.

سعد بن أبي وقاص

كان المسلمون ينتظرون نتيجة معركة القادسية. لم يكن اسمها البلاغي الواضح وقتها معركة القادسية ولكنها عرفت فيما بعد باسم القادسية التي غيرت مـن خريطـة الإسـلام في العالم كله.

معركة القادسـية أو هـذه المعركـة التـي يخوضـها المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص، وقد عاش المسلمون في المدينة عاصمة الخلافة في حالة انتظار ولهفة شديدة لمعرفة ماذا جرى في ذلك الوقت. كان سيدنا عمر بن الخطاب يسير في صحراء المدينة المنورة يتفقدها وكان ذلك تفقدا طبيعيـا لأحوال الرعية والناس في المدينة، وكان يتفقـد فـي تلـك المنطقة إبل الصدقة وهي أشبه بإسـطبلات الحكومـة الآن وأثناء ذلك لقيه راكب على ناقلة (ناقة) قادما من طريق يبدو أن ذلك هو الطريق الذي يقبـل منـه أو نحـوه أو خلالـه القادمون من العراق والشام فأدرك عمر بن الخطاب أن ذلك الشخص قادم من العراق أو أنه قادم من حيث تلك المعارك، فقال يا عبد ا حدثني ماذا جرى بين المسلمين والفرس فقال

الرجل هزم ا المشركين. فأصاب عمر بن الخطاب حالـة من الاحتفال بالفرحة والإحساس بنصر ا وفتحـه القريـب وهذه العظمة التي أصابها فرسان ا . فرسان الإسلام فأخـذ عمر بن الخطاب يقفز ويجري خاف الرجل علـى راحلتـه وعمر ورائه يمشي على قدميه متلهفًا لمعرفة تفاصيل أخرى عن المعركة. وما جرى على أرض القتال بـين المسـلمين عظام فتحوا بلادا جديدا وبين أعـدائهم الـذين حـالوا بـين المسلمين وبين نصر سريع سهل. كان هـذا الراكـب هـو مندوب سعد بن أبي وقاص على أمير المؤمنين وكان يحمل رسالة سعد إلى عمر بن الخطاب أمير المـؤمنين بـأن ا سبحانه وتعالى قد حن على المسلمين بالنصر والفتح. كـان الراكب على راحلته لا يعرف أن الذي يسعى وراءه وخلفـه ويجري إلى جواره هو عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الذي جاء ليبلغه كما أن عمر بن الخطاب لم يكن واثقًا من أن هذا الشخص هو رسول سعد بن أبي وقاص وإنما كـان يـدرك أن هذا الشخص رجل مسلم قادم من أرض المعركة. عنـدما تجاوز الاثنان على هذه الحالة حدود المدينـة ودخـلا إلـى المدينة أقبل الناس على عمر بن الخطاب وسلموا عليه بإمارة

المؤمنين "السلام عليكم يا أمير المؤمنين" فقال الرجل "هـلا أخبرتني رحمك ا   أنك أمير المؤمنين؟ وسلمه رسالة سـعد بن أبي وقاص "النصر. النصر. النصر".

هل هناك من يشبه عمر بن الخطاب في عدم اهتمامـه بالطقوس (الإتيكيت) ومن الذي يقف وحتـى الـذي يركـب وفي فوق ومن تحت" عمر بن الخطاب أخـذ يسـعى وراء رجل يقول جملاً ليعرف أخبار المسلمين ونبأ ويطمئن عليهم.

إذا كانت تلك شخصية عمر بن الخطـاب فكـان مـن الطبيعي أن يكون هناك نصر مبين مثل نصر المسلمين فـي القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص؟ ما الذي فعله سـعد بـن أبي وقاص؟ تلقى سعد بن أبي وقاص الأوامر بإمارة الكوفة وأن يبني مدينة الكوفة بعد نصر القادسية العظيم. وتفاصـيله العسكرية تكاد تكون محفورة في الذاكرة العربية والإسلامية وكيف أن سعد بن أبي وقاص أدار هذه المعركة بجسد مليء بالدمامل والخراريج وأنه اتخذ ربوة عالية أو منزل مرتفـع من البيوتات التي تطل على أرض المعركة وكان يدير منـه المعركة وهو نائم على بطنه وكل هذه التفاصيل التي تؤكـد لنا كيف كان سعد بن أبي وقاص عظيما في لحظات خطيرة

مثل هذه. من المعروف أن سعد بن أبي وقاص خال النبـي فهو من الأسرة التي تنتمي إليهـا أم النبـي عليـه الصـلاة والسلام وهي بني زهرة أيضا سعد بن أبي وقاص هو مـن علامات التاريخ الإسلامي فهو أول من رمى فـي الإسـلام بسهم أمام الأعداء والمشركين. وهو هذا البطل الذي قال لـه النبي عليه الصلاة والسلام "ارم سعد فداك أبي وأمي" عندما انتصر سعد بن أبي وقاص في القادسية تلقى الأمر بإمـارة الكوفة بعد أن يبنيها، وبنيت الكوفة وهي عاصـمة سياسـية هامة جدا منذ أن بناها سعد بن أبي وقاص وستلعب دورا هام جدا في التاريخ الإسلامي لم يكن أبدا دور مجمعـا موحـدا ولكنه كان طول الوقت دورا هاما. ابتنى سعد بن أبي وقاص دارا أمام المسجد وربما أطلق عليه بعض العامة اسم قصـر الكوفة وكان سعد بن أبي وقاص ابتناه من جدران وصـخور قصر الأكاسرة بـالحيرة أي أنـه انتصـر علـى كسـرى وإمبراطورية الفرس، الواسعة فما كان منه إلا أن أخذ مـن حجارة قصور وقلاع الفرس وابتنى بها بيتًا ومسـجدا. مـن الممكن أن نقول إن هذه القصة تكررت كثيرا علـى مـدى التاريخ الإسلامي والإنساني عمومـا بمعنـى أن المسـلمين

عندما دخلوا إلى البلاد المفتوحة كان هناك قرارات بالإبقاء على أماكن العبادة كما هي سواء كانت كنائس أو معابد يهودية لكن مما لا شك فيه أن في كثير من الأحوال تم انتزاع بعض الصخور والأبواب لاستخدامها في بناء مساجد. نفس الأمر حدث عندما دخل الصليبيون إلى البلاد الإسلامية أو عندما دخل الملوك الأسبان المسيحيون الأندلس تحولت معظم المساجد، إلى كنائس وأحيانًا كان يتم الاستيلاء على محتويات المساجد وتفسير هذا الفعل أنه أحيانًا ما يجعلك النصر مزهوا بنفسك راغبا في إعلان هذا الزهو بمثل هذه الطرق الغير آمنة دينيا وعلى الأقل بالنسبة للدين الإسلامي. كان الرسول عليه الصلاة والسلام حاسما رائعا مذهلاً في ذلك حينما أقر أنه حتى ونحن نحارب لا تقتل حيوانًا أو تقطع شجرة وكان أي قائد عسكري يخرج بجيشه في ظل وجود النبي عليه الصلاة والسلام، كان يعطيه هذا القانون الإسلامي وسار على نهجه الخلفاء الراشدون. صحيح أنه تم مخالفتها في بعض الأحيان لكن الأسس كانت واضحة لا لبس فيها، وهي تحريم قتل الشيوخ والعجائز والأطفال والنساء أو قطع شجرة أو قتل حيوان وربما كان سعد بن أبي وقاص

يريد بهذا التصرف أن يقـول رسـالة لكـل المترصـدين والمتربصين بالأمة الإسلامية التي كانت تنمو في تلك الفترة، وتزهو بفتحها وفتوحاتها. وهي أن بنيان كسرى انكسر وبني به بنيان آخر وكأن أمة تسقط وأمة تصعد، لكن عمـر بـن الخطاب بلغه أن سعد بنى بيتًا وأن الناس تسمي هذا البيـت قصر سعد فبعث مندوبه أو بريده محمد بن مسلمة والذي كان منوطًا به تنفيذ أوامر عمر ومحاسبة الولاة علـى الأمصـار والمدن التي عينهم عليها عمر بن الخطاب. ذهب محمد بـن مسلمة إلى الكوفة مأمورا من عمر بن الخطـاب أن يحـرق باب القصر وهو ما فعله محمد بن مسلمة فور وصوله إلـى الكوفة لدرجة أن تساءل سعد بن أبي وقاص هل من المعقول أن استدعاء محمد بن مسلمة إلى الكوفة من أجل هذا؟ فيخرج سعد بن أبي وقاص على محمد بن مسلمة وعرض عليه نفقة وقد تكون هذه النفقة بمعنى تحمل تكاليف الطريق ذهابا وإيابا فلم يأخذ محمد بن مسلمة وأبلغه كتاب عمـر "بلغنـي أنـك اتخذت قصرا وجعلته حصنًا يسمى قصر سعد وبينك وبـين الناس باب فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال - أن ما فعلته ينتمي لفصيلة الخبال السياسي - انزل منزل مما يلي بيـوت

المال - وأغلق هذا القصر وإلا جعلنا عليه بابا يمنع النـاس من دخوله" فحلف له سعد أن سينفذ هذا الأمر تمامـا وكليـة لكنه خشي أن يصل عمر بن الخطاب أن يتعالى على الناس أو أن الناس قد ثاروا ضده أو قاموا عليه. وكان سعد بن أبي وقاص مشغولاً على نحو كبير أن يكتشف سيرة الناس فيـه. أي ما يمكن أن يقوله الناس عنه ويبلغ عمر بـن الخطـاب. وكان عمر بن الخطاب صريحا على معرفة مسلك الولاة مع الرعية والمواطنين وأهل مدنهم لتحقيق الانضباط والعدالـة والاحترام بين الوالي والراعي، فبدون ذلك لن يكون هنـاك قدرة على مواجهة الأعداء فنحن ننكسر ونهـزم ونعتصـم ظهورنا نتيجة أن العلاقة بين الحاكم والمحكوم فـي الأمـة الإسلامية تستدعي أن تهزم أمام الأمم الخارجية، وكان عمر بن الخطاب يقظًا لذلك تماما ولهذا أرسل محمد بـن مسـلمة ليطوف بكل أهل الكوفة ويسأل الرعية عن رأيها في سعد بن أبي وقاص وتعامله معهـم ورأي بعضـهم أنـه لا يغـزو في السرية ولا يعدل في القضية ولا يقسم في الثروة. فلم يكن هناك إجماع على سعد بن أبي وقاص وكان هناك مجموعـة من أهل الكوفة رافضة لمواقفه وقراراته. وكان أهل الكوفـة

معظمهم في العراق لكن بينهم أيضا عربا من القادمين مـع سعد بن أبي وقاص من الجنود الذين حصـلوا علـى قطـع أرض أو أبناء الجزيرة العربية والمدينة المنورة الذين زحفوا إلى العراق فكان رأي بعضهم" ويبدو أن عددهم ليس قلـيلاً بدليل أن عمر بن الخطاب عندما سمع رأي مجموعة أهـل الكوفة في سعد بن أبي وقاص قرر عزله عن الكوفة.

ويقال في السياق إن هؤلاء البعض افتروا على سعد بن أبي وقاص وما قالوه كان غير صحيح وغير حقيقي. وكـان سعد بن أبي وقاص مستجاب الدعوة. ويذكر التاريخ لنا فـي هذا السياق واقعتين الأولى عندما غالى أحدهم فـي رفـض سعد بن أبي وقاص وعرض سلبياته لمحمد بن مسلمة مندوب عمر بالخطاب فلما علم سعد بن أبي وقاص بذلك دعا علـى هذا الشخص أن يعمى بصره فأصاب الرجل العمى. وهنـاك رواية أخرى بعد ذلك بوقت طويل وهي أن سعد بـن أبـي وقاص سمع أحد أبناء المدينة المنورة يسب عليـا وطلحـة والزبير بعد الفتنة والخلاف الكبير بينهم فقال سعد بن أبـي وقاص "لا تسبهم وإلا لحقك غضب من ا " فقال له الرجـل "هل أنت نبي؟" وكان يستحرض سعد بن أبي وقاص فـدعا

عليه سعد بن أبي وقاص، فلما دعا عليه جرى الرجل ووقع فداسته ناقة فمات. وارد جدا أن يكون شخص من المبشرين بالجنة وعلى هذا القدر من الرفعة والمكانة والإيمان والإسلام مستجاب الدعوة لكن الواقعتين السابقتين اللتين تسوقهما لنـا روايات التاريخ تبرز استخدام سعد بن أبي وقاص لهذه الهبة الإلهية كما لو كانت مسدسا أو سيفًا وهو ما أشك فيه لأنه إذا كان مستجاب الدعوة فلماذا لم يدع لذلك الرجل الـذي سـب عليا وطلحة والزبير بالهداية مثلاً.

عزل عمر بن الخطاب سعد بن أبـي وقـاص البطـل المنتصر في الكفة بكل بساطة وديموقراطية، وقبل سعد بـن أبي وقاص بذلك ولكن ذلك لم يمنـع عمـر بـن الخطـاب أن يضع سعد بن أبي وقاص ضمن الستة المرشحين للخلافة من بعده. وهذه شهادة بأن ما حدث كان اختلافًا في وجهـات النظر وليس اختلافًا في الضمير وعندما أصبح عبد الرحمن بن عوف حكما ورئيسا لمجلس الشورى الذي سيختار خليفة المسلمين بعد عمر بن الخطاب طرح عبد الرحمن بن عوف أن يأخذها سعد بن أبي وقاص فرفض سعد وقال: "نصـيبي لعلي بن أبي طالب" وقـال لعبـد الـرحمن بـن عـوف:

"إن اخترت عثمان فعلي أحب أيهـا الرجـل فبـايع نفسـك وأرحنا" فقال له عبد الرحمن بن عوف: "لـن يتـولى أحـد الخلافة بعد أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب سترضـى عنه الناس" وبعد أن أصبح عثمان بن عفان خليفة المسلمين، ولى سعد بن أبي وقاص الكوفة مرة أخرى لكن عثمان بـن عفان عزله واستعمل الوليد بن عتبة وكان لذلك سببا شـهيرا تذكره لنا كتب التاريخ، هو أن سعد بن أبي وقاص اقتـرض من عبد ا بن مسعود خازن بيت المال قرضـا مـن مـال المسلمين فلما طلب بن مسعود رده لم يتيسر لسـعد قضـاؤه فارتفع بينهما الكلام أي حدثت بينهما مغاضبة ومناقشة فقـال له سعد: "لا أراك إلا ستلقى شرا" ويقال إنه قال له: "هل أنت إلا عبدا من عدي؟" أي أنه تعامل مع ابن مسعود باعتبار أن أصوله أقل مكانة منه، ولما حدثت هذه المغاضبة انقسم الناس إلى فريقين: فريق مع الوالي الذي اقترض - سعد بن أبـي وقاص - والآخر مع خازن بيت المال الذي طلب رده ولـم يتسلمه - عبد ا بن مسعود - ولما بلغ الخبر عثمان بـن عفان غضب عليهما لكنه عزل سعدا وأقر عبد ا بن مسعود لكنه بعد فترة عزل عبد ا بن مسعود لصالح أحـد أقاربـه

من آل بني أمية. عندما رجع سعد بن أبي وقاص من الكوفة بعد العزل الثاني التقى بعثمان بن عفان وكان خليفة المسلمين فقال له سعد: "أفطنت بعدنا أم حمقنا بعـدك؟ بمعنـى هـل أصبحت قياديا سياسيا زكيا بعدنا أم نحن الذين أصبحنا أقـل قدرة في السياسة والذكاء بعد توليك الخلافة. فكلما نعرف أن سعد بن أبي وقاص كان أحد المرشحين الستة للخلافـة مـع عثمان بن عفان بعد وفاة عمر بن الخطاب. كان هذا التعبير هو التعبير الرقيق البلاغي الوحيد الذي قاله سعد بـن أبـي وقاص اعتراضا على عثمان بن عفان وعزله. اعتبر سـعد أن عثمان بن عفان أصبح قدرة على إدارة الأمـور سياسـيا لصالحه بينما لا يعتبر لقيمة الشخصيات التي كانت ترافقـه مثل سعد بن أبي وقاص ثم قال سعد لعثمان في مشهد آخر: "أراكم جعلتموها ملكًا" وهذا هو التعبير الأول الذي قيل تعليقًا على فترة عثمان بن عفان وسابقة على تحول الأمر برمتـه إلى ملك مع معاوية بن أبي سفيان. لكن عندما ثارت النـاس على عثمان بن عفان، تجنب سعد بن أبي وقاص المشـاركة في أي موقف سياسي مؤيد أو معارض، وبايع سعد عليا بن أبي طالب بالخلافة بعد مقتل عثمان ولكن كان لـه موقـف

واضح في هذا السياق فعندما قال له علي بن أبـي طالـب: "بايع يا سعد" قال له: "لا أبايع حتى يبايع الناس" فقال علـي: "خلوا سبيله" أي الديموقراطية المطلقة والحرية التامـة فلـم يعرض على سعد البيعة أو هدده إما البيعـة أو القتـل كمـا سيحدث في مواقف تاريخية سنشهدها لاحقًا. كان سـعد بـن أبي وقاص غير راغب في تلك الخلافـة ولا فـي غيرهـا وبالرغم من أنه عندما كان الاختيار بين علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان اختار سعد بن أبي وقاص عليا، وكان يرى أنه الأولى والأحق بالخلافة لكن وجود عبـد الـرحمن بـن عوف وإدارته للموضوع انتهت إلى عثمان بن عفان إما في ظل لغط حاد وانقسام بين المسلمين يشترط سعد بـن أبـي وقاص لكي يبايع أن يبايع المسلمون. اعتزل سعد بـن أبـي وقاص الفتنة وقرر ألا يؤيد أحدا وألا ينـازع أحـدا تـولى والمدهش أن سعد بن أبي وقاص ظل منذ مقتل عثمان بـن عفان عام ٣٥ هجرية وحتى وفاتـه عـام ٥٥ هجريـة ـ عشرون عاما كاملة ـ ظل سعد خلالها صامتًا منعزلاً هادئًا بعيدا عن الدنيا ثابتًا بينما تتغير الدنيا وكأنه قـرار أو فـرار إلى ا . مات سعد بن أبي وقاص وعمره ثمانون عاما ومنذ

لحظة إسلامه عندما غضبت عليه أمه لأنه أسلم، فقررت أن تضرب عن الطعام ليتراجع سعد عن إسلامه فرفض تمامـا حتى وحالها يتدهور ويسوء يوما بعد يوم ويؤول إلـى مـوت بطيء إلا أن سعد قال لها: "لو أخرجتي كل يوم نفسا حتـى تموتي على أن أعود إلى الجهل والشرك والكفر فلن أعود". وكان القرار واضحا وماتت أم سعد ونزلت الآية القرآنيـة: ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَـلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَـابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ** ﴾ ليقـول ا لسعد بن أبي وقاص أنه ليس سببا في موت أمه ولا كان من المفروض أن تتنازل عن إسلامك ودينك لترضخ لتهديد أمك بأنها قد تموت، تضرب عن الطعام أو تنتحر لتعـود مـرة أخرى إلى الكفر والشرك فنزلت الآية تقول "فـلا تطعهمـا" ومن ثم كان موقفه سليما صحيحا. منذ تلك اللحظة، لحظـة الإسلام الأولى إلى لحظة وفاته وعمره ثمانون عامـا وقـد اعتزل الفتنة ورفض المشاركة فيها وكان يقول: "لن أقاتل في هذه المعارك إلا عندما تأتوني بسيف أسير بـه فـي القتـال فينطق ويقول لي هذا مؤمن لا تقتله وهذا كافر اقتله" حينمـا

شعر سعد بن أبي وقاص بدنو الأجل طلـب مـن أصـحابه أن يأتوه بقميص له يحتفظ به بعيدا فلما أحضروه كان سـعد راقدا على فراشه يحتضر فطلب منهم أن يلفوه به فلما فعلوا مات. وكان ذلك القميص هو الذي ارتداه سعد بن أبي وقاص يوم معركة بدر، أول معركة في تاريخ الإسلام يرتفع فيهـا راية المسلمين وقاتل فيها سعد بـن أبـي وقـاص مجاهـدا في سبيل ا مع نبي ا محمد ﷺ.

شرحبيل بن حسنة

كان شرحبيل بن حسنة الكندي من الصحابة وأحد كتاب الوحي، وكما نعرف كان هناك كتبة وحي وكتبـة للرسـائل والمكاتبات بين الرسول والأمراء والملوك. كان شرحبيل بن حسنة أيضا من مهاجري الحشبة فكما نعرف هنـاك ثـلاث هجرات في التاريخ الإسلامي اثنتان للحبشة والثالثة للمدينـة المنورة. كان شرحبيل بن حسنة الكندي من المهاجرين مـن مكة إلى الحبشة فرارا من قهر وقمع ومطـاردة وملاحقـة قريش لكل من آمن بالإسلام.

لما توفي رسول ا عليه الصلاة والسلام ارتدت أحياء كثيرة من العرب أي من مدن وعشائر وقبائـل فـي الـيمن والبحرين ارتدت. وتصف كتب التاريخ هذا المشهد بقولهـا "نجم النفاق في المدينة فكانت الوفود تتقدم إلى الخليفة أبـي بكر الصديق ﵁ فيقرون الصلاة ويمتنعون عن أداء الزكـاة" وكان قسم كبير من حروب الردة بسبب الامتناع عن الزكـاة حتى أن كتب التاريخ تحكي أن عمر بن الخطاب كان يـرى ألا يحاربوا المرتدين لأنهم أقروا بكل فروض الإسلام عـدا

الزكاة. بل إن البعض كان يقر بالزكاة ولكنه لم يكـن يقـر بإعطاء الخليفة أبي بكر الصديق ما كان يعطيه للنبي عليـه الصلاة والسلام. لكن أبا بكر الصديق كان له رؤية واضحة فاصلة حاسمة قاصمة للردة ومجمعة للأمة وهي إن امتنعـوا عن دفع عقال كانوا يدفعونه إلى النبي عليه الصلاة والسـلام وجبت حربهم وانتصرت وجهة نظر أبي بكر الصديق وأتـم الصحابة وأجمعوا على ضرورة حروب الردة بمن فيهم عمر بن الخطاب وجرت حروب الردة. في أول الأمر أرسل أبـو الصديق عكرمة بن أبي جهل وكان أحد قواد جيش الإسـلام في حروب الردة وغيرها من الحروب وهو ابن الحكم بـن هشام أو أبو جهل وانتهى الأمر بعكرمة بأن استشـهد فـي سبيل ا وقيل إن خالد بن الوليد أراح رأس عكرمـة علـى حجره وهو يموت فقال عكرمة: "أيزعم عمر بن الخطاب أننا لا نموت في سبيل ا ؟" فهم في نظر عمر الخطاب الطلقـاء الذين لا يحاربون في سبيل ا ، ولم يدخلوا الإسلام إلا بعـد أن أصبح ليس أمامهم سوى الموت أو الإسلام وفي ظني أن عمر بن الخطاب لم يكن يفصل بين الناس بالنوايا ولكن لـه الفعل. وكانت معظم القيادات العسكرية في جيوش الإسـلام

خاصة في فترة ما بعد الرسول عليه الصلاة والسـلام مـن المسلمين المتأخرين أو الذين تأخر إسلامهم، فكانوا يحاولون إثبات مدى محبتهم للدين واعتناقهم له وكفاحهم في سبيل ا فكانوا قواد جيوش المسلمين في مواجهة المرتـدين وكـانوا قواد وأبطال جيوش المسلمين في فتح دولة الإسلام الكبـرى عابرة الشام ودمشق والعراق أما شرحبيل بن حسنة فكان من مهاجري الحبشة من المسلمين الأوائل، أرسـل أبـو بكـر الصديق شرحبيل في أثر عكرمة بن أبي جهل ثم سار خالـد بن الوليد نحو مسيلمة الكذاب وتولى بنفسه قيـادة الجـيش. فكان شرحبيل بن حسنة على رأس قوات المسلمين الأوائـل التي اشتبكت بقوات مسيلمة الكذاب وحلفائه، وأبلى شرحبيل في هذه المعركة كما تقول كافة الكتب والمراجع أعظم البلاء حتى حقق النصر المذهل على مسيلمة الكذاب وعـودة كـل الأتباع الذين كانوا مع مسيلمة الكذاب إلى رحاب الإيمان.

في تلك اللحظة كان شرحبيل بن حسـنة مـن القـواد المشاركين مع خالد بن الوليد، وكان مساعده وقائده وميمنته ثم ذهب شرحبيل إلى أرض الحيرة وصالحهم على ٩٠ ألف درهم - وفي رواية أخرى مائة ألف درهم - وكانت هـذه

أول جزية من العراق إلى المدينة المنورة. فكان شرحبيل بن حسنة أول من حصل على وتحصل علـى جزيـة الإسـلام والمسلمين ولم يعد شرحبيل مرة أخرى إلى العـراق ولكـن أمره أبو بكر الصديق بالتوجه إلى الشام. مـع جمـع كبيـر من الناس وصل إلى ثلاثة آلاف مقاتل عن طريق تبوك حتى وصل إلى أرض الشام. ولم يزل أبو بكر يمده بما رأى مـن الرجال حتى أصبح مع شرحبيل بـن حسـنة سـبعة آلاف وخمسمائة رجل لقصف حصون الشام، في انتظار المعركـة الفاصلة والحاسمة التي أرسل لها ملك الروم هرقـل نفسـه قواده وجيوشه وهي معركة اليرموك. حشد الروم أكثر مـن مائتي ألف من الجنود وكان التطور التقني والعدد والسـلاح أكبر من جيش المسلمين. فضلاً عن فهمهم لطبيعـة الأرض وجغرافيتنا وطبوغرافيتها. في تلك الحرب شـن خالـد بـن الوليد ما يشبه الحرب المعنوية الجبارة لينال المسلمون مـن الروح المعنوية للخصم والعدو، حيث كون خالد بـن الوليـد كتيبة من مائة فارس من جيش المسـلمين وأسـماها كتيبـة (الفداء والاختراق). كان كل واحد من هؤلاء المائـة مقاتـل كامل البطولة رائع الإيمان فذ القدرات.

وبالرغم من أن شرحبيل بن حسنة كان قائدا من قـواد الجيش إلا أن خالد بن الوليد اختاره أن يكون ضمن المائـة فارس لإيمانه وفروسيته وبطولته. كان كل واحد من هـؤلاء المائة قادرا على ضرب وقتل العشرات ومن ثم عندما يجـد جيش الروم كتيبة من مائة فارس فقط ينالون منهم ويقتلـون الآلاف فتنهار الروح المعنوية لجيش الروم وهو ما تم علـى أكمل وجه وأدق وأجمل ما يكون في مقدمة معركة اليرموك ولم ينته دور شرحبيل بكونه أحد المقاتلين المائـة البواسـل في كتيبة الفداء والاختراق، الذين اخترقوا دفاعـات وجـيش الروم وإنما تولى قيادة إحدى كتائب الميمنة فـي المعركـة أيضا. هناك كتب كثيرة تناولت المعارك العسكرية وفتوحات المسلمين بعضها كتبها قادة عسكريون معاصـرون تحـدثوا فيها عن خطط المعارك وطرق الحرب ومناهجهـا، وكيـف فعلها جزالات وقادة النبي عليه الصلاة والسـلام والحقيقـة أن جزال الإسلام الأشهر هو خالد بن الوليـد لكـن هنـاك جزالات آخرين لم يتوقف عندهم التاريخ كما يستحقون ومنهم شرحبيل بن حسنة حيث تحكي الكتب العسكرية أن كان لـه دور مرموق في تمزيق القوة الضاربة لجيش الروم بل وفي

تعجيل النصر العسكري في معركة اليرموك وهو النصر الذي لم يعرف التاريخ مثيلاً في الحروب التي اشتعلت أو المعارك التي أثيرت لدرجة أنهم يقولون إن الذين ماتوا غرقًا في البحر من الروم في هذه الموقعة بلغ عددهم أكثر من مائة وعشرين ألفًا. لكن معارك أبو عبيدة الجراح وخالد بن الوليد طغت في شهرتها على دور شرحبيل بن حسنة في موقعة اليرموك. أو نستطيع أن نقول إن اسمهما بما لهما من مجد وخلفية قريشية ودور قوي في التاريخ الإسلامي ربما منعوا شهرة شرحبيل بن حسنة عن عامة المسلمين.

كان شرحبيل بن حسنة قائدا للميمنة في جيوش خالد بن الوليد وقائد المشاة في جيوش أبو عبيدة الجراح ثم خرج شرحبيل بن حسنة مع عمرو بن العاص إلى مدن يسقط حصونها ويحاصرها ويقاتل أهلها إذا رفضوا الصلح، وصالح شرحبيل بن حسنة أهل دمشق وطبرية ويمكن أن نقول إنه فاتح منطقة الأردن ـ لذلك أقول دائما أن في الإسلام أبطالاً كثيرين لكن الأضواء تلقى على بعضهم دون البعض الآخر لأسباب تاريخية. لكن شرحبيل واحد من المرابطين في سبيل ا وأحد العظماء الذين أداروا معارك

في العراق والشام. والمدهش أنه عندما يقرر سيدنا عمر بن الخطاب عزل خالد بن الوليد يعزل معه في نفـس القـرار شرحبيل بن حسنة عن القيادة، وعلى أن يتفرق جنودهما على بقية الكتائب الأخرى. وكان الاثنـان - خالـد بـن الوليـد وشرحبيل بن حسنة - لم يهزمـا فـي أي معركـة علـى الإطلاق. وبينما اهتم المؤرخون السابقون واللاحقون بعـزل خالد بن الوليد ومحاولة فهم أسباب عزلـه إلا أن أحـدا لـم يحاول تقديم تفسير لعزل شرحبيل أو يتوقف عند قرار عزله. أرى أن عزل خالد بن الوليد كان أحد القـرارات العظيمـة في التاريخ الإسلامي وأن عمر الخطاب أقام دولة الإسـلام بعزل خالد بن الوليد مثلما أقامها أبو بكر الصـديق بإسـناد الحروب في الشام والعراق لأبي عبيدة الجراح لأنه لم يكـن عهد عمر بن الخطاب وقت حرب وعسكر وإنما كان وقـت محاولة ومصالحة ومهادنة مع البلاد المفتوحة لذلك لم نكـن نريد أن تكون هناك فجوة بيننا وبينهم. فجوة دم ونيران لذلك لم تكن تصلح الطريقة العسكرية الغاضبة لخالد بـن الوليـد فكما عرف عنه كان كثير الغضب سريعة، مقاتـل لأعلـى درجات القتال لكنه لا يعرف شيئًا عن السياسة، لذلك بعد أن

عزل عمر بن الخطاب ظل خالد بن الوليد أربع سنوات حتى مات ليس له أي دور سياسي أما عزل عمر بـن الخطـاب لشرحبيل بن حسنة فكان لنفس الأسباب وعندما ذهب عمـر بن الخطاب إلى الشام تقدم إليه شرحبيل بن حسنة قائلاً: يـا أمير المؤمنين أعجزت أم خنت؟" فقال عمر: "إنك لم تخـن ولكنني تحرجت أن آمرك وأنا أجد أحرى منك وأليق منـك" فقال شرحبيل" فاعذرني يا أمير المؤمنين في الناس" أي قـل للناس هذا العذر ووضح لهم أنك لم تعزلنـي عـن خيانـة أو عجز فقام عمر بن الخطاب ووقف بين الناس في الشـام وبين لهم. بعد العزل انتهى دور شرحبيل بن حسنة العسكري والسياسي تماما مثل خالد بن الوليد فهما في مسـير واحـد سويا.

مات شرحبيل بن حسنة طاعون عمواس الذي أصـاب الشام في فترة عمر بن الخطاب وكان طاعونًا هائلاً لدرجـة أنه قضى على عدد ضخم من الصـحابة تقـدره الروايـات بخمس وعشرين ألف من ضمن الذين ماتوا كانوا أبناء خالد بن الوليد الأربعين عدا ابنين هما عبد الرحمن بن خالد بـن الوليد الذي سمه معاوية بن أبي سفيان والآخر مـات وهـو

يدافع عن علي بن أبي طالب في موقعة صفين. عندما حدث هذا الطاعون قال عمر بن الخطاب للنـاس: "تفرقـوا فـي الأودية والشعاب وأبعـدوا عـن عمـواس" وذلـك مخافـة أن يصاب المسلمون والصـحابة بالطـاعون وعنـدما بلـغ شرحبيل هذا الخبر وهو معلق نعليه بشـماله - أي ممسـك نعليه بشماله - وكان في طريقه إلى عمواس قال: "يا أيهـا الناس أني قد سمعت قول صـاحبكم - يقصـد عمـر بـن الخطاب - وأني وا قد أسلمت وصليت وصاحبت رسـول ا ﷺ وأن هذا الطاعون دعوة بينكم ورحمة ربكـم ووفـاة الصالحين قبلكم. سمعت رسول ا يقول: إذا وقع الطـاعون بأرض وأنتم بها فلا تهربوا فإن الموت بأعنـاقكم وإن كـان بأرض فلا تدخلوها فإنه يحرق القلوب" ويعني الأمر النبـوي أنه عندما يكون هناك طاعون في مكان فلا نخرج إن كن فيه ولا ندخله إن كنا خارجه فإذا بشرحبيل بن حسنة في المنطقة التي بها طاعون عمواس عام ١٨ هجرية وبلغه قرار عمـر بن الخطاب بالرحيل عن منطقة الطاعون فرفض وكرر قول النبي عليه الصلاة والسلام: "ننتظر موتنا إن كنا هناك موت" ومات شرحبيل بن حسنة هذا القائد العظيم مرضا بالطاعون.

سعد بن عبادة. زعيم الأنصار

يوم فتح مكة. هذا الفتح العظيم والنصر المبين. كانـت راية الرسول عليه الصلاة والسلام في يد فارس من الفرسان الذين دخلوا مكة، كانت بيد سعد بن عبادة ثم حدث مشـهدا مهما جدا في السياق.. في هذه الصورة.. في هـذه اللحظـة التاريخية الإسلامية المشرقة الخيرة الرائعة. كان سـعد بـن عبادة يحمل الراية وكله فرح، علـى اعتبـار أن هـا هـم الأنصار الذين نصروا رسول ا ﷺ، يدخلون معه مكة رافعا زعيمهم راية الرسول في وجه المشركين والأعـداء الـذين ناصبوا العداء للرسول عليه الصلاة والسلام ولهـذا الـدين. ربما هذا الفرح.. هذا الولع بالنصر هو الذي جعل سعد بـن عبادة يقول وهو ممسك بالراية: "اليوم يوم الملحمة.. اليـوم يوم أذل ا قريش". قالها سعد بن عبـادة بقـوة وإخـلاص شديدين فمر أمامه أبو سفيان وسعد بن عبادة يكرر "اليوم يوم الملحمة" وكأنها ستتحول نارا ودمارا ودماء على قريش فلما مر الرسول عليه الصلاة والسلام بكتيبة من الأنصار نـاداه أبو سفيان "يا رسول ا أمرت بقتل قومك؟ زعم سـعد بـن عبادة أنه قاتلنا" وقال عثمان بن عفان وعبـد الـرحمن بـن

عوف للرسول عليه الصلاة والسلام: "يا رسول ا ما تـأمن سعدا أن تكون له قولة في قريش. فقال رسول ا ﷺ: "يا أبا سفيان اليوم يوم المرحمة. اليوم أعز ا قريش" وبهذا الـرد النبوي العظيم رد الاطمئنان إلى نفوس قريش. والتأكيد على أنها ليست ملحمة ودما ولكنها مرحمة ولم يكن ذلـك الأمـر النبوي بسبب قريش ولكن بسبب مكة التـي يحبهـا النبـي. وكل أيام الرسول عليه الصلاة والسلام في قريش كان هدفها الأساسي المرحمة لا الملحمة. وأي شخص يستمع إلى أوامر النبي وتعليماته في الحروب يكتشف أنهـا كانـت دعـوات وتعليمات للمرحمة. أما الملحمة فكانت إذا لم يكن هنـاك أي مفر منها فتقاتل حتى النصر أو الشهادة. لكن الأصـل فـي الحروب الإسلامية هو المرحمة، والرسالة الإسـلامية كلهـا نزلت من أجل المرحمة وليس الملحمة. فأمر الرسول عليـه الصلاة والسلام أن تؤخذ الراية واللواء من سعد بن عبـادة وإعطائها لابنه قيس بن سعد بن عبادة وكان مشـهورا فـي يثرب والمدينة المنورة بأنه كريما جوادا، وكان مـن الـذين يرسلون يوميا بطبق من الثريد ـ الأكلة المفضلة لدى النبي ـ إلى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وكان قيس بن سعد

بن عبادة معطاء كريما سخيا للمسلمين ولغير المسلمين. كان سعد بن عبادة من الذين دعا الرسول عليه الصلاة والسـلام لهم بالرحمة وبأن يصبح بيته بيت كرم دائما وأن يـنعم ا سبحانه وتعالى عليهم بالنعم والحسنات.

كان سعد بن عبادة واحدا من الذين يستشيرهم النبي مع سعد بن معاذ في أمور الأنصار، فمثلاً كانت هنـاك قبيلـة يهودية في المدينة قرر النبي أن يعطيها ثلث ثمـار المدينـة مقابل الهجنة واتفاق السلام وعندما أشـار الرسـول عليـه الصلاة والسلام على سعد بن عبادة وسعد بـن معـاذ بهـذا الأمر فقالا له: "إذا كان الأمر وحيا إليـك فسـمعا وطاعـة وإن لم يكن فنشير عليك "فطلب النبي عليه الصلاة والسـلام مشورتهم فقال سعد بن عبادة: "لم يأخذوا ثلث ثمارهـا ولـم نشرف المدينة بك فكيف وأنت فيهـا؟" أي كيـف نهـادنهم ونعطيهم ما لم يكونوا ليأخذوه ونحن ضعاف عاديون، فكيف الآن ونحن يتزعمنا النبي وديننا الإسلام. فأقر النبـي عليـه الصلاة والسلام برأي سعد بن عبادة. إلى هذه الدرجة كـان سعد بن عبادة صاحب رأي ومشورة وإلى هذه الدرجة كـان النبي عليه الصلاة والسلام ديموقراطيا جدا.

ونجد صدى موقف سعد بن عبادة يوم فتح مكة واعتزازه الشديد بكونه من أنصار النبي عليه الصلاة والسلام. يوم أذل ا قريشًا نجد صدى هذا الموقف عندما توفي النبي عليه الصلاة والسلام. فقد طمح سعد بن عبادة إلى الخلافة ورأى أنه من الطبيعي ونحن شركاء النبي وأنصاره، وخاصة أن الأمر في المدينة حيث اختارها النبي مقرا لدينه ودولته وبالفعل جلس سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة ليبايع نفسه في المدينة بل وجاءه المبايعون وبايعه البعض حتى دخل في ذلك المشهد التاريخي العظيم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة الجراح، وحدث بينهم حوارات ساخنة صاخبة غاضبة واشتبك عمر بن الخطاب لفظيا مع سعد بن عبادة ومع المدافعين عنه وحدثت حوارات بين أبي عبيدة الجراح وبين بعض الأنصار وكاد الأمر يصل إلى حد الاشتباك بالأيدي وكان يومها سعد بن عبادة مريضا محموما ودرجة حرارته مرتفعة وكان جالسا على الأرض فأدى تدافع الناس لمبايعة أبي بكر الصديق إلى الإطاحة به. ولم يبايع سعد بن عبادة أبا بكر الصديق وقرر الرحيل إلى الشام وأقام فيها حتى مات. يحمل موت سعد بن عبادة قصة

غامضة حيث مات في مغتسلة وقد اغتر جسده أي وهو يستحم. ولم يكن قد بلغهم في المدينة موت سعد بن عبادة ولم يشعروا بموته في المدينة حتى سمع بعض الغلمان صوتًا ينبعث من بئر يقول "قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة.. رميناه بسهمين فلم تخطئ فؤاده" وكما تقول الروايات ذعر الغلمان وحفظوا ذلك اليوم وبعد أن بلغهم نبأ موت سعد بن عبادة في الشام يوم كذا، فتذكروا ما سمعوه من صوت البئر فقالوا إذن قتله الجن. أعتقد أن هذه القصة رغم ورودها في كثير من كتب التاريخ إلا أنها ذات بناء أسطوري فلا يمكن تصديق أن الجن يقتل شخصا ومن المؤكد أن سعد بن عبادة كان حاضرا في الأذهان بقوة بعد خلافة أبي بكر الصديق. ومن المؤكد كذلك أنه موته كان غامضا. بعد وفاة سعد بن عبادة ظهر اسم ابنه قيس بن سعد بن عبادة وكان شخصية إسلامية نادرة وبطلاً من أبطال الجهاد وعلما من أعلام الأنصار. كانت لشخصيته فضائل ومكارم أفضلها وأظهرها وأوضحها الشجاعة وأجملها وأرقها الكرم. كرم لا جود له. كان قيس بن سعد من المدافعين عن الإسلام بين يدي رسول ا عليه الصلاة والسلام. وكان دفاعه المستميت عن النبي

السبب في أن يعطيه الرسول الكريم الراية بعد أن أخذها من أبيه سعد بن عبادة بسبب ما آثاره من غضب قريش عند فتح مكة، وكان في هذا الفعل تكريم لسعد بن عبادة رغم أنه كان غاضبا منه وتكريما للأنصار.

يمكن أن نعتبر قيس بن سعد خادما للنبي حاجبا حارسا صاحبا له وتقول كتب التاريخ عن قيس بن سعد أنه كان من الرسول بمنزلة صاحب الشرطة من الأميـر ويقـول قـيس نفسه: "دفعني أبي إلى الرسول ﷺ كي أخدمه" وكان قيس من كرام أصحاب رسول ا وأكثرهم سخاء مثل أبيـه وأكثـر لدرجة أن بعض الروايات تحكي أن قيس بن سعد خرج فـي سرية مع أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، فأخذ يمـنح الأموال والعطايا للفقراء والمحتاجين حتى أنه كان يقتـرض ليشتري طعاما للصحابة فقالا أبو بكر الصديق وعمـر بـن الخطاب: "إن تركنا هذا الفتى أهلك مال أبيـه" ويـدل ذلـك الموقف على الكرم الشديد فلما سمع بن عبادة بذلك قال للنبي عليه الصلاة والسلام: "أن أبا بكـر الصـديق وعمـر بـن الخطاب يبخلان علي بابني" فقال الرسـول عليـه الصـلاة

والسلام: "إن الجود من شيمة هذا البيت وإنـه بيـت كـرم وجود".

وفي رواية أخرى أن سيدة عجوز التقت بقيس بن سعد في الطريق فقالت له: "لا يوجد في بيتي جـرذان" فأعجـب قيس بن سعد بهذه الاستعارة التي تعني أن بيتها خـالٍ مـن الطعام لذلك ليس به جرذان (فئران) فقـال لهـا: "لأكثـرن جرذان بيتك". هذا الكريم الفارس المغوار صاحب راية النبي عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة تدور به الأيام حتى يلازم الإمام علي بن أبي طالب في كـل خطواتـه، وكـان أشـد الأنصار التصاقًا له وتأييدا له رغم أن كل الأنصار وقفوا مع الإمام علي بن أبي طالب كرم ا وجهه فـي خلافـه مـع معاوية بن أبي سفيان إلا أن موقف قيس بن سعد بن عبـادة كان مختلفًا تماما لأنه كان صاحبا وشـاهدا لكـل المشـاهد والمعارك مع علي بن أبي طالب بل إن سيدنا علي بن أبـي طالب أمره على مصر وكان قيس بن سعد قائـد الأنصـار في معركة صفين كما كان قائد مقدمة جيش الإمام وقائد أهل العراق في مواجهة معاوية بن أبي سفيان ويـروي بعـض المؤرخين أن عزل سيدنا علي بن أبي طالب لقيس بن سـعد

من ولاية مصر كان بمكيدة من معاوية بن أبي سفيان، وكان معاوية بن أبي سفيان يدرك أن قيس بن سعد بن عبادة قائـد من قواد الأنصار وبه من السمات الشخصية ما يؤهله للقيادة فهو عظيم وشجاع وكريم ومحبوب جدا ولصيق بعلي بن أبي طالب ومحب له وقائد لجيشه. فكان لا بد أن يفعل معاوية بن أبي سفيان شيئًا يحرك الراكد ويغير الأمر ويلعب في خريطة العلاقات الشخصية والإنسانية بين علي ورجالـه. كمـا أن مصر موطن الثورة كانت مرغب عمرو بن العاص رجـل معاوية فكان لا بد من الإطاحة بقيس بن سعد الـذي يأتمنـه علي بن أبي طالب على نفسه وجيشه ومصر.

أرسل معاوية بن أبي سفيان خطابات المقصود منها أن تصل إلى يد سيدنا علي بن أبي طالب ورجالاتـه، وكانـت الخطابات مرسلة إلى رجال معاوية بن أبي سـفيان مـن آل أمية في العراق والمدينة يقول لهم فيها: "أن علي بـن أبـي طالب فعل خيرا وأحسن صنعا بتولية قيس بن سعد بن عبادة مصر، فإنه قد كف عن إخواننا من أهل مصر الذين قـاتلوا في دم عثمان بن عفان وكتموا ذلك عليا وإني أخاف أن يبلغ ذلك عليا فيعزل قيس بن سعد بن عبادة" فلما وصـل الأمـر

إلى أصحاب سيدنا علي بن أبي طالب طالبوه أن يبدل قـيس بن سعد فقال سيدنا علي: "معـاذ ا قـيس لا يبـدل" لكـن أصحابه ضغطوا عليه وأصـروا علـى عزلـه ويبـدو أن أصحاب سيدنا علي لم يكونوا على درجة الـذكاء والـدهاء السياسي لخصومه فتم لهم ما أرادوا من عزل قيس بن سـعد بن عبادة عن ولاية مصر فلما علم قيس بالأمر قال: "لـولا الكذب لمكرت بمعاوية مكرا يدخل عليه بيته" بمعنـى يفسـد على معاوية بيته وأهله وزوجاته.

أما أهم مشهد في حياة قيس بن سعد بـن عبـادة هـو مواجهته لمعاوية بن أبي سفيان يوم البيعة، فبعد مقتل علـي بن أبي طالب وتنازل الحسن بن علي عن الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان إلا أن قيس بن سعد ظل حتى اللحظة الأخيرة مع الحسن بن علي في مواجهة معاوية، رافضا الصلح معـه والتسليم له بالبيعة لدرجة أنه عندما قابل معاوية قال له: "أني كنت لأكره مثل هذا اليوم يا معاوية" فقال له معاويـة: "لـم رحمك ا ؟" فرد قيس: "لقد حرصت أن أفرق بـين روحـك وجسدك فأبى ا يا ابن سفيان" ثم أعرض قيس بوجهه عـن معاوية واستقبل الناس وخاطبهم موضحا لهم واقع مـا هـم

عليه وهم يبايعون معاوية بن أبي سفيان فقال: "يـا معشـر الناس لقد استبدلتم الذل من العز فأصبحتم بعد ولاية المؤمنين وسيد المسلمين وابن عم رسول رب العـالمين وقـد ولـيكم الطليق بن الطليق ـ يقصد معاوية بن أبي سفيان ـ يسومكم الخف أي الظلم والعذاب ـ ويسير بينكم في العنف. فكيـف تجهل ذلك أنفسكم أم طبع ا على قلوبكم وأنتم لا تعقلـون". كانت الخطبة رهيبة تنم عن مواجهة صريحة ونارية وسـط الناس الذي جاءوا لمبايعة معاوية بن أبي سفيان. فقـال أبـو سفيان: يا قيس أني قد كنت أكره أن تجتمع الناس إلي وأنت حي" فلم يكن معاوية ليريد ذلك المشهد أبـدا فقـال قـيس: "وأنا وا يا معاوية قد كنت أكره أن يصير هذا الأمر إليـك وأنا حي" ولم يبايع قيس بن سعد معاوية بن أبي سـفيان وإلا عندما اشترط شروطًا أهمها أن يكف عن قتاله وعن ملاحقة ومطاردة أربعين ألف من الجيش والشرطة كانوا قد عقـدوا العزم وتعاقدوا مع أنفسهم ومع ا على قتال معاوية. وكـان ذلك الجيش بقيادة قيس بن سعد. فأرسل معاوية ورقة بيضاء عليها خاتمه لقيس بن سعد وقال له: "أملي شروطك" والمؤكد أن قيس بن سعد بن عبادة لم يضع في عنقه بيعـة لمعاويـة

فهو أذعن فقط لأمر الحسن بن علي في الكف عـن القتـال وقيل في روايات أخرى أن قيس دخل على معاوية بصـحبة الحسن بن علي فلما دخلا بايعه الحسن ثم قال لقيس: "بـايع" فقال قيس: "يدي هكذا. وظل قيس عاقدا يـده فـي حجـره. والمفروض في المبايعة أن يمسك الشخص يد الذي يبايعـه ويرفعها عاليا، لكن قيس لم يفعل ذلك فجثـا معاويـة علـى ركبتيه وظل على ركبتيه أمام قيس بن سعد ثم أمسـك بيـده وقال: "أقسمت عليك" ثم صفق على كفه ونهض واقفًا قـائلاً: "بايع قيس.. بايع قيس" لجأ معاوية إلى هذه الخدعة لأنه يعلم أهمية وضرورة أن يبايع قيس بن سعد ليأمنه ويـأمن شـر الأربعين ألف مقاتل من حوله. وامـتلأ المكـان بالضـجيج والتهليلات والتكبيرات فرحا وسعادة بمبايعة الجميـع بينمـا قيس بن سعد واقفًا يصرخ فيهم: "كذبتم.. كـذبتم.. وا مـا بايعت.. وا ما بايعت".

الأقرع بن حارث

كان الأقرع بن حارث أصلعا ضخم الجثة عملاق ويقال إنه لو كان هناك شجاع فهو أشجع الشجعان وإن كان هنـاك فارس فهو فارس الفوارس. كان الأقرع بـن حـارث قبـل إسلامه مجوسيا من قبيلة تميم التـي نزلـت فيهـا سـورة الحجرات لندائهم النبي عليه الصلاة والسلام بصوت مرتفـع من خلف الحجرات لندائهم النبي عليـه الصـلاة والسـلام بصوت مرتفع من خلف الحجرات ﴿ **إن الذين ينادونك مـن وراءِ الحجراتِ أكثرهم لا يعقِلُون** ﴾. ويقال إنه كان ضـمن ذلك الوفد الذي ذهب إلى النبي عليه الصلاة والسلام. لكـن المؤكد أنه كان قد أسلم قبل أن يذهب مع ذلك الوفد. إن كان قد ذهب معهم حيث تقول بعض الكتب والمراجع أنه لا يمكن أن يكون قد أسلم وأصبح بينه وبين الإسـلام هـذه العلاقـة المتينة الوثيقة ومحبة رسول ا ﷺ ويخاطبه بـذلك الشـكل البدوي الصحراوي الذي أنكره الإسـلام والقـرآن. لـذلك ستصور البعض أن الأقرع بن حارث لم يكن مع هؤلاء. لكن عموما رغم أن قبيلته لم تكن مجوسية فقد كان الأقـرع بـن حارث وثنيا من عبادة الأصنام بل كان يبحث عـن شـيء

وجده في الإسلام فأسلم. كان الأقرع بن الحارث من المؤلفة قلوبهم أي أنه كان من الشخصيات التي كان يمنحهم الرسول عليه الصلاة والسلام من مال الفتوحات والمعارك والغزوات لكي يشتد عضد إيمانهم ويقوى. لكن حقيقة الأمر أنه بالرغم من أن الأقرع بن حارث كان من المؤلفة قلوبهم إلا أنه كان من اللحظة الأولى لدخوله المعارك والحروب بطلاً مغوارا. ربما لم يذكره التاريخ أو يتوقف عنده بشكل تفصيلي شارحا لكن الأقرع بن حارث شهد مواقع كثيرة بعد إسلامه. وشـهد مع شرحبيل بن حسنة القائد العظيم معركة (دومة الجنـدل)، وشهد مع خالد بن الوليد حروب اليمامة وكانت في مواجهـة المرتدين وكان الأقرع بن حارث مـن فرسـان المسـلمين الثابتين حين ارتد الناس فلا يصح أن نتحدث عن أنه كان من المؤلفة قلوبهم بمعنى أنه كان ضعيف الإيمان أو غير حسـن الإيمان. على العكس كان الحارث قويا مقداما فارسـا مـن الفرسان العظماء. شارك الأقرع بن حارث مع خالد بن الوليد وشرحبيل بن حسنة وكما نعلم فإن شرحبيل بن حسنة كـان الرجل الثاني في جيش خالد بن الوليد ووقف التـاريخ عنـد خالد بن الوليد لكنه لم يتحدث كثيرا عن شرحبيل بن حسنة،

وكذلك عن الأقرع بن حارث الذي كان مع خالد بن الوليـد في حربه بالعراق غازيا فاتحا.

بل إن الأقرع بن حارث كان أمير مقدمة الجيش الـذي شارك في الفتوحات الكبرى بل إن ابن حارثة الشيباني الذي كان يتقدم في الثغور عند فتح الحيرة كان يسيطر على الثغر ويتقدم إلى المدائن بينما كان الأقرع بن حارث قائد المقدمـة البديل له في جيش خالد بن الوليد. عندما نتحدث عـن قائـد مغوار قوي قادر على إنجاز تاريخي في المعـارك فـنحن نتحدث عن الأقرع بن حارث. في موقعة (الأنبـار) صـعد الأقرع بن حارث إلى قمة المجد العسكري. ففي هذه الموقعة صنع أهل الأنبار خندقًا فلما وجد خالد بـن الوليـد الخنـدق طاف به ثم أسرع فنشب القتال فقـرر أن يسـارع ويبـادر بالحرب وكان خالد بن الوليد بطبيعة الحال قليل الصبر على الحرب ومتعجل خوض المعارك. عندما تقدم خالد بن الوليد وقتها إلى رماته وأوصاهم قائلاً: "أني أرى أقواما لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم لا تتجهوا أو تقصدوا غيرها فرمـوا رشقة واحدة ثم تابعوا واصطف الرماة صفًا وراء صف وقد وضعوا سهامهم في أوتار أقواسهم وشدوا إلى صدروهم بقوة

وحماس وفي وضع الاستعداد فصدر الأمر فانطلقت السـهام كثيفة كأسراب الطيور، سريعة إلـى أهـدافها فـوق رؤوس جدران الحصن عبر الخندق لها أزيز عشرات ومئات وربما آلاف من الأسهم تنطلق بسرعة وأزيز فتملأ المكان وتتـابع الرمي ويقال إن ألفًا من أهل الحصن فقيء عيـونهم ولـذلك سميت تلك المعركة بـ (ذات العيون) وتصايح أهل الحصن وقالوا: "ذهبت عيون أهل الأنبار" هل كان ذلك شيئًا قاسـيا؟ بالطبع وربما كان ذلك من الأسباب المهمة في قرار عمر بن الخطاب بعزل خالد بن الوليد.

وما أريد أن أتوقف عنده هنا هو ما فعله خالد بن الوليد من قسوة وفقأ عيون الجيش المعادي. هو أمر غريـب فـي القتال طبعا كانت نتيجته الواضحة النصر. فهـذه المعركـة حسمها قرار خال من العاطفة لخالد بن الوليد وأيـن تـأتي العاطفة في معارك من هذا النوع؟ لم يكن الأقرع بن حارث من الرماة في تلك المعركة لكنه كان أحـد المشـهود لهـم بالفروسية والقتال. وكان هناك قائد آخر في هـذه المعـارك لا أحد يتذكر اسمه أو يتوقف عنده وهو عـدي بـن حـاتم الطائي. كثير من الذين شاركوا في فتح العراق كـانوا مـن

القبائل التي دخلت إلى الإسلام تباعا بعد فتح مكـة وانتهـاء حروب الردة بنصر المسلمين والإسلام. كيف كانـت هـذه القبائل تدخل في الإسلام؟ كان قائد أو زعيم أو شيخ القبيلـة يعلن إسلامه فينضم كل أهل القبيلة معه وإليه. وفي الأغلـب الأعم لم يكن هناك من يخالف شيخ القبيلة وزعيمها. وتقـول الوقائع إنه عادة ما كان زعيم القبيلة يسلم قبل قبيلتـه بفتـرة أكبر قليلاً ثم لا يلبث أهل القبيلة أن يقتنعوا ويسلموا.

كانت المؤلفة قلوبهم مثل الأقـرع بـن حـارث هـم المسلمون المتأخرون الذين كانت تصرف لهم مـن أمـوال الغنائم والحروب لتثبيت الإيمان، ولم تكن الأموال تصـرف لأجل الشخص ولكن لأجل القبيلة حتى يشـعرون أن هنـاك نعمة مادية تعود عليهم من دخولهم الإسلام وأوقـف سـيدنا عمر بن الخطاب فكرة المؤلفة قلوبهم بعد أبي بكر الصـديق وقال إن الإسلام لم يعد محتاجـا لتـأليف قلـوب أحـد وأن الإسلام قوي بيمن فيه وينتمي إليه تدينًا وخشية وليس لأجـل المال.

ويعتبر هذا الأمر من القرارات العمرية المهمـة فـي سياق تعضيد دولة الإسلام وأنها تكون خالصة للإيمان وليس

لمحاولات الدخول وتسلق أسوار الإسـلام للحصـول علـى أموال أو غنائم أو ما إلى ذلك، لكن الانتماء القبلي كان هاما في شيء آخر وهو المعارك بمعنى أن جيش المسلمين يبلـغ عدده ١٢٠ ـ ٢٠٠ ألف مقابل مئات الألوف مـن الأعـداء بطبيعة الحال. لكن كيف كان الجنـود المسـلمون يعرفـون بعضهم بعضا وكيف يمكن التحكم فيهم. في بداية الغـزوات والفتوحات الإسلامية كان الجيش بضعة مئات ثم كثر عددهم إلى بضعة آلاف. وكانوا جميعهم أبناء دين واحد ويعيشـون في مكان واحد وبقعة واحدة، وهناك احتمـال أنهـم كـانوا لا يخرجون على قبائل محدودة وفي ظـل هـذه المسـاحة الجغرافية الصغيرة والقبائل القليلة والعدد المحدود كان مـن الممكن السيطرة عليهم ومعرفتهم وإدارتهم لكن عندما اتسـع الأمر لدرجة مئات الألوف كيف كان يتم التحكم في الأمـر في ظل اتساع المساحة الجغرافية ووجود أمم مفتوحة وقبائل قادمة إلى الإسلام؟ عندما تقرأ فـي الفتوحـات الإسـلامية تكتشف أنه على الأقل أبو عبيدة الجراح وخالد بـن الوليـد كانوا يقسمون الجيش على قبائل فلم يكن التقسيم قاصرا على الميمنة والميسرة والقلـب فقـط وإنمـا يؤكـد المؤرخـون

العسكريون الذين تعاملوا وأرخوا للمواقع العسـكرية التـي قادها أبو عبيدة الجراح وخالد الوليد وغيـرهم مـن القـادة والفاتحين أن الجيش كان يتم تقسيمه إلى قبائـل بمعنـى أن الأقرع بن حارث مثلاً من قبيلة تحيم فيكون هو المسئول عن القبيلة في الجيش فيصبح تقسيم الجيش الميمنـة قبيلـة كـذا والميسرة قبيلة كذا ومؤخرة الجيش قبيلة كذا ومقدمة الجيش قبيلة كذا أو مكونة من عدة قبائل أي أن موضوع القبلية لـم يكن له جانب سلبي دائما وإنما كانت لـه جوانـب إيجابيـة أيضا. صحيح أن الإسلام صهر ودمج القلوب وسبحان مقلبها لكن القبلية كانت عامل حاسم في تنظيم الجيش. خاصة أنه لم يكن هناك زي موحد كما في الجيوش الآن وإن كانت هنـاك راية واحدة معروفة ومجمعة لهم وكان الجنود يفهمون دليـل النداءات فهناك لغة واحدة موحدة هي العربية، لكن أيضا هذا الاتساع يتطلب قيادته بشكل أكثر تحكمـا ومراسـا، فكيـف يعرف قائد الجيش المهارات القتالية لكل جندي. كيف يعرف فلان أكثرهم فروسية أو أعظمهم رماية لـذلك كـان ينـاط بزعماء القبائل قيادة هذه التكوينات العسكرية للجيوش.

وكان من بين هؤلاء الذين أنيط بهم قيادة قبيلتـه فـي الجيش عدي بن حاتم الطائي والمعروف أن حاتم الطائي هو أشهر اسم فيما يخص الكرم حتى إننا نقول إن فلان له كـرم حاتمي أي شديد الكرم والجود وحاتمي شبه إلى حاتم الطائي أجود الغرب وأكرمهم وكان مسيحيا يعيش في شمال الحجاز. توفي حاتم الطائي قبل أن يعم الإسلام الجزيرة ويبعث العرب إلى هذا النداء العظيم أما ابنه عدي بن حاتم الطائي فحضـر الإسلام وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقدره تقديرا شديدا ويتحدث عنه بصفات حميدة وذكره في أكثـر مـن موقـف وحديث مثنيا على جوده وكرمه، لم يتوقف الكثيـرون عنـد عدي بن حاتم الطائي رغم أنه كان ضمن الذين فتحوا الشام وغزوا العراق وكان قائدا بطلاً مغوارا. أسلم عدي عـام ٩ هجرية وتوفي عام ٦٨ هجرية أي أنه عاش في الإسلام ٥٩ عاما.

كان عدي سيدا شريفًا فـي قومـه، خطيبـا، حاضـر الجواب، فاضلاً، كريما، معظما عند قومه وعند غيرهم. في عام ٩ هجرية أرسل سيدنا محمد ﷺ عليا بن أبي طالب لهدم صنم قبيلة عدي بن حاتم الطائي. كانت القبيلة على الوثنيـة

بينما كان حاتم الطائي مسيحيا. عندما ذهب علي بـن أبـي طالب إلى الشام ليهدم وثن القبيلة أسر عدد من أبنائها مـنهم ابنة حاتم الطائي وأخت عدي فذهب عدي إلى الرسول ليخلي أسرهم وطلب منه ألا يشمت بهم أحياء العرب وقالـت لـه: "كان أبي سيد قومه وكان يفرج عن المكـروب المحـزون ويفشي السلام ويطعم الطعام ولم يطلب إليه طالب حاجة قط فرده" فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: "هذه الصفات التي ذكرتها عن حاتم الطائي هي صفة المؤمن ومن ثم خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق.

وهذا جزء يجب أن نتعلمه في ذلك الموضوع، فحـاتم الطائي توفي وهو على غير الإسلام ومع ذلك قدره الرسول عليه الصلاة والسلام لأنه كان يحب مكارم الأخلاق. لا بـد أن نجيب أيا من البشر ما داموا يحبـون مكـارم الأخـلاق ومهما كان دينهم. فإذا كان للدين فضـل يجـب أن يكـون لمكارم الأخلاق تقدير من أصحاب هذا الدين. نحن أصحاب دين إذن لا بد أن نقدر ونحب ونحترم مـن يحـب مكـارم الأخلاق. فالرسول عليه الصلاة والسلام أكـرم ابنـة حـاتم الطائي وغادرت المدينة وذهبت مع عدي إلى قبيلتها فحسنت

لهم أن يسلموا. أتى عدي المدينة وعاد إليها في نفس العـام وكان عدي مسيحيا على دين أبيه يقـول عـدي بـن حـاتم الطائي: "أتيت النبي ﷺ في المسجد فقال الناس هذا عدي بن حاتم وكنت قد ذهبت إليه بغير أمان وكتاب وكنت أرجو ا أن يجعل يده في يدي وكان الرسول عليه الصـلاة والسـلام يصلي فقام فأخذ بيدي فلقيته امـرأة وصـبي معهـا فقـالا: "إنا لنا إليك حاجة فقام معها وقضى حاجتها ثم أخـذ بيـدي حتى أتى داره فألقت إليه الجارية وسادة فجلس عليها وجلست بين يديه فقال عليه الصلاة والسلام: هل تعلم إلها سوى ا ؟ فقلت: لا، ثم قال: هل تعلم شيئًا أكبر من ا يا عدي؟ قلت: لا فقال عليه الصلاة والسلام: أسلم تسلم" وفعلاً أسلم عـدي ونزل على الكوفة وابتنى دارا ولم يزل مع علي بـن أبـي طالب في حروبه. وكان عدي قائد قبيلته وكتيبته في فتوحات المدائن والعراق والشام وأصبح عدي بن حاتم الطائي أحـد القيادات العسكرية المهمة جدا التـي لعبـت دورا عظيمـا وعبقريا في فتح الإسلام لهذه البلاد والدول.

هناك واقعة شهيرة لخالد بن الوليد هي أنه كـان يريـد الدخول على إحدى القبائل وحربها والقضاء عليها لأنه مـن

القرى التي واجهته في الحرب، وكان خالد بن الوليد يريـد التخاص من المعركة على أشد ما يكون العجلة ـ كعادته ـ فقال عدي بن حاتم الطائي لخالد بن الوليد: "إن أتيت لك بها سلما: فتردد خالد بن الوليد ثم منحه الفرصة فـذهب عـدي إلى هذه القبيلة وكانت مجاورة لقبيلته ومنطقتـه الجغرافيـة فدعاها إلى الإسلام فأسلمت كلهـا ودخلـت إلـى الإسـلام بلا إراقة نقطة دم واحدة ولم يرم عليها خالد بن الوليد سهما واحدا. بعد انتهاء عصر عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وما شهدهما من فتوحات لزم عدي بن حاتم الطائي علي بن أبي طالب وأصبح واحدا من رجاله وقياداته رغم أن علي بن أبي طالب كان قد ذهب ليهدم وثن قبيلة عدي وسـبا أختـه ولكن سبحان مقلب القلوب ما إن عرف عدي وتعرف علـى هذا الصحابي الجليل علي بن أبي طالب كرم ا وجهه حتى أحبه وأصبح واحدا من الذين حاربوا معـه وشـهدوا معـه حروبه سواء موقعة الجمل أو صفين وقيل إنه فقأت عينه يوم موقعة الجمل ثم شهد معه موقعة النهـروان ومـات عـدي بالكوفة في زمن المختار الثقفي وهو الشخص الذي خرج بعد ما يقرب من ٧ سنوات من مقتل الإمـام الحسـين مناديـا

(يا منصور أمت) وقرر أن ينتقم من الجيش الذي قوامـه ٤ آلاف جندي والذي حارب سيدنا الحسين بن علـي وقتلـه. انتقم مختار الثقفي من الأربعة آلاف جندي واحدا إثر واحـد ويحكي لنا التاريخ كيف قتل كل منهم كما قتلـوا الحسـين. فمن رمى الحسين بسهم رمى عليه سهما ومن قطـع رأسـه فعل به المثل وحكم المختار الثقفي البصرة والكوفة والعراق فترة من الفترات وفي أثنائها مـا بـين عـامي ٦٧ ـ ٦٩ هجرية توفي عدي بن حاتم الطائي بعد عمر طويل ورحلـة جبارة وسنوات قضاها في خدمة الإسلام والمسلمين وكـان عمره ١٢٠ عاما.

عبد الرحمن بن عوف.. أعظم الأثرياء

عندما عزم الرسول عليه الصلاة والسلام القيام بغـزوة تبوك، وهي الغزوة الأخيرة التي غزاها النبي عليه الصـلاة والسلام في حياته وكانت ظروفها صعبة تماما. كانت الحاجة إلى المال كما تقول كتب التاريخ في وصف هـذه الغـزوة لا تقل عن الحاجة إلى الرجال لماذا؟

كانت الغزوة في مقابل جيش الروم كثير العتاد والعـدد فضلاً عن أن المدينة في ذلك العام كانت في جدب والسـفر طويل من المدينة إلى حدود الجزيرة وحواف الشام وكانـت المؤنة قليلة جدا والرواحل - الدواب والأحصنة والجمال - أقل لدرجة أن عددا من المسلمين ذهبوا إلى الرسـول عليـه الصلاة والسلام يسألونه بشوق ولهفة إلى النضـال والجهـاد معه وأن يأخذهم معه إلى المعركة والجيش فردهم النبي عليه الصلاة والسلام لأنه لم يجد عندهم ما يحملهم عليه، فتولـوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا شديدا أنهـم لا يسـتطيعون السفر والذهاب في جيش النبي والانضمام إلى كتائب النبـي وحرب النبي حتى أن الصحابة وأهل المدينة أطلقـوا علـى

هؤلاء الذين ذهبوا للنبي بحثًا عن الجهاد فردهم لأنه لا توجد مؤنة لهم من كثرة البكاء بالبكائين وأطلق على الجيش نفسـه جيش العسرة للصعوبة الشديدة التي واجهت الجيش. ودعـا النبي عليه الصلاة والسلام المسلمين إلى التبرع والمشـاركة المالية في تحمل نفقات هذه الحـرب. وكـان فـي طليعـة المتصدقين عبد الرحمن بن عوف ويمكن أن نطلق على عبد الرحمن بن عوف ونحن مطمئنون تماما واستنادا إلى ما هو مذكور في كتب التاريخ والتراجم والسـير بأنـه مليـارديير الإسلام فهو أغنى أغنيائه وأعلى أثريائه مكانة. فقد تصـدق عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية من الذهب لكلفـة هـذا الجيش وتدعيمه حتى أن عمر بن الخطاب ـ بكـل عدلـه وصدقه ـ قال النبي عليه الصلاة والسلام منتقدا عبد الرحمن بن عوف "أني لأرى عبد الرحمن إلا مرتكبا إثما مـا تـرك لأهله شيئًا" فالإثم أن تترك أهلـك علـى حافـة الإفـلاس والمجاعة لأنك أعطيت كل ما تملك لجيش النبي عليه الصلاة والسلام فهذا إثم فقال الرسول ﷺ لعبد الرحمن بن عوف "هل تركت لأهلك شيئًا يا عبد الرحمن؟" فقال عبد الـرحمن بـن عوف "نعم.. تركت لهم أكثر مما أنفقت وأطيب" فقال رسول

ا ﷺ: "كم؟" فقال عبد الرحمن بن عوف" ما وعد ا
ورسوله من الرزق والخير والأجر" يعني أن ما تركه لأهله
ليس المال وليس هذا الذهب بأوقياته وكمياته ولكن ما وعد
ا من الأجر والفضل. ذهب الجيش إلى تبوك ودارت
المعركة كما تحكي لنا كتب التاريخ والمدهش أنه على الرغم
من أن عبد الرحمن بن عوف تبرع بكل ثروته تقريبا لصالح
هذا الجيش إلا أنه اغتنى أكثر وأثري أكثر لدرجة أن
الروايات التاريخية تحكي أنه بعد وفاة النبي عليه الصلاة
والسلام كان عبد الرحمن بن عوف هو الذي يقوم بمصالح
أمهات المؤمنين بمعنى أن عبد الرحمن بن عوف كان
المسئول المادي والمالي عن أمهات المؤمنين بعد النبي عليه
الصلاة والسلام. صحيح كان لهن نصيبهن وقسمتهن من
الغنى والأموال القادمة من الحروب والغزوات والفتوحات
لكن مرت فترة طويلة عقب وفاة النبي ﷺ لم يكن المال
الوفير قد دخل بعد إلى خزائن المسلمين وبيت مال المسلمين،
وكان عبد الرحمن بن عوف القائم بمصالح أمهات المؤمنين
وكان ينهض بحاجاتهن ويخرج معهن إذا خرجن ويحج
معهن إذا حججن ويجعل على هودج كل منهم الكسوة

الكريمة. فهو كان الراعي والممول والحامي والحارس لهـن وهذا دليل على ثقة حقيقية عميقة مهمة لها دلالتها من أمهات المؤمنين في ابن عوف ثقة واضحة بلغ من بر عبد الرحمن بن عوف للمسلمين وهو الغني الكريم الثـري والمليـارديرِ والذي إذا ما دخل تجارة كسب منها ما كسب، وإذا دخل بيعا باع فيما باع لدرجة أن كتب التاريخ والسير والتراجم تحكي عن عبد الرحمن بن عوف قوله "كنت أقلب وأقلـب الحجـر لأنظر تحت هل ذهب أم فضة" أي أنه إلى هذه الدرجة كـان الرزق يلاحقه. رزق من ا وأجر كبير. القصة هنا ليسـت المال ولكن ماذا فعل عبد الرحمن بن عوف بالمـال. أيضـا حيث بلغ بر عبد الرحمن بن عوف بالمسلمين أنه باع أرضا بأربعين ألف دينار فقسمها كلها على قوم آمنة بنـت وهـب أم رسول ا وفقراء المسلمين والمهـاجرين وأزواج النبـي عليه الصلاة والسلام، فلما بلغ هذا الكـلام السـيدة عائشـة أم المؤمنين رضوان ا عليها: "من بعث هذا المال؟" قيل لها عبد الرحمن بن عوف فقالت: "قال رسول ا لا يحنو عليكن من بعدي إلا كريم" وقد استجيب دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام لعبد الرحمن بن عوف وبورك في ماله. لدرجـة أن

تجارته كانت تنمو وتزداد وأصبحت قوافله ذاهبـة رائحـة من المدينة حاملة القمح والدقيق والدهن (الزيـت) والثيـاب والأواني وكل ما يحتاج إليه أهل المدينة وفي يوم من الأيـام قدمت قوافل عبد الرحمن بن عوف علـى المدينـة وكانـت مؤلفة من ٧٠٠ راحلة وتمشي على ظهورها الطعام والمتاع وكل ما يحتاج إليه أهل المدينة.. كان عبد الـرحمن التـاجر والمستورد الأول في المدينة. فهو الثـري الغنـي التـاجر الملياردير الذي يكفل المدينة والجزيرة العربية والمنطقة كلها بالاحتياجات مـن أول الكسـوة والطعـام وحتـى الأدوات والمعدات. ودخلت تلك القافلة المكونة من ٧٠٠ راحلة حتى رجت الأرض بها رجا فقالت عائشـة رضـوان ا عليهـا "ما هذه الرجلة؟ فقيل لها عير عبد الرحمن بن عـوف ٧٠٠ دابة تحمل البر والطعام والدقيق" فقالت عائشة رضـوان ا عليها "بارك ا فيما أعطاه في الدنيا ولثواب الآخرة أعظم". عندما بلغ هذا القول عبد الرحمن بن عوف حتى طار مسرعا قبل أن تبرك النوق إلى السيدة عائشة وقال لها: أشهد ا يـا أم المؤمنين أن هذه القوافـل جميعهـا بأحمالهـا ورحالهـا في سبيل ا " تبرع عبد الرحمن بن عوف بالسبعمائة ناقـة

في سبيل ا . وهذا المشهد الذي ينقل لك صورة حقيقية عن الغني أو الملياردير المسلم أو الرأسمالي المسلم.

كان عبد الرحمن بن عوف يشكو حكة (حساسية) في جسمه فاستأذن الرسول عليه الصلاة والسلام في لبس الحرير وهو بطبيعة الحال محرم على الرجال فوافق النبي واستثناه وقال النبي "لبس الحرير الحكة التي أصابتك" لدرجة أن عبد الرحمن بن عوف بعد ذلك ذهب إلى عمر بن الخطاب وطلب منه أن يستثني أبناءه أيضا ويأذن لهم في لبس الحرير. فرفض عمر بن الخطاب. ويعطينا هذا الموقف فكرة عن الغنى والعز الذي كان يعيش فيه عبد الرحمن بن عوف حيث كان أغنى الصحابة وأكثرهم ثراء. لكن هناك مشهدا مهما في تاريخ عبد الرحمن بن عوف هذا الملياردير العظيم في تاريخ الإسلام وممول حروب جيوش المسلمين وأحد الأعمدة المالية في خدمة الإسلام والمسلمين. وكان هذا المشهد مفصل مهم في حياة الصحابي العظيم وهو عندما حضر سيدنا عمر بن الخطاب الموت قرر أن يضع أسماء ستة من الصحابة المبشرين بالجنة ليختاروا من بينهم أميرا للمؤمنين خلفًا لعمر بن الخطاب الذي كان يحتضر وقتئذ بعد

محاولة اغتياله على يد أبي لؤلؤة المجوسـي، وكـان عبـد الرحمن بن عوف أحد هؤلاء الستة. أخرج عبد الرحمن بـن عوف نفسه من الستة وقال إنه لا يريد الإمارة والخلافة وهذه لحظة مهمة جدا في حياة عبد الرحمن بن عوف فعندما يجـد عبد الرحمن بن عوف نفسه وهو على هذه الدرجة من الغنى والثراء والعز والنعيم وفي لحظة يكتشف أنه يعطي للإسلام وهو الرأسمالي والتاجر العظيم والغني يسـتطيع أن يـدعم الإسلام وأن ينتصر لدين الإسلام ورسوله ونبيه بماله وأمواله وتراثه ونعمة ا عليه فوجد نفسه في منافسة بين أن يأخـذ الفلوس والنفوذ أم أن واحدة منهم تكفي. هل تفكر أن تـدعم مالك ومكانتك الاقتصادية والمالية والرأسمالية بالسياسة وسند الخلافة والإمارة أم أنك تبتغي وجـه ا ولا تبحـث عـن استكمال الصورة بالسياسة إلى جانب المال أو الحكم والنفوذ إلى جانب الثروة في هذه اللحظة التاريخية العظيمـة يمكـن أن تكون داخل أفكار وعقل عبد الرحمن بن عوف لنوى أنه لا يحب هذا العمل ولا يهتم بمثل هذه المكانة ولا يسعى لهذا المنصب. كان المشهد اختيارا هاما ومهما وعسيرا وشـاقًا. معروض عليه أن يكون مرشحا ضمن ستة لخلافة المسلمين

والإمارة فيختار المال والتجارة ويختار الرزق ونعيمه فـي المال والثروة وفي نفس الوقت لا يتخلى عن دوره كعنصـر هام جدا وفعال للغاية كممول في فترة من الفترات. ولم تكن الأمور قد امتدت بعد في الثراء الإسلامي بعـد الفتوحـات. إلى الحد الذي كان معه عبد الـرحمن بـن عـوف ممـول رئيسي.. بنك هام ومركزي للإسلام. قرر عبد الرحمن بـن عوف في تلك اللحظة أن يخرج من الستة ويصـبح حكمـا بينهم بمعنى أنه هو الذي يسمع آراء الخمسة ويقرر من الذي يتولى خلافة المسلمين. يقرر عبـد الـرحمن بـن عـوف الملياردير المسلم العظيم أروع الأغنياء وأغنى الرائعين فـي تاريخ الإسلام، أن يفضل المال والتجارة عن الإمارة ثم فـي نفس الوقت يصبح حكما بين الخمسة المرشـحين للإمـارة وأن يختار ويتحمل مسئولية اختيار خليفة المسـلمين. أي أن هذا الرجل الغني الثري التقي النقي هو الذي اختـار خليفـة المسلمين. هو الذي كان حكما وكيف أنه أمسك بيد عثمان بن عفان وجعله خليفة على المسلمين. لكن المدهش هنا أن عبـد الرحمن بن عوف وهو يختار عثمان بن عفان أن عثمان بن عفان كان شريكه في التجارة وكان صهره وقريبـه وصـلة

الرحم بينهما قوية وبالتالي كان ذلك الموقف أن فـتح بـاب الدهشة التاريخية والتي اعتبرها البعض ثقة كاملة في شخص وتقدير و "ضمير" عبد الرحمن بن عوف وربما يثير البعض الآخر أسئلة حول ألم يكن من الأولى ألا يختار عثمـان بـن عفان لهذه الصفات الثلاثة القرابة والمشاركة والمصـاهرة. لا يعنيني هنا إلا التوقف عند تلـك اللحظـة فـي التـاريخ الإسلامي وهي أن عبد الرحمن بن عوف الذي نحكـي مـا نحكيه عنه هو الشخص الذي آثر التجارة على الإمارة وهـو أيضا كان صاحب اليد الطولى والعليا في اختيار عثمان بـن عفان أميرا للمؤمنين. جعل عبد الرحمن بن عوف ماله كلـه في مرضات ا ورسوله وكان يقال إنه ينفقه بكلتا يديه يمينًا وشمالاً سرا وعلانيةً وما أريد أن أقوله إن الثـري المسـلم لا بد أن يكون هو عبد الرحمن بن عوف بمعنى غني فهو تصدق بأربعين ألف دينار ذهبا ثم تصدق بمائتي أوقيـة ثـم حمل مجاهدين في سبيل ا على ٥٠٠ فرس يملكهـا وفـي مرة أخرى ١٥٠٠ راحلة وكانت كل هذه فتوحات في سـبيل ا . صحيح أن الإسلام يعود بالخير الوفير والغنائم للمسلمين ولكن لم يكن يصيب عبد الرحمن بن عوف منهـا إلا كمـا

يصيب باقي المسلمين ويمثل عبد الرحمن بن عوف التقاليـد الإسلامية المقدمة والمؤكدة للغني المسلم. لا يصح أن نتعامل مع الغنى المادي الذي يتملكه المسلمون سواء فـي عصـور سابقة أو حالية أو قادمة إلا من وجهة هـذه النظـر وبهـذا الطريق إذا قلت إنه كان يلبس الحرير وسمح له النبي بـذلك سأقول لك إن هذا الاستثناء النبوي العظيم والرقيق لكن فـي النهاية ماذا قدم عبد الرحمن بن عوف في مقابله وماذا فعـل للمسلمين والإسلام. إذا قلت إن عبد الرحمن بن عوف شارك في اختيار عثمان بن عفان وربما اختار عبد الـرحمن بـن عوف مع بعض الاستفهامات التاريخية لكـن الإجابـة هـل تكسب عبد الرحمن بن عوف من شراكته لعثمان بن عفـان بعد الخلافة. عبد الرحمن بن عوف وقد تحصل علـى مـا تحصل وأثرى ما ثرى واغتنى ما أغنى مـاذا فعـل بغنـاه وثرائه. عبد الرحمن بن عوف مول الجيوش وقدم دعما ماليا هائلاً للإسلام والمسلمين. وهو النمـوذج الـذي يجـب أن نستضيء به فيما يخص الثروة والمال. إذا كان عندنا نماذج عظيمة جدا في رفض الثروة مثل أبو ذر الغفاري الصحابي الجليل وفي المطالبة بأنه لا تكتنـز المـال والفضـة وفـي

المساواة والعدل مع الفقراء وهذا كلام إسلامي حقيقي مائـة بالمائة ولكن يقدم النموذج الواحد المؤكد وهو نمـوذج عبـد الرحمن بن عوف كلنا طلاب عدل.. كلنا طلاب عدالة.. كلنا ننادي بالمساواة بين الفقراء وبين الأنبياء ولكن هذا لا يعنـي أننا نعتبر أن الغنى مظنة أو الثراء معيبة أو أن الثري الغني هو بالضرورة مستغل فاسد. لا ولكن القضية كلها هل تجتمع الثروة مع التقى وهل يجتمع المال مع العدل وعدم الاستغلال وهل يجتمع المال مع العطاء. هذه هي الفكرة الأساسية التي استطاع عبد الرحمن بن عوف بقدوتـه وقامتـه العاليـة أن يحققها لكن ماذا فعل عبد الرحمن عندما حضـرته الوفـاة؟ أعتق خلقًا كثيرة من ممالكه وأوصى لكل رجل بقى من بدر ـ أي شهد بدرا ـ بأربعمائة دينار ذهب وكان هناك مائـة من الذين حضروا بدرا لا زالوا على قيد الحياة عند وفاة عبد الرحمن بن عوف وأوصى لكل واحدة من أمهات المـؤمنين بمال جزيل حتى أن أم المؤمنين عائشة رضوان ا عليهـا كانت تقول عبد الرحمن بن عوف خلف لورثته مالاً لا يكـاد يحصيه العد، حيث ترك ألف بعير ومائة فرس وثلاثة آلاف شاه وكانت نساؤه أربعا خص كل واحدة منهن ٨٠ ألفًا وترك

من الذهب والفضة ما قسم بين ورثته بالفئوس حتى تأثرت أيدي الرجال من تقطيع الذهب.. كل هذا بطبيعة الحال بفضل من ا ونعمة وأجرا ودعاء النبي.. لكن إلى جانب الموهبة والذكاء التجاري والاقتصادي لعبة عبد الرحمن بن عوف. لكن ذلك المال كله لم يفتن عبد الرحمن بن عوف ولم يغيره فإذا كان الناس إذا رأوه بين مماليكه وعبيده فلم يفرقوا بينه وبينهم في لحظات ما قبل موته عندما كان يأتيه الطعام. وهو طعام فاخر بطبيعة الحال لأثرى العظماء وأعظم الأثرياء ـ كان ينظر للطعام ويقول "قد قتل مصعب بن عمير وهو خير مني فما وجدنا له إلا كفنًا إن غطى رأسه ظهرت قدماه وإن غطى رجليه بدا رأسه ثم بسط لنا ا من الدنيا ما بسط وإني لأخشى أن يكون ثوابنا قد عجل لنا" ثم كان يبكي حتى عافى الطعام ومات.

معاذ بن جبل.. إمام العلماء

كان معاذ بن جبل من السابقين إلى الإسلام وشهد بيعـة العقبة مع السبعين من الأنصار، وكان عمره وقتها ١٨ عاما وكان لا يزال أمردا أي يخلو وجهه من الشعر.

عندما علم عمر بـن الخطـاب أن النـاس يتبـاركون بالشجرة التي تمت عندها بيعة العقبة أمر بقطـع الشـجرة، رغم أن بيعة العقبة كانت فتحا عظيما فـي مسـيرة النبـي والإسلام إلا أن عمر بن الخطاب ﵁ كان عظيما نابها، أمر بقطع الشجرة كي يقطع أي فتنة أو افتتان بها.

كان معاذ بن جبل من نجبـاء الصـحابة مـن أشـهر فقهائهم. وتصفه كتب التاريخ والسير والتراجم بأنه كان إليه المنتهى في الأحكام والقرآن أي أنه كان سقفهم العالي. أمـا الجانب الأكثر اشتغالاً بالنور في حياة معاذ بن جبل فكان ما يتمتع به من سعة العلم والمعرفة. فتح ا على ذلك الشـاب كل قنوات الفهم والعقل والاستيعاب لكتاب ا وفهمه وحفظه فتلقى كلام رسول ا ﷺ بشغف وشوق فكان حافظـًا محـدثًا فقيها. واعتمد عليه النبي عليه الصلاة والسلام فـي مواقـع

متعددة حيث مارس التعليم والإفتاء والقضاء. عندما نتأمـل تقدير الرسول عليه الصلاة والسلام للعلم. وتحول اسم معـاذ بن جبل إلى إمام العلماء فهذا معناه الحصن على العلم والتعلم ليس بمعناه الديني الفقهي فقط وإنما بمعناه الأوسع والأشـمل والأبعد من مجرد الفقه والحديث لكن وقتئذ لم تكـن هنـاك علوم دنيوية مثل الكيمياء والفيزيـاء والفلـك وكـان العلـم المؤسسي وقتها والمنوط بإقامة الدنيا هو العلم الديني الفقهي فكان منوطًا بتأسيس الدنيا بمعاملاتها وعبادتها.

يقول معاذ بن جبل أن الرسول عليه الصـلاة والسـلام أخذ بيده قائلاً: "يا معاذ وا إني لأحبك وأحب لك ما أحـب لنفسي". وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يثني على معاذ بأساليب مختلفة فمرة يقول له "نعم الرجل معاذ بـن جبـل" وأخرى يقول له: "قد عرفت بلائك في الدين يا معاذ" ولعـل معاذ بن جبل من الصحابة الذين تمتعوا باهتمام خاص مـن النبي عليه الصلاة والسلام.

ويعد معاذ بن جبل من النخبة العلمية في ميـدان العلـم والمعرفة فهو عالم موسوعي من ذوي المواهـب والعقـول الراجحة، فكان معاذ ممن وقع عليهم اختيار الرسول عليـه

الصلاة والسلام في هذا المجـال وتشـير روايـات كثيـرة ومتنوعة عن حوارات بين النبي عليه الصلاة والسلام تكشف عن كبير هذا الاهتمام لتكشف النبي عليه الصلاة والسلام أن معاذ بن جبل يحمل عقلاً موسوعيا عبقريا فكان لا بـد مـن الاهتمام به وتحمل الأغلبية العظمى مـن الحـوارات هـذا الجانب العلمي حيث كان النبـي عليـه الصـلاة والسـلام يصطحب معاذًا أو يأخذه ورائه على الدابة ويبدأ في تلقينـه العلم من خلال الأسلوب النبوي المعروف كأن يخاطبه عليه الصلاة والسلام: "يا معاذ أني أوصيك" أو يقول له " يا معاذ أني آمرك بكلمات" أو "يا معاذ ألا أعلمك دعاء" أو "يا معـاذ ألا أحدثك حديثًا" وكان هناك نوع آخر من الأحاديث يحـث فيها النبي عليه الصلاة والسلام معاذًا على السـؤال وطلـب العلم فمثلاً يقول له "يا معاذ ألا تسألني إذا خلوت" أو "يا معاذ ما حق ا على العباد" وكانت هذه الأسئلة لتحـريض معـاذ على إكمال عقله كان النبي عليه الصلاة والسـلام حريصـا على صحبة معاذ ولقائه فكان إذا غاب عنه قال له: "يا معاذ لم لي لم أرك؟".

وهو ما يكشف حالة الحفاوة والاهتمام والرعاية والتأكيد على الجانب العلمي في شخصية معاذ. فاستطاع معـاذ بـن جبل أن يمثل تلك المرتبة المرموقة العالية بـين الصـحابة وعلى الرغم من وفاته المبكرة حيث توفي وعمره ٤٢ عاما إلا أنه كان إمام العلم والعلماء.

وأشار كثير من الصحابة إلى تفوق وصدارة معاذ بـن جبل واشتهرت رواية تقدمه على جميع الصحابة في المكانة العلمية فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "يبعث معاذ بن جبل يوم القيامة على ربوة إمامـا للعلمـاء" وكـان معـاذ متخصصا في علوم القرآن وكان يفتي في المدينـة المنـورة أثناء زمن الرسول عليه الصلاة والسلام إذ شهد لـه النبـي بذلك فقال: "معاذ أعلمهم بالحلال والحرام" وكان عليه الصلاة والسلام يصدق على ما يقوله معاذ ويدعوا المسلمين إلى أن يتبعوا ويتابعوا معاذ بن جبل فعندما سأل أنس بن مالك عـن حديث سمعه من معاذ بن جبل كان جواب النبي عليه الصلاة والسلام لأنس "صدق معاذ". كانت شخصية معـاذ العلميـة واضحة بكل أبعادها للنبي عليه الصلاة والسلام لذلك اعتمـد عليه في أعمال إدارية ومهام علمية وقضاء فكـان ضـمن

أمراء النبي عليه الصلاة والسلام – ضمن سبع وثلاثون آخرون – إذ كان النبي عليه الصلاة والسلام يرسلهم لسرايا ومدن وملوك وكان معاذ ثاني اثنين في قائمة قضاة النبي بمعنى أنه أوكل إليهما القضاء وهو على ظهر الأرض وهما علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل، لكن العمر لم يسعفه حيث مات في عهد عمر بن الخطاب بينما ظل علي بن أبي طالب يقضي في زمن أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وحتى مقتله على يد الخوارج. كما كان معاذ بن جبل من حراس الرسول عليه الصلاة والسلام يوم بدر وكان من مسئولياته فيما بعد القضاء وتعليم الناس: شرائعه، وقراءة القرآن وقبض الصدقات وهو ما يدل على أنه كان موضع ثقة وكفاءة فكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول عنه: كنت أبعث معاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب وعبد ا بن مسعود إلى الأمم كما بعث عيسى بن مريم بالحواريين" أي أنه عليه الصلاة والسلام كان يختار هؤلاء الناس ليرسل بهم بتعاليمه ورسائله لإبلاغ الناس ودعوتهم إلى الإسلام. بعد حجة الوداع أو التمام كما يسميه البعض بعث النبي عليه الصلاة والسلام عددا من أصحابه إلى اليمن

لإدارة شئونها وتعليم أهلها تحصيل الضرائب والجزية وكان معاذ بن جبل من أبرز الشخصيات التي أرسلها النبي لتلـك المهمة. لاحظوا أن اليمن كانت منطقة في غاية الأهمية نظرا لأنها منطقة حضارة وعلم وما على ذلك، كما أنها كانت على ديانة فكان بعض أهلها مسيحي والآخر يهودي لذلك يحتاجون إلى فقهاء وعلماء أجلاء تتنوع كفاءتهم وقدراتهم مثل معـاذ بن جبل قائدا ومعلما ومشرقًا على أعمال الصدقة وضـبطها وقبل أن يرسله النبي ليقضي بين أهلها قال له: "بما تقضـي إن عرض لك قضاء؟ فأجاب معاذ: أقضي بما في كتـاب ا فقال: فإن لم يكن في كتاب ا فقال: فإن لم يكن بما قضى به الرسول فقال: أجتهد رأيـي ولا آلـو ـ ـ أي ولا أظلـم ـ فضرب صدري وقال: الحمد الذي وفق رسـول ا لمـا يرضي ا " هذه الأسئلة والإجابات لا تعني إلا شيء واحـد وهو أن الرسول عليه الصلاة والسلام يحرص على الاجتهاد وأنه قد يعضل لك معضل خارج حـدود الـنص القرآنـي وخارج حدد ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام فيكون الحكم بالاجتهاد.

ظل النبي عليه الصلاة والسلام يدفع معاذًا إمام العلماء حتى يقولها "اجتهد رأيي ولا ألو" فخرج النبي عليه الصلاة والسلام مودعا معاذ داعيا له بالخير والسداد موصيا بتقوى ا وحفظ حرمة عباده. وفي رواية أخرى أنه لما أرسل النبي عليه الصلاة والسلام معاذًا بن جبل على اليمن خرج يوصيه ومعاذ راكبا ورسول ا يمشي جوار راحلته. وتقال هذه الرواية كثيرا بين معاذ والنبي وفي وداع أبي بكر الصديق لأسامة بن زيد هو خارج إلى المعركة بفلسطين أو تخوم وحدود فلسطين كما تقال مع عمر بن الخطاب وهو ينتظر مندوب أو رسول أو مبعوث سعد بن أبي وقاص ليعرف ما حدث في القادسية وهي أن الإمام يسير على قدميه والآخر على الراحلة. عندما يسير الرسول عليه الصلاة والسلام بجوار الراحلة التي يركبها معاذ بن جبل فهذا معناه عظمة رسولية وتواضع نبوي فذ وتقدر لعالم جليل.

أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام معاذ بن جبل قاضيا ومعلما وأميرا لليمن وعندما انتهى من إلقاء وصاياه عليه وإدارة هذا الحوار العبقري العظيم (بما يقضي معاذ بن جبل إن تعرض له قضاء في اليمن) فقال النبي: "إنك عسى

ألا تلقاني بعد عامي هذا وعلك تمر بمسجدي وقبري" فبكـى معاذ وعندما ذهب إلى اليمن ابتنى فيه مسجدا.

كان النبي عليه الصلاة والسلام أوصى بأخذ القرآن عن معاذ بن جبل وكان معاذ بن جبل القاضـي المرشـد لأهـل اليمن. في تلك اللحظة والتوقيت توفي النبي عليـه الصـلاة والسلام فكيف تعامل الصحابة مع معاذ بن جبل إمام العلماء والعلم؟ كان الكل يحتفظ لمعاذ بمكانته العلمية. كـان الواقـع العلمي الذي يعيشه أصحاب النبي عليـه الصـلاة والسـلام يدفعهم دفعا لاعتبار معاذ بن جبل الشـخص المهـاب مـن الجميع، فعندما تعقد المناقشات والنقاشـات ونـوادي العلـم ويتحدث أهل العلم والرواية والحديث والفقه ينظر الجميع إلى معاذ وينتظرون إيماناته وإشاراته وتصديقه على كلامهم، فهم يريدون أن يروا في عيني معاذ تمام الحق بمعنى هل ما قاله الصحابي كلام حقيقي يوافق عليه معاذ؟ لأنه إمـام العلمـاء إذ يبعث يوم القيامة على ربوة كما يقول النبي عليه الصـلاة والسلام. يقول عبد ا بن مسعود: كنا نشبه معاذ بن جبـل بإبراهيم الخليل عليه السلام. كان أمـة قانتًـا " وروي أن عمر بن الخطاب خطب في الناس قائلاً: "من أراد أن يسـأل

القرآن فليأتي أبي كعب ومن أراد أن يسأل الحلال والحرام. فليأتي معاذ بن جبل ومن أراد أن يسأل المال فليأتيني فإني له خازن" فكان عمر بن الخطاب يرى نفسـه مجـرد خـازن وحارس على بيت المال أما الإفتاء فيقوم به معاذ بن جبـل وفقه القرآن يقوم به أبي بن كعب. كما قال عمر بن الخطاب في تقديره لمعاذ: "عجزت النساء أن يلدن مثل "معاذ" وقـال "لولا معاذ لهلك عمر" أي أن الناس يسـتطيع أن يقـدم لـه النصح والمشورة والإجابة عن الحلال والحرام هو معاذ بن جبل. وعندما أدركت عمر بن الخطاب المنيـة قـال: "لـو أدركت معاذ بن جبل لوليته ثم لقيـت ربـي فسـألني مـن استخلفت على أمة محمد لقلت سمعت عبدك ونبيـك يقـول: يأتي معاذ بن جبل بين العلماء بربوة".

وهذا الحديث يؤكد رغبة الناس فـي تقـدير الصـحابة حسب عاطفة وحب كل راوي. لكن دعك من هذه السـطور المنسوبة إلى عمر بن الخطاب حول أنه كان يمكن أن يوليه إمارة المسلمين من بعده. لكن معاذ بن جبل في حد ذاته جبل من العلم وملأ مساحة واسعة من بلاد الإسلام علمـا وفقهـا وحديثًا، وهو عالم تربى على يديه كثير مـن أبنـاء الأمـة

الإسلامية في مكة والمدينة واليمن والشام حتى أن بعض من كان يحضر مجالسه وينهل من علمه بكاه في حياتـه وهـو يودع الدنيا وقد تجاوز الأربعين بقليل، وكان يبكي أمام معاذ فلما سأله عن سبب بكائه أجابه أنه سيفتقد علمه عندما يرحل عنهم. توفي معاذ بن جبل وعمره ٤٢ عاما فـي عـام ١٨ هجرية. وهذا الموت المبكر قد يثير أسئلة خاصة أنه لم يكن معتل الصحة أو يشارك في غزوة أو فتح والحقيقة أنه كـان من ضحايا طاعون (عمواس) هذا الطاعون الـذي شـهدته الأمة الإسلامية عام ١٨ هجرية.

كان طاعونًا هاما وخطيرا في التاريخ الإسلامي حيـث بلغ عدد ضحاياه ٢٥ ألفًا وقيل ٣٠ ألفًا من ضمنهم كثير من الصحابة، ولم يتوقف أحد كثيرا عند كارثة الطـاعون علـى الرغم من كثرة ضحاياه وينسب الطاعون إلى هـذه البلـدة (عمواس) التي تقع بين فلسطين وتخومها وحـدودها. وتـم نسب الطاعون إلى هذه البلدة رغم أنه تعدى حدودها لأنهـا كانت أول مكان يظهر به. مات معاذ بـن جبـل مـن أثـر الطاعون ولحق بعبيدة الجراح الذي مات من أثر الطـاعون أيضا حيث كان أميرا على هذه المنطقة فلمـا طعـن - أي

أصابه الطاعون - ولي الإمارة معاذ بن جبل لكن سـرعان ما أصاب الطاعون معاذ بن جبل نفسه وتوفي الرجل العظيم وإمام العلماء عن سن ٤٢ عاما وفي بعـض الروايـات ٤١ عاما وفي أخرى ٤٠ عاما سنة ١٨ هجريا من أثر الطاعون.

تحدثنا كثيرا ونتحدث دائما عن الصحابة الفرسان القادة الفـاتحين والأبطـال المنتصـرين أو المختلفـين سياسـيا وصراعاتهم الحزبية وعن المحن والأحن والوقائع والأحداث وعندما نتحدث عن بطولات وفتوحـات وقيـادات سياسـية وعسكرية وعن العدل والحكام العادلين فإن كل ذلك لا يجب أن ينسينا أن نتحدث عن الصحابة العلماء أو عن العلم حيث يشكل الصحابة خريطة كبيـرة مـن القيـادات العسـكرية والأبطال العظام كل في مجاله. لكن يبقى إمام العلماء معـاذ بن جبل ممثلاً لهذه القيمة التي نفتقدها وهي العلم بمفهومـه الأوسع الأشمل. فالعلم بحاجة إلى نظرة إسلامية جـادة لـه لا تتوقف على مجرد الحديث. فالعلم والعقل مسألة مهمة جدا والحقيقة أنه عندما نتحدث عن العلم يجب دائما أن نتوقـف. ننتبه. ننتظر. نحترم. ندرس. نبحث. نجل. نقدر. معاذ بـن

جبل إمام العلماء. أين العلماء وأين إمامهم؟ يجب أن نبحـث عن معاذ بن جبل ولديه الإجابة.

رجال حول الرسول

بداية إذا أردنا معرفة سيرة أي صحابي مـن صـحابة رسول ا من لحظة إسلامه وربما من لحظة مـيلاده حتـى لحظة مماته كيف نعرف ذلك؟ أولاً هناك كتب مشهورة فـي هذا السياق بطبيعة الحال وأشهرها كتاب الأستاذ خالد محمد خالد (رجال حول الرسول) وهو كتاب رائع وقـيم وتعلمنـا على يديه وأحببنا القراءة والكتابة فـي التـاريخ الإسـلامي عبره. لكن الكتاب يتعامل مع ٦٠ صحابيا فقط وعندما تقرأه تكتشف أن هناك إحساسا كبيرا بالكتابة الأدبية والبلاغية لكن لا يوجد أي سرد تاريخي تفصيلي لحياتهم، وتستغرق حيـاة الصحابي ما بين ٤ ـ ٥ صفحات وكأنها عنـاوين. وكـان الكتاب معنيا أكثر بالرجال حول الرسول بمعنى كيف كانوا؟ كيف أسلموا؟ وكيف تعلموا مـن الرسـول عليـه الصـلاة والسلام؟

والكتاب مشبع للذين يبحثون عن الرحلة بشكل عام لكل صحابي وكيف كانت لكنه ليس مشبعا للباحثين عن التـاريخ التفصيلي للصحابي فمثلاً أثار انتباهي أن كل ما قرأته فـي

كتب التاريخ عن أسامة بن زيد يتوقف عن لحظة خروجه بالجيش بعد تولي أبو بكر الصديق الخلافة، وإقراره على الجيش الذي كان النبي عليه الصلاة والسلام أمره عليه قبل وفاته. فإذا أردت أن تعرف أكثر عن حياة أسامة بن زيد فلا تجد إلا لماما. عندما نبحث في كتب السيرة والتراجم عن حياة الصحابة فأمامنا كتب إما حديثة وهي كتب تشرب منها لكنها لا تروي ظمأ الباحث الذي يشغله فكرة التاريخ الإسلامي مثل كتاب (رجال حول الرسول) لخالد محمد خالد وكتاب (صور من حياة الصحابة) ويضم ٦٥ شخصية للأستاذ الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا وهو أقرب إلى كتاب خالد محمد خالد (رجال حول الرسول) والحقيقة أن ذلك الكتاب ومعظم الكتابات التي تقرأها في هذا السياق تكاد تكون بنفس الألفاظ والكلمات والسطور بمعنى أنهم يرجعون إلى مراجع واحدة بطبيعة الحال، ويتوقفون عند نفس اللحظات في حياة كل صحابي ومن ثم فإن أي كتاب منهم يغني عن باقي الكتب. وتأتي معظم هذه الكتابات في سياق التحية والمحبة والإجلال والتقدير للصحابة لكنها ليست في سياق التاريخ التفصيلي والتحليلي للوقائع بدليل أنك تكتشف

في معظم هذه الكتب أن حياة الصحابي بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام لا تتجاوز ٦ ـ ٧ أسطر يحكون فيها عن كيف ومتى توفي الصحابي فضلاً عن سيطرة اللغة الأدبية البلاغية على تلك الكتابات أكثر من اللغة التاريخية. إلى جانب هذه الكتب والكتابات المعاصرة هناك كتب ومراجع موسوعية منها كتب في التاريخ بشكل عام مثل كتاب الطبري (تاريخ الأمم والملوك) للإمام جعفر الطبري ويقع في عدة مجلدات وهو مثل كتاب (الكامل في التاريخ) لابن الأثير وكتاب (البداية والنهاية) لابن كثير أيضا.

يبدأ كتاب (تاريخ الأمم والملوك) للطبري الحكي منذ بدء الخليقة وحتى قرون عبرت في الإسلام ويرد الوقائع والأحداث سنة بسنة فمثلاً السنة الرابعة عشر نقرأ: ذكر القادسية، ذكر أحوال أهل الثواب، ذكر بناء البصرة وهكذا سنة بسنة أي أنك إذا أردت معرفة تاريخ أحد الصحابة فتضطر لقراءة المرجع كله لتعرف متى بدأ الصحابي وكيف تطور به الحال سنة بسنة ومتى مات وهي مسألة ليست بالهينة لأنك إذا استطعت تحمل مشقة القراءة فستفاجأ باللغة التاريخية العصبة وسرد الأشعار.

فماذا فعلت لأجمع هذه المادة؟ كنت ألجأ إلى كتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) لعز الدين بن الأثير أبي الحسـن بن علي بن محمد وهو كتاب موسوعي عظيم عـن سـبعة آلاف صحابي وصحابية ويلعب هذا الكتـاب أبلـغ الأدوار عظمة في تدوين وكتابة تاريخ الصـحابة. يرتـب الكتـاب الصحابة ترتيبا هجائيا وقد يسـتغرق الحكـي عـن حيـاة الصحابي ٤ أسطر فقط وبعضهم قد يستغرق الحكي عنـه ٣ صفحات وللكتاب مميزات كما تذكرها المقدمة وهي أنه رتب تراجم الصحابة ترتيبا هجائيا دقيقًا حسب الحروف الهجائيـة لكل اسم مثبتًا مراجعه التي نبه عليها بالرمز ومراجع أخرى كثيرة في مختلف العلوم ذكرها بالاسم فضـلاً عـن شـرح للكلمات الغريبة وتصويب لبعض الأخطاء ويعد ابن الأثيـر واحدا من العظماء الذين قدموا للإنسانية كتبا عظيمـة منهـا (أسد الغابة في معرفة الصحابة) وهو كتاب يعلن عن سـعة إطلاعه ومعرفته بالأخبار وغرامه بالبحث ودقته في النقـل وأصالته في التأليف وفي الكتاب يقرر ابن الأثير أنه عـانى مثلما نعاني نحن الآن فكان يريد أن يعرف قصـة صـحابي فماذا يفعل؟ جمع كل كتب التاريخ التي ألفها أو ألفها غيـره

وبدأ يتتبع مسيرة كل صحابي ويعرضها فـي هـذا الكتـاب بالحروف الأبجدية. لكنها برغم كل هذا قد تكتشف أنـك لـم تعرف بعد كل شيء عـن حيـاة الصـحابي وأن معرفتـه لا تروي ظمأك فيبرز السؤال كيف تحصل على معلومـات واضحة كثيرة متعددة عن أحد الصحابة؟ بعد أن أقـرأ عـن حياة الصحابي في كتاب (أسد الغابة في معرفـة الصـحابة) كنت أرجع إلى كتاب الطبري (تاريخ الأمم والملوك) وأرجع إلى العام الذي توفي فيه الصحابي حيث يذكر الطبري جزءا من سيرة الصحابي عند ذكره لعام وفاته فتجد أن المـذكور لا يختلف كثيرا عما كتبه ابن الأثير في (أسد الغابة) فتكتشف بالفعل أن هناك من الصحابة من يمكن ألا تجد عنهم كتابات كثيرة، وأن التاريخ يكون مهتما جدا بهم في مرحلة ثم ينساهم في مرحلة أخرى. وهناك صحابة آخرون الاهتمام بهم واسع وكبير مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص. أيضـا مـن الكتب الهامة كتاب (حياة الصحابة) للعلامة الشـيخ محمـد يوسف القندمولي والذي توفي عام ١٣٨٤ هجريا ويقع فـي ثلاث مجلدات ويقسم الكتاب الصحابة وفقًا للأحداث ولـيس الشخصيات فمثلاً يضم الكتاب فصلاً بعنوان البكاء ويـروي

فيه كل المشاهد التي بكى فيها الصحابة، وفصل آخر بعنوان البكاء ويروي فيه كل المشاهد التي بكـى فيهـا الصـحابة، وفصل آخر بعنوان العدل يضم أحاديث عن العدل ومواقـف وأحداث عن العـدل فالتقسـيم موضـوعي ولـيس تقسـيم شخصيات فتكتشف أنه لا مفر من العودة لكتب السير السابقة لكن أحيانًا تطغى حادثة على البحث مثل عزل خالد بن الوليد هناك كتب بطبيعة الحال تحدثت عن خالد بن الوليد وكتـب أخرى عن سيرة عمر بن الخطاب فأقرأ هذه وتلك ثم أرجـع لكتاب الطبري ومن الفهرس تعرف السنة التي عزل فيه خالد بن الوليد، وتبدأ تقرأ الواقعة كما ذكرت في أمهـات الكتـب ثم أرجع لكتاب ابن الأثير (الكاتب) وكتاب ابن كثير (البداية والنهاية) هناك بعض الوقائع يكون هناك اختلاف عليها بـين الكتب ليس اختلافًا لحد التناقض بطبيعة الحال ولكـن فـي تفصيلات الحدث نفسه فأفتح كتاب (أسد الغابـة)، (وفيـات الأعيان)، (الطبقات) وهي كلها كتب تراجم وبناء على ذلـك تعرف ماذا حدث؟ ثم تبني رؤيتك النقدية لما حـدث وبـأي طريقة وما رأيك؟ وهناك أساتذة فوق الجميع ومهما بذلنا من جهود لن نستطيع وصف ما فعله هؤلاء العمالقـة للتـاريخ

الإسلامي وهم محمد حسين هيكل صـاحب (حيـاة محمـد) و(الفاروق) و(أبو بكر) وكتاب (عثمان) ثم طه حسـين ثـم الأستاذ ـ فلا يمكن أن نقول اسمه مجـردا هكـذا عبـاس محمود العقاد. والذي وفر علي الكثير من المعاناة في البحث التاريخي عن الإجابات على الأسئلة. طول الوقت كانت هناك أسئلة تدور في ذهني عن سير الصحابة، أحـاول أن أجـد الإجابة الشافية لها في كتب التراجم والسير والتاريخ. هنـاك شخصيات عرض لها العقاد بالتحليل والنقد مثل عبقرية خالد، عمرو بن العاص، معاوية بن أبي سفيان، ذو النورين عثمان بن عفان، إلى جانب العبقريان وأشعر أننا بحاجة للكتابة عن عبقرية العقاد نفسه ماذا فعل العقاد؟ فعل ما أحاول فعله الآن ولكن (بأستذة ومعلمة) بخبرة وعقل ونقد ودراسة وعبقريـة ووعي. جع العقاد إلى نفس الكتب التاريخيـة والموسـوعية التي تحدثت عنها لأنه لا يوجد كتب غيرها فالمراجع واحدة موجودة في كل المكتبات وعند كل الناس لكن الفكـرة هـو كيف تقرأها وعند ماذا تتوقف؟ وما الذي تقتبسه منها؟ العقاد هو الوحيد الذي كتب عن هذا التاريخ بشكل فيه منطق وعقل وبطريقة أبهرتني شخصيا. فبينما كان هيكل مهتمـا بإعـادة

صياغة كتب التاريخ حتى يتمكن الباحثون من قراءتها لأنهـا صعبة جدا لغير المتخصص كان العقاد منشغلاً بتأمل وتحليل هذه الكتب. أما الأستاذ العظيم الدكتور طه حسين فله كتـب في هذا الموضوع لا شك أنها رائعة ومدهشة ويقف على قمة هذه الكتب كتاب الفتنة الكبرى بجزأيه (عثمان) والثاني (علي وبنوه) وفعل طه حسين ما فعله العقاد، رجـع إلـى الكتـب والمراجع، والمراجع الموسوعية وتأملها وقرأ ما فيها ثم أعاد روايتها مرة أخرى بطريقته وصياغته ثـم قراءتهـا عقليـا ونقديا. ويتحدث دكتور طه حسين بشكل لطيف جدا عنـدما تقرأه فيقول (أحدثكم عن) لأنه كان كفيفًا وكان يملي ما يكتبه أما لغة طه حسين فلا يوجد أرقى منها فإذا كنت تريد القراءة بشكل مستمتع جدا متلذذ للغاية وشبعان نفسيا جدا فعليك بطه حسين أما إذا كنت تريد أن تعمل عقلك مثل الموتور فعليـك بعباس العقاد.

هناك كتب أخرى جميلة مثل (صفوة الصفوة) للعلامـة بن الجوزي عن أعظم الشخصيات فـي التـاريخ وكتـاب (السيرة النبوية) لابن هشام وهو المرجع الأساسـي للسـيرة النبوية ولم يكتبه ابن هشام وإنما اقتصر دوره على تنقيحـه

واختصاره فقط فنسب إليه وهو المرجع الأساسي في كل ما يخص علاقة الرسول عليه الصلاة والسلام بالصحابة، وما كان يحدث بينهم ولم يكن ذلك مناطي وهدفي الأول في هذا الكتاب لأنني كنت مهتما بما بعد النبي عليه الصلاة والسلام فكانت هذه الكتب التاريخية تسد هذه الحاجة، ولا توجد أي كلمة في هذا الكتاب خارج هذه الكتب. أما الآراء التي أوردتها فكانت من بين هذه الكتب. فكل المراجع التي عدت إليها في هذا الكتاب التزمت بها تماما وكلية. وكل ما هو مذكور في الكتاب عن الصحابة هو تقدير وإجلال لهم حتى وهم يختلفون ويتصارعون ويتنافسون لأن الشخصيات العظيمة الرائعة المذهلة مثل صحابة رسول ا ورجال ما بعد الرسول عليه الصلاة والسلام هم عظام مهما اختلفوا وعظام مهما اختلفنا معهم أو حول موقف أو رؤية أو حداثة أو واقعة لهم. فالكل كان يرى فيما يفعله الحق. ونحن نرى الحق مع الجميع لكننا محتاجون إلى عقل يفرز ويقول ويقول ويحكي ويقرأ قبل ذلك كله.